مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسرة

ك.ج. يونج

ترجمة: نهاد خياطة

علم النفس التحليلي

لوحة للفنان خوان ميرو

أمهات  الكتب

اهداءات ٢٠٠٤

أسرة المخرج / إبراهيم الصحن

القاهرة



علم النفس التحليلى

علم النفس التحليلى

ك. ج. يونــــج

ترجمة: نهاد خيّاطة

إعداد: د. محمد محمد عنانى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة أمهات الكتب)

علم النفس التحليلى
ك. ج. يونج
ترجمة: نهاد خياط

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د. سمير سرحــان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

تصدير

هذا كـتـاب من أمـهات كـتب علـم النفس الحـديث ، وهو يضم محـاضرات ودراسـات صدرت عـام ١٩٣٣ ، وتجمع أهم عمل يمـيز بين جهود يـونج فى علم النفس وبين فرويد ألا وهو كتابه الأول الـصادر عام ١٩٢٨ بعنوان **دراستان فـى علم النفس التحليلى** ، ولكن مـن هو يونج مؤلف هذا الكتاب المهم ؟

عندمـا يذكـر يونـج - واسمـه بالكامـل كـارل جوسـتاف يونج (Carl Gustav Jung) - يذكر الناس النظريات التى وضـعها وأشاعـها عن الأنماط الفـطرية (archetypes) (انظر كـتابى **حكايات الواحات** - القـاهرة ٢٠٠٢) ومفـهـومة عن الـشخـصيـة الانطوائيـة (introverted persanality) والانبساطية (extroverted) ويذكرون نظريته عن اللاوعى الجماعى (The Collective Unconscious) ولكنهم يذكرون قبل ذلك كله خـلافـه مع سـيجـمـوند فـرويد - رائد التـحليل النفـسى (psychoanalysis) - وتقـديمه عوضًا عنه مـا أطلق عليـه **علم النفس التحليلى** (analytical psychology) .

ولد يونج عام ١٨٧٥ فى مدينة كيسفيل ، فى سويسرا ، وكان والده قسيساً وأستاذاً فى فقه اللغة ، وعندما شب الصبى «كارل» لاحظ أن إيمان والده الدينى بدأ يهتز ، مع أن كل ما خبره الصبى يؤكد ضرورة هذا الإيمان بل وحتميته ، فحاول أن يعيد إليه الإيمان المستند إلى الخبرة الشخصية والاستبطان (introspection) أى التأمل الذاتى العميق ، ولكن الخلاف استعر بين الصبى ووالده ، فكان أن غيّر الصبى من وجهة حياته وبدلاً من أن يدرس اللاهوت ليصبح مثل والده كاهناً ، بدأ يميل إلى دراسة الطب ، وفعلاً التحق بجامعة بازل حيث درس الطب من عام ١٨٩٥ حتى ١٩٠٠ ، ثم واصل دراسته العليا فحصل على الدكتوراه فى الطب النفسى (psychiatry) من جامعة زيوريخ عام ١٩٠٢ ، واستقر فى زيوريخ حيث مارس عمله بالطب النفسى فى مستشفى الأمراض النفسية ، وبدأ فى تطبيق منهج التداعى للألفاظ (word associations) وهو المنهج الذى ساعده على اكتشاف الخبىء فى نفوس المرضى ، وبدأ يطلق على العوائق التى لا يعيها المرء وتتسبب فى مرضه النفسى مصطلح «المركّب» (أو العقدة complex) . وسرعان ما أدت هذه البحوث إلى رسوخ مكانته على المستوى الدولى ، وإلى تفهمه لمذهب فرويد ، بل إن مكتشفاته أكدت صحة الكثير من أفكار فرويد ، فبدأ العمل معه بل والتعاون الوثيق معه سنوات طويلة - من عام ١٩٠٧ حتى ١٩١٢ .

ولكن الخلاف كان محتومًا لأن يونج رفض قبول ما ذهب إليه فرويد من أن الأمراض العُصابية (neuroses) تنشأ عن أسباب جنسية ، وكانت فى رأى يونج ترجع إلى أسباب مركبة من المحال أن تقتصر على الكبت الجنسى ، وكتب يونج فى ذلك بحوثًا كثيرة ، ما لبث أن نشرها بعد انفصاله عن فرويد فى عام ١٩١٢ ، ونشر فى عام ١٩١٦ كتابه الشهير سيكلوجية اللاوعى (Psychology of The Unconscious) الذى يعارض فيه كثيراً من آراء فرويد .

أما أول انجازاته العظيمة فكان التفريق بين فئتين من الناس وفقًا لنمط الشخصية (character types) فوصف الشخصية الانبساطية بأنها الشخصية التى تتميز بالانفتاح على ما حولها ومن حولها ، والشخصية الانطوائية بأنها الشخصية التى تنطوى على نفسها أى تنغلق على ذاتها ، ثم حدد أنماط الشخصية بأنها تتميز بسيادة عنصر واحد أو أكثر من عناصر عمل العقل أو وظيفته وهى التفكير والشعور والحس والحدس ، فإذا ما ساد عنصر واحد اتسمت الشخصية بسماته وغلبت العناصر الأخرى ، وإذا ساد عنصران تمكنا من التغلب على غيرهما ، وقد يتعادل تأثير هذه العناصر جميعًا أو يتصارع تأثيرها . وقد نشر كتابه الذى يحمل العنوان المذكور (أنماط الشخصية) عام ١٩٢١ بالألمانية ثم بالانجليزية عام ١٩٢٣ .

وقد قام يونج بدراسة الأحلام وتوسع في دراستها ، استناداً أولاً إلى خبرته الشخصية وأحلامه منذ الطفولة ، ثم استناداً إلى أحلام الآخرين ، وقام بتحليلها فاكتشف أنها تنبع عند الجميع من منطقة من مناطق الوعى المشترك بين البشر جميعًا أطلق عليها اسم «اللاوعى الجماعى» ، واستنتج من هذا أن الإنسان يتميز عن جميع الكائنات الأخرى بنفسٍ واعيةٍ ونفسٍ غير واعية تختلف عن الروح البيولوجية المشتركة بين الكائنات الحية ، وذهب إلى أن ذلك يؤكد حياة النفس الإنسانية التى بثها الخالق جل وعلا فى البشر ، ويؤكد وحدة الإنسان فى كل زمان ومكان ، ووحدة «النفس المخلوقة» والتى تحاكى عمليات الخلق التى ترجع إلى الخالق ، وكان ذلك المنحى الدينى فى تفكيره مصدر انتقاد غيره من العلماء الذين رموه بتهمة «التصوف» والابتعاد عن «المنهج العلمى» مع أنه لم يكن يبنى أى نظرية إلا على أساس من البحث العلمى البحت وعلى أسس الحقائق الثابتة ، ولا مناص من أن تؤدى هذه الحقائق إلى الإيمان الدينى ولو وصف بالتصوف .

وكان من ثمار دراسته المذكورة توصله إلى أنماط فطرية (archetypes) أى أنماط غريزية فى كل إنسان تُخلق معه ولا تستمد من الخبرات الدنيوية ، وتتجلى فى صور ورموز قد تفوت على الكثيرين ولكنها تؤكد أيضًا وحدة المصدر وتجاوزه للزمان والمكان ، فهى فطرية بمعنى أن الإنسان مفطور عليها ، أو أنها قائمة فيه بالفطرة ، وهى إنسانية عامة نراها فى غير المتعلم وفى المتعلم ، وفى الطفل وفى البالغ ، وفي

كل اللغات والمهارات الذهنية ، وفى الظواهر النفسية . وقد استفاد كثير من الباحثين فى الأدب من هذه النظرية فطبقوها فى مجالات النقد الأدبى.

وكان من أهم المفاهيم التى أتى بها يونج أيضًا مفهوم عملية التفرد (individuation process) وهى العملية التى يستطيع بها من تعرض لتفتت عناصر شخصيته أن يلم شتاتها فيصبح فردًا متماسكًا من جديد ، وقد اهتدى إليها عندما درس المرضى النفسانيين ، خصوصًا من تقدم بهم العمر وشعروا أنهم فقدوا معنى الحياة ، وكان أسلوب علاجه الذى نجح هو أن يبحثوا فى ذواتهم عن رموزهم الخاصة وأن يعيدوا إقامة العلاقات بين عناصر هذه الرموز ، فإذا اكتشفوا منطق الروح فى ذواتهم و استطاعوا أن يجعلوه رابطة تربط هذه العناصر بعضها بالبعض ، فيتم الشفاء .

وقد عاش يونج حتى الخامسة والثمانين وتوفى عام ١٩٦١ فى زيوريخ.

والله من وراء القصد ،،،

د. محمد عنانى

القاهرة - ٢٠٠٢

مدخل إلى علم النفس التحليلي

١ - يقوم علم النفس التحليلي أساسًا على الخبرة العملية التى تجمعت لصاحبه من اتصاله بمن اتفق لهم أن عُرضوا عليه للمعالجة بحكم عمله المهنى ، ومن دراسته للحالات النفسية التي يتعرض لها الإنسان عمومًا ، سواء أكان إنسانًا سويًا أو معصوبًا أم به جنون . ومع ذلك ليس علم النفس التحليلى نوعًا من علم الأمراض النفسية وإن كان يعتمد المادة التجريبية لهذا العلم ، بل هو - كما يقول يونج - «اقتراحات ومحاولات لصياغة خبرة عملية جديدة عن الكائن البشرى» . والحق إن هذه الخبرة لا تستطيع أى نظرية - مهما بلغت من الدقة والشمول - أن تحيط بها أو تصوغها : ذلك لأن تسليط الضوء على نقطة واحدة منها ، وإن كان يفضى بنا إلى نوع من تجلية غموضها ، خليق بأن يجعلنا فى منأى عن شبكة العلاقات التى يتكون منها مجمل النشاط النفسى : إن السعى وراء الدقة فى تحديد الخبرة النفسية من شأنه أن يفقدها الكثير مما لها .

٢ - وقــد آثر يونج اصطـلاحى «النـفس» Psyche و «النفـسى» Pychic على «العقل» mind و mental ، لما فى هذين الأخـيرين من صلة وثيقة بـالواعية ، وما فى الأولين من اشتـمال على الواعية والخـافية جميعًا . فـالإنسان الذى يكون محلاً لظاهرات الخافيـة ، يكون عادة غير عـارف بها ، لفـقدان صلة هذه الظـاهرات بواعيـته . وهى إذا اتفق لهـا واقتحمت الواعية - كـما فى الخروج عن الطور الذى لا يتناسب مع سببه البادى - لم يسـتطع إنسان يجهل طبيـعة الخافيـة أن يجد لها تفـسيراً أو تعليلاً . لذلك نجـدنا نقول فى مثل هذه الحالات : «لا أدرى مـاذا جرى لى !» . وظاهرات الخافية لا تقتصر على المرضى وحدهم ، وإنما كثيراً ما تصدر عن الأسوياء تصرفات لا يعرفون شيئًا عن دوافعها .

هذا ، وإن الجانب الخافى من النفس بمثـابة عِوَض من جانبها الواعىّ فى بعض الأحـيان ، على مـا بين الجـانبين من اختـلاف . بل إن يونج ليذهب إلى أن الواعية نفسها «قد نشأت عن الخافية وهى أقدم منه عمراً ، وأن الخافية قـد تعمل متناسقة مع الواعيـة أو حتى رغمًا عنها . «زد على ذلك إصرار يونج على حقيقة النفس التى لا تقل عن حقيقة الفيزياء ، بما لها من بنيـة وقوانين خاصـة بها ، خلافًا للـذين يعتبـرون العقل ظاهرة ثانوية ، أو ظاهرة تالية ، أو «شبحًا فى مكنة» .

«كل ما أختبـره فهو شأن نفسى ؛ حتى الألم الفيـزيائى نفسه ما هو إلا حادث نفسى يرتد إلى خـبرتى ؛ حتى الانطباعات الحـسيّة - بكل ما

تفرضه علىّ من عالم الأشياء الكتيمة التى تتحيّز المكان - ما هى إلا صُوَر نفسية ، وهى وحدها خبرتى المباشرة ، لأنها وحدها المواضيع المباشرة فى واعيتى . ثم إن نفسى تغير شكل الواقع وتزيّفه ، وإنها لتفعل ذلك إلى حد أضطر معه إلى الاستعانة بوسائل صنعية لكى أحدد ما هى عليه الأشياء فى معزل عن نفسى . وعندئذ أكتشف أن اللحن ذبذبة هوائية بدرجة كذا وكذا من التردد ، وأن اللون موجة ضوئية بدرجة كذا وكذا من الطول . نحن مطوّقون بالصور النفسية إلى حد لا نستطيع معه أن ننفذ إلى قلب الأشياء الخارجة عن نفوسنا ؛ كل معارفنا مشروطة أو مقيدة بالنفس التى هى الشىء الواقعى على أعلى مستوى ، لأن النفس هى الشىء الوحيد الذى يتصف بالمباشرة . نحن هنا بإزاء واقع نفسى بوضع عالم النفس أن يحتكم إليه - وأعنى به الواقع النفسى» .

ولعلنا نستطيع أن نضيف إلى ذلك ما تتمتع به الحقيقة النفسية من قدرة على فرض نفسها وبطرائق شتى ، من ذلك مثلاً نشوء أمراض ، لها كل أعراض الأمراض الفيزيائية البحتة ، ابتداء من الشلل الهستيرى والعمى إلى الصّرع والمعاد (=مرض المعدة) وجملة أخرى من الأدواء الخفيفة . يضاف إلى ذلك أن كل ما يفعله الإنسان له بداياته فى النفس؛ إما أن يكون شيئًا فكّر فيه لتوّه ، وإما أن يكون حلمًا حلَم به أو رؤيا رآها . وقد تكون آمالنا ومخاوفنا مستندة إلى «حقائق» يعترف بها غيرنا ، أو قد تكون أضغاث أوهام ، لكنّ الفرح أو القلق الذى تجلبه واحد فى

كلا الحالين . فالذى نختبره حقيقى بالنسبة لنا ، وإن لم يكن كذلك لغيرنا ، ويتمتع بقيمة خاصة تضارع قيمة «الحقيقة» التى يعترف بها الناس، على ما بينهما من اختلاف .

وإن هذا الموقف من حقيقة النفس ليتعارض تعارضًا ظاهرًا مع الموقف الذى طالما وصفه يونج بأنه «مجرد موقف» . فالذين يذهبون هذا المذهب، أو يقفون هذا الموقف ، كثيرًا ما قللوا من شأن المظاهر النفسية ، ولا سيما الاختبارات التى لا يتيسر لنا أن نربطها مع الحوادث الخارجية فتجدنا نشير إليها من غير اكتراث قائلين : «إن هى إلا وهم من الأوهام» أو مسألة ذاتية بحتة» أما يونج فيعطى السياق النفسى أو الداخلى قيمة السياق الخارجى أو المحيطى .

٣ - يفهم يونج النفس نظامًا حركيًا لا يتوقف ، وفى الوقت نفسه ينظم نفسه تلقائيًا Self-Regulating system . ويطلق على الطاقة النفسية اسم «الليبيدو» . ولا ينبغى أن نفهم من «الليبيدو» انطواءها ، بهذه الصفة ، على قدرة بأكثر مما ينطوى عليه مفهوم «الطاقة» فى العلوم الفيزيائية ؛ إنما هى مجرد اصطلاح لوصف الظاهرات الملاحظة .

وتضطرب «الليبيدو» بين قطبين متضادين . ولعل ذلك يشبه البطين والأذين فى القلب ، أو الموجب والسالب في الدائرة الكهربائية . ويشير يونج عادة إلى القطبين المتعارضين بـ «الضدين» . وتشتد الطاقة كلما احتدم الاصطراع بين الأضداد ، إذ لا طاقة بادية بدون تضادّ . ويمكننا أن

نعدد هنا أضداداً كثيرة ذات مستويات متباينة : فهناك مثلاً الإقدام والإحجام ، والواعية والخافية ، والانبساط والانقباض أو الانطواء ، والفكر والشعور إلخ . وللأضداد وظيفة تنظيمية (كما اكتشف ذلك هيراقليط قبل مئات من السنين) : عندما يبلغ أحد الضدين أقصى مداه ينقلب إلى ضده الآخر . وإننا لنجد مثالاً بسيطًا على كيفية انقلاب أحد الضدين ، عندما يصل إلى أقصى مداه ، إلى شيء آخر مختلف عنه كل الاختلاف في سورة الغضب يعقبه سكون ، وفي البغضاء تئول إلى مودّة. ويرى يونج أن الوظيفة التنظيمية للأضداد مركوزة في الطبيعة البشرية ، وأساسية لفهم النفس في قيامها بوظائفها .

والحركة الطبيعية التي تتحركها الطاقة النفسية (=الليبيدو) حركة نواسيّة إلى الأمام والخلف ، ولعلّنا أن نشبهها بحركة المدّ والجزر . ويسمي يونج الحركة الأمامية التي تلبي متطلبات الواعية إقداماً progression ، والحركة الخلفية التي تلبي متطلبات الخافية إحجاماً regression . فالإقدام ينصرف إلى تكييف الإنسان لنفسه إيجابياً مع البيئة ، وأما الإحجام فإلى تكييفه لها مع احتياجاته الداخلية . ولذلك كان الإحجام من الإقدام بمنزلة النوم من اليقظة ، بما هو قطب طبيعي مضاد للإقدام ، مادامت الطاقة النفسية تقوم بأداء وظيفتها من دون عائق ، طبقًا لقانون الانقلاب الضدّي Enantiodromia حين تنقلب في النهاية إلى حركة إقدام ، وقد يعني الإحجام ، في جملة ما يعني ، عودة إلى

حالة حلمية بعد فترة من النشاط العقلى الموّجه والمركّز ، أو قد يعنى عودة إلى حـالة ســابقـة من التطـور . لكن هذه الحـالات ليـست «أخطاء» بالضرورة، بل لعلها نوع من مـراحل إعادة الإنشاء أو «الانكفاء من أجل وثبة أبعد»[1] . وإذا قامت محاولة لقسر الليـبيدو على الانصباب فى قناة صلبـة ، أو أقـام الكبت من بين أيديـها سـداً ، أو باء الـتكيف الواعى بالفـشل لسـبب أو لآخر (ربما لأن الظـروف الخارجـية أضـحت بالغـة الصعوبة) ، فعندئذ تصبح الحركة الإقدامية مستحيلة وتنكفىء الليبيدو إلى الخافية فتـغدو محمّلة بطاقة أكبر من استيـعابها ، وتروح تبحث عن منفذ لها تفرغ فـيه شحنتها . فى مـثل هذه الحالة قد ترشح الخافـية من خلال الواعية وهمًا أو عـرضًا عصابيًا ، أو تتبدّى سلوكًا طفـوليًا أو حيوانيًا . وقد يصل بها الأمر إلى أن تطغى على الواعية طغيانًا ينشأ عنه خروج عن الطور عنيف ، أو يتطور عنه جـنون مطبق . وعندما يحـدث ذلك يكون الأمر أشبه بسـدّ تهدم فأغرق جميع ما حـوله . وفى الحالات القصوى - عندما تفـشل الليبيـدو فشلاً تامًا فى العـثور على منافذ لهـا - تكون أمام حالة انسحاب من الحياة ، كما فى بعض حالات الجنون الشديد . إن هذا هو الإحجـام المَرَضى الذى يختلف عن الإحـجام الصـحى بما هو ضرورة حـياة . ليس الإنسـان آلة حتى يسـتطيع أن يتكيف مع عـالمه الداخلى . «وهو ، بالعكس ، لا يستطيع أن يتكيف مع بيئته بصورة دائمية ، بل لا

(١) التعبير مثبت فى النص بالفرنسية Reculer pour mieux sauter .

بدّ له أن ينسجم مع نفسه أيضًا ، أى أن يتكيف مع عالمه الداخلى وهو ، بالعكس ، لا يستطيع أن يتكيف مع عالمه الداخلى ويحقق وحدته الداخلية إلا إذا تكيف مع ظروفه الخارجية» .

٤ - إن الليبيدو طاقة طبيعـية تتولى ، أولاً وقبل كل شىء ، القيام بخدمـة أغراض الحيـاة ، لكن قدرًا معـينًا ، مما يفيض عن حاجـتنا منها لتلبية أغراض غريزية ، قد يتحول فعلاً إنتاجيًا أو يسخّر لأغراض ثقافية. إن توجّه الطاقة على هذا النحو أمر ممكن مبدئيًا حين تتحول شيئًا يماثل فى طبيعتـه غرض الاهتمام الغريزى . غير أن هذا التحـويل غير ممكن بمجرد فعل الإرادة ، فـهو لا يحدث إلا بطريقة غـير مباشـرة . فبعد فـترة من النضج فى الخافـية ينتج رمز يسـتطيع أن يجتذب الليـبيدو إليـه ، ويقوم أيضًا بمهمة القناة فى تحويل الطاقة عن مجراها الطبيعى . والرمز لا ينتجه الفكر إنتاجًا واعيًا ، بل كثيرًا مـا يجىء على هيئة وحى أو حدس يتبدّى غالبًا فى الأحلام .

لكن ينبـغى أن نلاحظ هنا أن يونج يستعمل كلمـة «الرمز» بطريقة محددة فى جميع أعماله ، ولذلك نجده يميز بين «الرمز» Symbol والسمة أو «العلامة» Sign . فالسمة عوض من الشىء الحقيقى أو تمثيل له ، أما الرمز فينطوى على معنى أوسع بما يعبر عن حقيقة رمزية لا يمكن صوغها بصورة أدق .

عند الأقوام البدائية تقوم صلة وثيقة بين الفعل الجنسى وحراثة الأرض[1] ، بينما نجدهم يمهّدون ، من أجل القيام بأفعال أخرى ليس لها مثل هذه الصلة كالقنص والصيد والحرب ، بالرقص والاحتفالات السحرية مبتغين من ذلك تحويل الليبيدو إلى الفعل الضرورى . وإن تقصّى التفاصيل التى تجرى بها مثل هذه الاحتفالات ليظهر لنا شدة الحاجة إلى حرف الطاقة الطبيعية عن مجراها الأصلى .

يقول يونج إن تحويل الليبيدو إلى رموز لم يزل يجرى منذ فجر الحضارة ، وإنه ليرجع إلى شىء عميق جداً من أصل الطبيعة البشرية . لقد أفلحنا ، على مجرى الزمان ، فى اقتطاع جزء معين من الطاقة وصرفناه عن الانصباب فى مجرى الغريزة ، كما أفلحنا فى تطوير إرادتنا تطويراً لم يزل أضعف مما يحلو لنا أن نعتقد ، لكننا لم نزل بحاجة إلى قوة الرمز التحويلية ، وهى القوة التى يسميها يونج بالوظيفة الإعلائية . Transcendent Function

٥ - تنطوى نظرة يونج إلى الخافية على قيمة أكثر إيجابية من النظرة التى تعتبرها مجرد «قمامة» نلقى إليها كل ما هو مرفوض طفولى أو حيوانى فينا ، ونودع فيها كل ما نريد نسيانه . صحيح أن هذه الأشياء قد

(١) يلاحظ أن فعل «الحراثة» يستعمل فى العربية مجازاً عن «الفعل الجنسى» ؛ جاء فى القرآن الكريم : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ سورة البقرة : الآية ٢٢٣ . .

استقرت فى الخافية ، وأن الكثير من الذى يقتحم الواعية ذو صفة عَمَائية غير متشكلة ، لكن الخافية من الواعية بمنزلة الرحم من الجنين ، وإنما فى الخافية ينبغى لنا البحث عن إمكانيات جديدة للحياة . والجانب الواعى من النفس أشبه بجزيرة يحيط بها الماء من كل جهة لا يُرى منها إلا الجزء الذى لا يغمره الماء ، أما الخافية فهى ذلك المجهول الذى لا يقع تحت أبصارنا ويمتد عمقًا إلى أسفل القاع .

الجزيرة هى «الأنيّة» Ego العارفة المريدة ، وهى مركز الواعية . لكن الذى يمت إلى الواعية بسبب ، والذى أعرفه عن نفسى وعن العالم ، والذى يستطيع التوجيه والمراقبة كل هذا ليس من أمر الواعية دائمًا . فأنا أنسى وأكبتُ ما لا أحبّ ، أو ما ليس مقبولاً فى المجتمع . (والكبت repression أن نصرف انتباهنا عن فكرة أو شعور أو حادث بصورة متعمدة ومستمرة - على درجة متفاوتة من التعمد والاستمرار - حتى نستبعد هذه الأشياء من الواعية فى النهاية ، فلا نستطيع استرجاعها . أما الكبح[1] suppression ، - وقد يلتبس بالكبت - أن نصرف انتباهنا اضطرارًا عن بعض الأشياء لكى نستطيع الانتباه إلى أشياء أخرى ، لكننا

(١) وضعنا «الكبح» ترجمة لكلمة Supperssion لكى تؤدىَ هذا المعنى حصراً . وربما كان للتجانس اللفظى والتقارب المعنوى بين «الكبت» و «الكبح» أثر فى إغرائنا باعتماد هذه اللفظة ، خصوصًا وأن التجانس والتقارب متوفر فى الكلمتين الإنجليزيتين . المترجم .

هنا نستطيع استرجاع الأشياء المصروفة على هذا النحو ، بإرادتنا) وإن لى إدراكات حسيّة ذات قوة غير كافية لبلوغ الواعية ، وأختبر الكثير مما لا أفهمه إلا جزئيًا ، أو مما لا أعرفه معرفة تامة . هذه الإدراكات الرفيعة - بالإضافة إلى ما أختزنه من ذكريات مكبوتة أو منسيّة - تشكل نوعًا من «بلاد الظل» التى تمتد جسرًا بين «الأنيّة» والخافية ، فتكون بلاد الظل عندئذ منطقة لا تغمرها المياه دائمًا ، بل يكون فى وسعنا استطلاحها واسترجاعها . بلاد الظل هذه يسميها يونج «الخافية الشخصية» أو الخاصة personal Unconscious ، تمييزًا لها من «الخافية الجامعة أو العامة» Collective Unconscious ، وهى الجانب النفسى الذى يشكل «الخافية» بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى .

وعلى هذا فالخافية الخاصة ، وإن كانت لا تخضع كلها للإرادة ، يمكننا استرجاعها (كما هو الحال فى النوم) إن كان الكبت ضعيفًا ، ويمكنها أحيانًا أن ترجع من تلقاء نفسها ، أو بفضل تداع طرأ اتفاقًا أو بفعل صدمة عنيفة . ثم هى قد تتستر وراء الأحلام والأوهام فتنشأ أمامنا ضرورة ملحة للتنقيب عنها وإخراجها إلى حيّز الوعى إذا ما أخذت تسبب لنا اضطرابات نفسية كما هو الأمر فى العصاب .

٦ - وللوصول إلى هذه الذكريات ، اعتمد يونج المنهج التحليلى الذى يعرف بـ «الاختبارات التداعى» Association Tests ، وهو المنهج

الذى بدأ باستخدامه فى مطلع حياته العملية . أظهرت له هذه الاختبارات ما للبنية النفسية من خصوصية تتبدّى فى جنوح الأفكار إلى التجمع على نوى (ج. نواة) أساسية معينة . وهذه الأفكار ذات اللون العاطفى يسميها يونج «عقدًا» Complexes . فالنواة ضرب من المغنطة السيكولوجية ، وهى ذات قيمة تضارع قيمة الطاقة . وتقوم تلقائيًا باجتذاب الأفكار إليها بما يتناسب شدة أو ضعفًا مع طاقتها . وتتكون نواة العقدة من عنصرين أساسيين : أحدهما فطرىّ ، والثانى محيطى أو مكتسب ؛ أى إن العقد غير مشروطة بالخبرة وحدها ، وإنما بطريقة الفرد فى رَجعه[1] على تلك الخبرة .

والعقدة واعية أو خافية . والواعية تكون كذلك كليًا أو جزئيًا ، وتتوقف معرفتنا بالعقدة على ما إذا كانت واعية كليًا أو جزئيًا ، أو على ما إذا كانت ذات طبيعة خافية تامة . وفى هذه الحالة الأخيرة لا نكون عارفين بوجودها أبدًا . والعقدة ، سواء أكانت واعية جزئيًا أم خافية كليًا، تتصرف وكأنها شخص ذو كيان مستقل ؛ لأن الأفكار والعواطف التى تجمعت حولها تدخل إلى الواعية وتخرج منها دون أن يكون عليها

(١) نقترح «الرجع» ترجمة لكلمة Reaction ، التى جرى العرف على ترجمتها بكلمتى «رد فعل» وهما كلمتان يتعذر استعمالهما وصفًا أو نسبة . أما «الرجع» فيسوّغها استعمالها نسبة أو وصفًا فنقول «رجعى»، وهى ترجمة لكلمة Reactionary . وفى جمع «رجع» نقول «رجوعات» تفاديًا للالتباس «بالرجوع» وهو العودة - المترجم - .

ثمة رقيب . هذا ، ومن التكلّف محاولة إقامة سدّ فيما بين المحتويات النفسية ، لكننا - برغم ذلك - يمكننا القول بعقد ترجع إلى الخافية الخاصة ، وأخرى ترجع إلى الخافية العامة أو الجامعة ، وهى المجال النفسى الذى يشترك فيه الجنس البشرى قاطبة .

٧ - والخافية العامة أو الجامعة طبقة أعمق من الخافية الخاصة أو الشخصية وأبعد منها غوراً ، وهى المادة المجهولة التى نشأت منها واعيتنا. وبوسعنا أن نقدّر وجودها جزئيًا من ملاحظتنا للسلوك الغريزى ، بما أن الغرائز حواضّ على الفعل لا دخل فيها للواعية . والحق إن هناك أفعالاً كثيرة ذات حضّ من الخافية ، ومع ذلك غير جديرة باعتبارها أفعالاً غريزية ؛ ذلك أن الفعل الغريزى «موروث وخافىّ» فى آن ، وهو «يحدث فى كل مكان بصورة واحدة ومنتظمة» . فالغرائز معترف بها عمومًا ، لكن الذى غير معترف به فهمنا للحياة واختبارنا لها على نحو رسمه لنا تاريخنا ، تمامًا مثلما نضطر إلى الفعل وفق خطوط عريضة معينة فى ظروف معينة . لا يريد يونج أن نفهم من هذا أن الخبرة التى نختبرها على هذا النحو أو ذاك خبرة موروثة ، لكنه يرى أن الدماغ البشرى نفه شكلته وأثّرت فيه الاختبارات البعيدة التى اختبرتها البشرية فى عهودها الأولى . فكما أن وراثتنا مكوّنة من مسالك فيزيولوجية ، كذلك أوجدت مسالكنا السيكولوجية السياقات العقلية عند أسلافنا . فإذا عادت هذه الآثار إلى واعية الفرد ، استطاعت أن تفعل ذلك على هيئة

سياقات عقلية ليس غير . وإذا اتفق لهذه السياقات أن أضحت واعية ، فإنها لم تصر كذلك إلا من خلال الخبرة الفردية ، فتبدو وكأنها مكتسبات فردية. لكن الذى تولت الخبرة الفردية «تعبئته» فى هذه السياقات ليس أثرًا موجود سلفًا أو موروث ؛ إنما الموروث هو جدول الخافية السابق الوجود .

هذا الميل ، أو هذه الحاجة ، إلى فهم الحياة واختبارها على نحو حدّده تاريخ الجنس البشرى ، يسميه يونج ميلاً بدئيًا . وما النماذج البدئية إلا «أشكال الفهم السابقة الوجود» (= أى موجودة قبل نشوء الوعى) أو «حالات خلقية من الحدس . . . وكما تجبر الغرائز الإنسان على مسلك بشرى ذى وجه مخصوص ، كذلك تجبر النماذج البدئية الحدس والفهم على صيغ بشرية ذات وجه مخصوص» .

وعلى هذا إن النماذج البدئية شأن من الخافية يمكننا معرفته بواسطة صور نموذجية معينة تتردد على النفس ، وقد سمّاها يونج ذات مرة بـ «الصور البدئية» Primordial Images (وهو تعبير استفادهُ من يعقوب بركهارت) ، لكنه ما لبث حتى عدل عنه إلى اصطلاح النموذج البدئى Archetype الذى يشمل المظهرين من النفس : الخافية والواعية .

يذهب يونج إلى أن النماذج البدئية قد تشكلت على مدى ألوف السنين عندما بدأ الدماغ والوعى البشريان ينفصلان عن الحالة الحيوانية

لكن صورهما ، أو نماذجهما البدئية ، فى وقت كانت فيه ذات طبيعة أولية تتصف بالمرونة ، طرأت عليها تعديلات أو تغييرات كانت متطابقة مع العهد الذى ظهر فيه الدماغ والوعى على النحو الذى تقدم ذكره . بعض هذه الصور - ولا سيما التى تدل على تغير هام فى الحياة النفسية - يظهر على أشكال هندسية أو مجردة ، كالمربع أو الدائرة أو العجلة (= الدولاب) . وقد تظهر مفردة ، أو مجتمعة فى شىء من الحذق تشكل معه رمزاً نموذجيًا ذا أهمية خاصة . وبعضها الآخر يتبدّى أشكالاً بشرية أو شبه بشرية ، آلهة وإلهات ، أقزامًا وعمالقة ، حيوانات أو نباتات ، حقيقية أو وهمية ، نجد عليها أمثلة لا حصر لها من علم الأساطير .

والنماذج البدئية نختبرها عواطف وصوراً ، ونلاحظ آثارها خاصة فى الحالات البشرية الهامة والنموذجية ، كما فى الولادة والموت والتغلب على عقبة طبيعية ، وفى المراحل الانتقالية من الحياة كالمراهقة ، أو فى حالات الخطر الشديد أو الذعر . فى مثل هذه الحالات كثيراً ما تظهر صور بدئية فى أحلام الإنسان العصرى شبيهة بالصور التى أمكن العثور عليها فى كهوف «أوفيران» .

٨ - ويذهب يونج إلى أن الأحلام آثار طبيعية وعفوية تصدر عن النفس ، وتستحق منا أن نوليها الاهتمام اللازم ونأخذها مأخذ الجد ، بما تحدثه فينا من آثار خاصة بها حتى وإن لم نستطع إدراك هذه الآثار أو

فهمها . ولغة الأحلام لغة رمزية تتوسل بالتشبيهات للتعبير عن نفسها ؛ ومن هنا غموضها أو لغوها البادى .

والخافية العامة يمكننا استنتاجها من الإنسان السوىّ مما يتبدّى فى أحلامه من آثار بيّنة على الصور البدئية ، وهى صور لم يكن له بها معرفة واعية . وإنه يصعب علينا أحيانًا أن ننفى مثل هذه المعرفة (ولعل باستطاعتنا دومًا أن نقول باحتمال وجود «كربتمنيزيا»[1]) ، ولكننا نجد فى حالات معينة من الاضطراب العقلى تطورًا مدهشًا للتخيل الميثولوجى لا يمكننا أن نعزوه إلى الخبرة الفردية الخاصة .

ويقدم لنا يونج مثالاً على هذه الظاهرة حالة كان يتولى العناية بها فى أحد المستشفيات العقلية فى عام ١٩٠٦ . كان صاحب هذه الحالة مجنونًا كثير الاضطراب أحيانًا ، لكنه كان فى فترات هدوئه يصف رؤى غريبة وتصدر عنه صور وأفكار رمزية غريبة جدًا . ولم يكن قد ألقى الضوء على هذه الصور والأفكار إلا فى عام ١٩١٠ ، حين عثر يونج على بردية إغريقية انفكت رموزها حديثًا وكانت تتعلق بموضوع مماثل لرؤى المريض وأفكاره . يقول يونج :

«حدثت رؤى المريض فى عام ١٩٠٦ ، ونشر النص الإغريقى لأول مرة فى عام ١٩١٠ . ولذلك يجب أن نعتبرهما أمرين منفصلين أحدهما

---

(١) الكربتمنيزيا cryptomnesia شىء قرأناه أو سمعناه ثم نسيناه ثم عاد إلى الذاكرة بطريقة خافيّة(=لا شعورية) فيخيل إلينا أننا نقرؤه أو نراه أو نسمعه لأول مرة - المترجم - .

عن الآخر انفصالاً يجعلنا نستبعد إمكانية الكريتمنيزيا من جانبه ، وتحويل الأفكار من جانبي» .

٩ - أنفق يونج شطراً كبيراً من وقته عاكفًا على درس الأساطير ، فهي عنده تعبيرات أساسية عن الطبيعة البشرية . فالأسطورة تشكلها أو تصوغها الواعية ؛ أي إن هذه تعطيها الشكل الذى يكفل لها الانتقال والشيوع . لكن روح الأسطورة ، أو الحضّ الإبداعى الذى تمثله ، والمشاعر التى تعبر عنها أو تستثيرها ، بل لب موضوعها إلى حد كبير - كل ذلك إنما يأتى من الخافية العامة أو الجامعة . صحيح أن الأساطير تبدو وكأنها محاولات لتفسير حوادث الطبيعة ، كشروق الشمس وغروبها، أو قدوم الربيع بكل ما يحمله من حياة جديدة وخصب ، إلا أنها - فى نظر يونج - أكثر من ذلك بكثير ؛ إنها التعبير عن كيفية اختبار الإنسان لهذه الأشياء : هكذا يصبح شروق الشمس مولداً للبطل الإلهى من البحر ، الذى يقود عربته فى أقطار السماء[1] ، وعند الغروب تكون التنّينة ، الأم الهائلة ، فى انتظاره لكى تبتلعه . وفى جوف التّنينة يسافر فى أعماق اليم ، وبعد معركة رهيبة مع أفعوان الليل يعود فيولد من جديد عند إطلالة الصباح . هذه موضوعات ميثولوجية تعكس بوضوح محاولات بشرية لتفسير السياق الفيزيائى لشروق الشمس

(١) هل يمكن اعتبار ذلك استشرافاً للمركبات الفضائية ؟! - المترجم - .

وغروبهـا ، لكن مضـمونهـا العاطفى يجـعلها أكـثر من ذلك بكثـير . فالأقـوام البدائيـون لا يعرفـون تفريقًا حـادًا بينهم وبين بيـئتهـم ، فهم يعيـشون حالـة يسميـها «لاوى بروهـل» بحـالة «المشاركـة الصـوفيـة» Participation Mystique يريد بذلك أن ما يحـدث فى الخارج يحدث مثله فى الداخل أيضًا ، والعكس بالعكس. لذلك تكون الأسطورة تعبيرًا عما جرى فى المحيطين الداخلى والخـارجى منذ طلوع الشمس ورحلتها فى الفضاء حـتى تتوارى فى الحجاب عند هبوط الظلام ، مثلما تكون تفكرًا فى الحوادث وتفسيرًا لها .

وبما أن الأساطيـر تعبيـرات عن الخافية العـامة أو الجامـعة ، لذلك نجدها متماثلة عند جميع الأقـوام وفى جميع الأزمنة . وحين يفقد الإنسان قدرته على صنع الأسـطورة ، يفقد صلتـه بالقوى الإبداعيـة فى وجوده . فالدين والشـعر الفـولكلور وحكايات الجن - هذه كلها تتـوقف على هذه القدرة بالذات . فـالرموز أو الأشخـاص المركزية فى جـميع الأديان ذات خـاصيّة بدئيـة . لكن فى الأديان البـدائيـة أقل منه فى الديانات العليـا المتطورة ، لكن طبيعتها البدئية تكون أظهر فى الأولى منها فى الأخيرة . على أن أكثـر التعبيـرات صدورًا مباشرًا عـن الخافية ما نجـده فى الأحلام والحالات العقلية الغريبة وفى أوهام الممرورين من ظهور للنماذج البدئية بما هى صـور أولّية . فـهذه الصـور تبدو عنـدئذ وكأنهـا تمتلك قوة وطاقـة خاصتين بها : تتحرك وتتكلم ، وتدرك وتسعى إلى غرض ، تخدعنا عن

أنفسنا وتسوقنا سوقًا إلى فعل ما يناهض مقاصدنا الواعية مناهضةً كلّية ، توحى إلينا بالخلق والتدمير : بعمل فنّى أو انفجار غوغائى مجنون . هى «الكنز المكنون» الذى ظلت تمتح منه البشرية فى كل زمان ومكان ، منه أقامت آلهتها وشياطينها وجميع الأفكار ذات الأهمية البالغة والفاعلية الشديدة التى بدونها لا يكون الإنسان إنسانًا . لذلك كانت الخافية ، عند يونج ، ليست مجرد «قبو» يلقى إليه الإنسان نفايته ، بل هى أصل الوعى والتدمير عند الإنسان .

١٠ - أن نحاول تحديد الخافية الجامعة أو تعريفها هو أن نحاول المستحيل ، لأنه لا يمكننا أن نعرف حدودها ولا طبيعتها الحقيقية ، بل كل ما يمكننا فعله بإزائها أن نلاحظ بوادرها ونصفها ثم نحاول فهمها على قدر المستطاع . وقد أفرغ يونج معظم جهده فى سبيل تحقيق هذا الغرض . يقول عن النماذج البدئية : «فى الحقيقة ، لا يمكن أن يفهمها فكرنا ، لأنه لم يخترعها أبدًا» . ومع ذلك هناك إمكانية لتمييز أشكال متنوعة منها تعاودنا في الأحلام والأوهام ، يمكن أن نجد لها معادلاً تاريخيًا وميثولوجيًا فى جميع أنحاء العالم . هذه الأشكال اعتبرها يونج نوعًا من النماذج البدئية الرئيسية التى تؤثر فى فكر الإنسان وسلوكه فأسماها «القناع» persona و «الظل» shadow و «الأنيمة» Anima و «الأنيم» Anim و «الشيخ الحكيم» Old wise man و «الأم الأرضية» Earth mother و «النفس أو الذات» The Self .

وهنا أيضًا يجب أن ننبّه إلى أنه لا يوجد فواصل قاطعة فى البنية النفسية ، لأن النماذج البدئية نفسها قد يكون لها وجه شخصى . فصورة الأنيمة مثلاً مشروطة بخبرة الرجل للمرأة على مدى قرون موغلة فى القدم، لأنها - من ناحية ثانية - ذات صلة بالخبرة الفردية التى تتكون من علاقة رجل معين بالمرأة عمومًا . وعلى هذا يكون بعض النماذج البدئية ذا صفة أعم ، وبعضها الآخر ذا طبيعة أخص كالقناع والظل(*) .

(*) عن :.

An Introduction To Jung, Psychology By FRIEDA FORDHAM.

مقدمة الطبعة الإنجليزية

بقلم : كارى ف. باينير

فى العقـد الماضى من هذا القرن ، ظهرت بوادر كـثيرة من مـصادر مختلفة تشير إلى أن العالم الغربى يقف على شفا انبعاث روحى جديد ، أو على تحول أساسى فى مـوقفه من قيم الحـياة . فبعد حـقبة طويلة من التوسع الخارجى ، عـدنا لكى ننظر فى أعماق نفوسنـا مرة ثانية . هناك اتفاق عام على الظاهرات التى تحيط بهذا الانتقال المتعاظم فى الاهتمام من الوقائع بما هى كـذلك إلى معناها وقيمـتها بالنسبـة إلينا بما نحن أفراد ، لكن ما إن نبدأ بتحليل التـوقعات التى يحتضنها مخـتلف الجماعات التى يزخر بها عالمنا عن التحول المرتقب حتى ينتهى الاتفاق ، ويقوم بدلاً منه - آراء تختلف وقوى تتصارع .

فالذين ينتصـرون للديانة المستمدة من الوحى يعتقـدون أن الانبعاث الوشيك انبعاث للكثلكة أو للبروتستـانتية ، على حسب ما يكون صاحب هذا الاعـتقاد كـاثوليكيًا أو بروتسـتانتـيًا . وسندهم فى ذلك أنهم يرون

البشر يتدفقون بالملايين عائدين إلى أحضان الكنيسة ، حيث يلتمسون العزاء عن وقائع الخيبة والفواجع التى حلّت بعالم ما بعد الحرب ، ويتعلمون منها الطرق التى تؤدى بهم إلى الخروج مما هم فيه من عَمَاء Chaos . ويقولون إن تجديد إيماننا بالمسيحية خليق به أن يعيدنا إلى طريق الحياة الأمين ، ويعيد إلى العالم الوحى الذى افتقده .

وجماعة أخرى ترى أن الموقف الجديد الذى يتعين علينا اتخاذه هو القضاء على الدين كما فهمناه حتى الآن ، قائلة إن الدين ما هو إلا بقايا خلّفتها لنا بدائية تؤمن بالخرافة يجب أن يحل محلها عهد من «التنوير» جديد ودائم . وما على الإنسان إلا أن يطبق معرفته تطبيقًا صحيحًا ، ولا سيما معرفته الاقتصادية و «التكنولوجية» حتى تتبدد هباءً جميع الغيلان الهائلة المتمثلة بالفقر والجهل والطمع الخ ، ويستعيد الإنسان فردوسه المفقود . وعندهم إن الانبعاث يتعين أن يكون فى نطاق العقل وحده بحيث يصبح الفكر هو الحكم الذى يقرر مصير الإنسان .

وبين هاتين النهايتين القُصوييَن ، . الإيمان التقليدى والعقلانية القاتلة، نجد كل تفاوت فى الرأى يمكننا تصوره حول هذه المشكلة الكبرى المتصلة بالخطوة التالية التى سوف تخطوها البشرية فى تطورها النفسى . ولعلّنا نستطيع القول إن الموقع الوسط يحتله الذين يعلمون أنهم تجاوزوا المسيحية كما هى متمثلة فى الكنيسة ، ولكنهم لم يضطروا إلى نفى ما فى الموقف الدينى من قيمة أساسية فى الحياة تماثل ما فى العلم من أصالة

وصحة . هؤلاء اختبروا الروح اختبارًا حيّاً كما اختبروا الجسد ، واختبروا الجسد اختبارًا حيًا كما اختبروا الروح ؛ تجلّت عليهم الروح تجلّيات يتعذر شرحها أو تفسيرها بلغة اللاهوت التقليدى أو بلغة المادية الحديثة ؛ ولا يحسّون رغبة فى قطع عُرى التقوى التى يشعرون بها فى أعماق قلوبهم بسبب هيكل الحقائق العلمية التى يمنحها العقل دعمه وتأييده ، بل يؤمنون أنهم لم يصلوا إلى معرفة أوسع عما تؤديه عقولهم من وظائف داخلية ، وإلى معلومات أوفى عن القوانين اللطيفة - المحددة تحديدًا كاملاً مع ذلك - التى تحكم النفس الإنسانية ، لكان بمقدورهم الوصول إلى الموقف الجديد المطلوب ، بدون أن يُلجئهم ذلك إلى الانكفاء نحو ما هو إلا لاهوت القرون الوسطى متسترًا بغُلالة رقيقة من ناحية ، أو إلى الوقوع ضحية أوهام فلسفة القرن التاسع عشر ، من ناحية ثانية .

إلى هذه الجماعة الأخيرة يتحدث يونج بلغة مُقنعة ، ولا يتهرب من المهمة الصعبة القائمة على دمج معرفته بالروح التى اكتسبها على مدى سنين طويلة فى العمل طبيبًا عقليًا ومحللاً نفسيًا ، بذخيرة من المعلومات المتيسرة لكل إنسان والمنطبقة على كل إنسان . ويعطينا المفاتيح التى تفتح لنا مغاليق الطبيعة والوظائف النفسية التى يتلهف الإنسان الحديث شوقًا أن يمسك بها . ووجهة النظر التى يطرحها أمامنا تشكل تحديًا للروح ، وتستثير تجاوبًا فعّالاً عند كل من يشعر فى نفسه بما يحضّه على النمو إلى ما يتجاوز موروثه .

جميع المقالات التى يتألف منها الكتـاب أُلقيت محاضرات إلا واحدة (وهى «مـوازنة بين فـرويد ويونج» كتـبهـا الأخير بناء على طـلب ناشر ألمانى). والنص الألمانى لأربع منهـا نشر فى كـتاب علـى حدة[1] . أما المقالات الأخرى ، مع عدة مقالات غيرها ، قد تضمنها كتاب سبق وظهر بالإنجليزية[2] .

ندين للسـيـدة «فـوليت دى لاسلو» بالكثيـر من الاقتراحات المفـيدة المتعلقة بمقـالة «الاختيار بين الطـــبـيب النفسى ورجـــل الدين» . هـــذا وقد تفضـل الدكتور يونج والسيدة حـرمه كلاهما بقراءة الترجـمة ونقدها جزئيًا .

Cary F. Baynes

زوريخ ، آذار (مارس) ١٩٣٣

---

(١) هذه المقـالات الأربع هى : «علم النفس والأدب» و «الاخـتبـار بين الطبيب النفـسى ورجل الدين» و «المنطلقات الأساسية فى علم النفس التحليلى» و «تحليل الأحلام فى التطبيق العملى» . وكان نشرها ما بين أعوام ١٩٢٩ و ١٩٣١ .

(٢) ظهر بالألمانية فى زوريخ عام ١٩٣١ تحت عنوان :

Seelenprobleme der Gegenwart, Raacher and Cie, Zurich, ١٩٣١

الفصل الأول

تحليل الأحلام في التطبيق العملي

ما برح موضوع الاستفادة من تحليل الأحلام فى العلاج النفسى يثير الكثير من الجدل . فبينما نجد كثيرًا من الممارسين يعتبرونه أمرًا لا غني عنه فى معالجة العُصاب ، وينسبون إلى الفاعلية النفسية المتبدّية فى الأحلام ما ينسبونه إلى الواعية نفسها من أهمية ، نجد فى الطرف المقابل من ينازع فى قيمة تحليل الأحلام زاعمًا أن الأحلام نفسها ما هى إلا نتاج ثانوى من الفاعلية النفسية ، لا أهمية له .

من الواضح أن ينسب امرؤ إلى الأحلام أهمية تطبيقية ، بما هى تعبيرات مباشرة عن الخافية ، إن كان يعتقد بأن للخافية (= اللاشعور) دورًا رئيسيًا فى تشكيل العُصاب ، وأن يقلل من شأن تحليل الأحلام إن كان ينكر أن للخافية وجودًا أصلاً ، أو كان يعتقد ألاّ دور لها فى تطور هذا المرض . ومما يُؤسف له أننا لم نزل نجد إلى اليوم ، ونحن فى العام ١٩٣١ ، من يعتبر الخافية موضع أخذ وردّ ، أى بعد انقضاء أكثر من

نصف قرن على قيام «كاروس» بصياغة مفهومه عن الخافية ، ومرور قرن ونيّف على كلام «كانط» عن «ساحة الفكر المظلمة . . . التى لا قياس لها»، وما يقرب من مائتى عام على وضع «لايبنتس» مسلّمته عن الفاعلية النفسية غير الشعورية ، ناهيك عما حققه «جانيت» و «فورونوى» و «فرويد» فى هذا الميدان .

فى هذه العُجالة سأقتصر على التطرق إلى مسائل العلاج التطبيقى ، ولن أحاول الدفاع عن فرضية الخافية (= اللا شعور) ، رغم أن تحليل الأحلام يثبت أو ينهار بثبات فرضية الخافية أو انهيارها . بدون الخافية ، تبدو الأحلام وكأنه فلته من الطبيعة ليس أكثر ، أو ركامًا لا معنى له مؤلف من شتات الذكريات المتخلفة عن حوادث اليوم . فلو كان الحلم لا شىء غير هذا لم يَسُغ لنا أن نتطرق إلى هذا البحث . ولابدّ لنا من الاعتراف بوجود الخافية إن كان لابدّ لنا من البحث فى تحليل الأحلام ؛ لأننا لا نلجأ إليه طلبًا للرياضة العقلية وحسب ، وإنما لأنه أسلوب يكشف لنا عن محتويات النفس الخافية (= اللا شعورية) التى تتصل اتصالاً سببيًا بالعصاب ، وما لهذا الاتصال من أهمية فى المعالجة . ومن يرفضُ هذه الفرضية ما عليه إلا أن يضرب صفحًا عن مسألة تحليل الأحلام وقيمتها التطبيقية .

لكن ، لمّا كانت الخافية تلعب دورًا سببيًا فى تشكيل العُصاب ، بناء على الفرضية التى نذهب إليها ، وكانت الأحلام تعبر تعبيرًا مباشرًا عن

فاعليــة النفس الخافيّة ، كـانت محاولة تحليل الأحــلام وتفسيرها لهــا ما يبررها تمامًا من الناحـية العلميــة . ويغضّ النظر عن النتائج العلاجـية ، فقـد نأمل من هذه المحاولة أن تفـضى بنا إلى كشفٍ علمى عن السـببـية النفسـية . على أن الكشف العلمى بالنسـبة إلى الممارس مـا هو إلا نتاج ثانوى نَجَمَ مجّانًا عن الجهود التى بذلها فى ميدان المعالجة . فهو لا يشعر أن عليه أن يطبق تحليل الأحـلام على مرضاه لعلّه أن يواتيـه الحظ فيلقى ضوءًا على مشكلة السبـبية النفسية ، لكنه يعـتقد أن الكشف الحاصل ذو قيمة عـلاجية ، وعندئذٍ يعتبر تحليل الأحلام من واجبـات الحرفة . ولقد بات من الأمور المعروفة أن مدرسة «فرويد» تذهب إلى أن الشفاء يحصل بواسطة إلقاء الضوء على العوامل السببيــة الخافيّة بشرحها للمريض شرحًا يجعله عالمًا بمصادر اضطرابه .

إذا سلّمنا بأن الوقائع تؤيد هذا الأمل ، أمكننا الاقتصار على الأسئلة المتعلقة بإمكانية أن يتيح لنا تحليل الأحلام أن نكشف عن أسباب العصاب الخافيّة من غير أن نستـعين بشىء آخر ، أو أن نتبع أساليب أخرى زيادة على تحليل الأحـلام . أمـا أنا فـأرى أن الجـواب «الفـرويدى» على هذه الأسئلة هو من قبيلِ المعرفة العامة . وخـبرتى الشخصية تثبت هذه النظرة بما وجدته من أن الأحـلام تكشف كشفًا مطردًا لا يخطىء عن المحـتويات الخافيّة التي تشكل العوامل المسبـبة فى العُصاب والأحلام التى تكشف لنا عن هذه العـوامل هى الأحــلام الأوليـة ، فى الأعم الأغـلب ؛ وأعنى

بالأحلام الأوليـة الأحلام التى يرويهـا المريض عند بدء المعـالجة . وهذا إيضاح لعله أن يعيننا .

جاءنى مرّة رجل يحتل منصبًا بـارزًا فى العالم ، كان به قلق وفقدان أمن ، ويعـانى أحيـانًا من إغمـاء ينتج عنه غـثيـان ومن ثقل فى الرأس وضيق فى التنفس ؛ هذه الأوصاف تنطبق على أعراض «مرض الجبال» . وكان الرجل أصـاب فى حياته نجـاحًا منقطع النظير ، إذ اسـتطاع بفضل جدّه وطموحـه ومواهبه أن يرتفع فوق نشأته المتواضـعة بما هو ابن لفلاح فقير . ثم أخذ يصعـد السلّم درجةً درجةً حتى وصل إلى مركز هام أتاح له فرصـة الحصول عـلى مزيد ارتقاء فى السلّم الاجـتمـاعى . وقد وصل بالفـعل إلى مكانة فى الحـياة كـان يستطيـع أن يبدأ منهـا صعـوده إلى الدرجات العليا عندما ألمّ به العـصاب على حين فجأة . وعند هذه النقطة لم يتمـالك من إبداء ذلك النوع من التـعجب الذى يبدأ عـادة «بمثل هذه الكلمات : «فى هذا الوقـت بالذات ، عندما بدأتُ . . .» لقد كـان ظهور جمـيع أعراض «مرض الجبـال» عليه مما يتناسب مع وضعـه الخاص الذى وجد نفسه فيه . وعندما جاء لاسـتشارتى كان معه حلمان رآهما فى الليلة السابقة .

كان الحلم كما يلى :

«وجـدتُنى مرة أخـرى فى القـرية التى ولدت فـيهـا . بعض أولاد الفلاحين الذين كانوا يذهبون معى إلى المدرسـة كانوا يقفون فى الشارع .

مررت أمامهم متظاهرًا أنى لا أعرفهم سمعت أحدهم يقول مشيرًا إلىّ : لا يعود كثيرًا إلى قريتنا؟» .

لا حاجة بنا إلى التحايل على التفسير لكى نفهم الإشارة إلى البدايات المتواضعة فى حياة صاحب الحلم . الحلم يقول له فى وضوح تام: نسيت كم كنت وضيعًا فى بدايتك» .

ويمضى الحلم الثانى على النحو التالى :

«أنا فى عجلة من أمرى لأنى ذاهب فى رحلة . فتشت عن حقائبى فلم أعثر عليها . الزمن يمضى سريعًا ، والقطار سيغادر فى الحال . أخيرًا أفلحت فى جمع أغراضى بعضها إلى بعض . هرولت فى الشارع فاتضح لى أننى نسيت محفظة صغيرة تحتوى على أوراق هامة . انفتلتُ راجعًا حتى وجدتها ، ثم جريت راكضًا إلى المحطة وما كدت أجد طريقى إلا بشق النفس . ثم بذلت قصارى جهدى واندفعت نحو الرصيف فألفيتُ القطار ينفث البخار فى الرحبة كان قطارًا طويلاً ، يجرى فى منعرج غريب على شكل S . خطر ببالى أن لو كان السائق طائشًا وأطلق العنان للبخار عندما يصير فى المدى المستقيم إذن لظلت حافلات المؤخرة فى المنعرج وانقلبت من شدة السرعة . وفعلاً فتح السائق المخناق وأنا أحاول أن أصيح به محذّرًا ، فأخذت حافلات المؤخرة تهتز هزًا عنيفًا ثم انقذفت بعيدًا عن السكة . كانت كارثة رهيبة . ثم استيقظت مذعورًا» .

هنا أيضًا نستطيع أن نفهم الوضع الذى يمثله الحلم بدون صعوبة كبيرة. فهو يصور مقدار ما لدى المريض من عجلة محمومة فى سبيل تحقيق المزيد من التقدم لنفسه . ولما كان سائق القطار الذى في المقدمة يمضى قُدُمًا بدون تفكير في العواقب ، راحت الحافلات الخلفية تهتز ثم تنقلب ؛ أى أن العُصاب يتفاقم ، ومن الواضح أن المريض كان بلغ فى هذه الفترة أعلى نقطة فى حياته ؛ أى أن الجهد الذى بذله لكى يرتقى بعيدًا عن نشأته الوضيعة قد استنفد منه جميع قواه ؛ كان عليه أن يرضى بما حققه ، ولكنه اندفع - بدلاً من ذلك يحدوه الطموح لعله يبلغ قممًا أعلى من النجاح لم يكن مناسبًا لها ، فكان هذا العُصاب بمثابة تحذير له. لقد حالت الظروف دون قيامى بمعالجة هذا المريض ؛ وهو لم يُبد ارتياحه لتشخيصى لحالته . وكانت النتيجة أن أخذت الحوادث مجراها فى الطريق الذى أشار إليه الحلم . لقد حاول استغلال الفرص التى سنحت له وداعبت مطامحه فجرى جريًا عنيفًا بعيدًا عن السكّة حتى تحطم قطار حياته الفعلية . وقد سمحت لنا استعادة المريض لذكرياته أن نستنتج أن «مرض الجبال» قد أشار إلى عجزه عن التسلق إلى أعلى مما وصل إليه . وقد عزّز هذا الاستنتاجَ أحلامُه التى عرضت عجزه بما هو أمر واقع .

هنا نصل إلى إحدى خصائص الأحلام التى يجب أن تأخذ المحل الأول فى كل بحث يتناول تطبيق الأحلام فى معالجة العصاب . فالحلم

يعطينا صورة واضحة عن الحالة الذاتية أو الشخصية ، بينما يرفض العقل الواعى أن يعترف بوجود هذه الحالة ، أو لا يعترف بها إلا مكرَهًا إن أنيّة[1] المريض الواعية لا تستطيع أن ترى سببًا لعدم مضيّه قُدُمًا ؛ لقد واصل كفاحه فى سبيل التقدم ، رافضًا أن يسلّم بالحقيقة التى جعلت منها الحوادث التالية بالغة الوضوح ؛ وهى أنه بات فى نهاية المطاف عاجزًا فعلاً . فى مثل هذه الحالات ، عندما نصغى إلى إملاء العقل الواعى ، نكون فى شك دائمًا . إذ نستطيع أن نصل إلى نتائج مضادة للنتائج التى توصلنا إليها اعتمادًا على الذكريات التى يستعيدها المريض . فجندى الصف قد يحمل عصا المارشالية فى حقيبة ظهره ؛ وكم من ولد لأبوين فقيرين وصل إلى أعلى ذرى النجاح ! فلماذا لا يكون الأمر كذلك في حالة هذا المريض ؟ ولما كان رأى غير معصوم عن الخطأ ، فلماذا يكون تخمينى أدعى إلى الثقة من تخمينه ؟ عند هذه النقطة يتدخل الحلم فيعبر عن سياق نفسى غير إرادى لا يقع تحت سيطرة النظر الواعية ، إذ يعبر عن حالة الذات على ما هى عليه فى واقع الأمر . فهو لا يحترم تخميناتى ولا آراء المريض فيما يتعلق بما يجب أن تكون عليه الأشياء ؛ إنما ينبئنا بما هى عليه فقط . ولذلك اعتمدت قاعدة وضع الأحلام على صعيد واحد مع الحوادث الفيزيولوجية . فإذا ظهر فى البول سكر ، كان معنى ذلك أن فى البول سكرًا ، لا زلالاً ولا يوروبلينا أو شيئًا آخر قد أذهب إلى

(١) الأنيّة (بتشديد الياء) هى الترجمة التى اخترناها لكلمة Ego ، والتى ترد كثيرًا فى المصطلح الصوفى - المترجم - .

توقعه . وهذا يعنى أننى أعدّ الأحلام وقائع لا تقدّر بثمن فى عملية التشخيص diagnosis .

إن طريق الأحلام معدٌّ لكى يعطينا أكثر مما نطلب ؛ وإن هذا لينطبق على الحلمين اللذين رويتهما تواً على سبيل التوضيح ؛ إذ هما لم يُتيحا لنا أن نطّلع على أسباب العُصاب وحسب ، وإنّما زودنا بالمطالعة prognosis[1] أيضًا . أكثر من ذلك ، لقد بيّن لنا الحلمان عند أى نقطة ينبغى لنا البدء بالمعالجة : يجب أن يُمنع المريض من المضىّ إلى أبعد مما وصل إليه . وهذا بالضبط هو ما أنبأنا به نفسه فى الحلم .

لكن النقطة هى أن هناك نوعًا من العُصاب لا تنكشف أسبابه الحقيقية إلا فى نهاية التحليل ، وهناك أنواع منه لا يجدى الكشف عن أسبابه شيئًا . وهذا يعيدنا إلي وجهة نظر «فرويد» التى أشرنا إليها آنفًا، ومفادها أن من الضرورى - لأغراض العلاج - أن يعرف المريض معرفة واعية بالعوالم السببية التى أدّت إلى اضطرابه ؛ وهى وجهة نظر لا تعدو أن تكون إحياء للنظرية القديمة المتعلقة بالارتضاض . لا يُنكر أن كثيراً من حالات العصاب ترجع إلى أصل ارتضاضى ؛ لكن الذى أنازع فيه فقط هو أن تُردَّ جميع أنواع العصاب إلى هذا الأصل وأنها جميعًا ناشئة عن خبرة طفولية حاسمة . ينتج عن النظر إلى المسألة على هذا

(١) يُقصد بالمطالعة الرأى الذى يعطيه الطبيب عن تطور حالة المريض بعد الكشف عليه وتشخيص علّته - المترجم - .

النحو طريقة في المعالجة تقوم على تلمّس أسباب العصاب في ماضى المريض ، مما يتعيّن معه على الطبيب أن يسأل دائمًا : ما السبب ؟» وأن يهمل السؤال الآخر : «لأى غرض ؟» . وهذا كثيراً ما يلحق بالمريض ضرراً كبيراً ، لأنه مضطر إلى التفتيش فى ذاكرته - وربما على مدى سنوات - عن حادث مفترض فى طفولته ، فى وقت تكون فيه أمور ذات أهمية آنية قد أُهملت إهمالاً فظيعًا . المعالجة السببية الصرف أضيق من أن تنصف ما للحلم أو العصاب من أهمية . ويكون الطبيب منحازاً (إلى وجهة نظر معينة)[1] إذا لم يلتفت إلى الأحلام إلا من أجل غرض واحد هو الكشف عن السبب الخفىّ الكامن وراء العصاب ، غاضًا بصره عن القسم الأعظم من مساهمة الحلم الفعلية . والحلمان اللذان رويتهما تواً يُظهران العوامل المكونة للعصاب ظهوراً لا يدع مجالاً للخطأ ، بل من الواضح أنهما يزودانا بالمطالعة المتعلقة بمآل المرض وباقتراح بشأن سير العلاج . زد على ذلك أنه يجب ألاّ يغرب عن بالنا أن من الأحلام ما لا يتطرّق إلى أسباب العصاب ، وإنما يتناول من القضايا ما يختلف اختلافًا كلياً ؛ من ذلك مثلاً موقف المريض من الطبيب - بودّى أن أبيّن ذلك برواية ثلاثة أحلام لمريض واحد ، وكان امرأة . استشارات ثلاثة محللين، وعند بداية كل استشارة كانت ترى واحداً من هذه الأحلام :

(١) العبارة بين القوسين من وضعنا - المترجم -

الحلم الأول : «يجب أن أقطع الحـدود إلى البلد المجـاور ؛ لكن لا أحد يدلنى أين تقع نقطة الحدود وأنا لا أستطيع أن أجدها» .

المعالجـة التى أعقـبت هذا الحلم انتهت إلى الفـشل ، وسرعـان ما توقفت .

الحلم الثانى : «يجب أن أقطع الحدود ، اللـيل حالك الظلام . ولا أستطيع أن أجد دار الجمارك ، بعد تفـتيش طويل رأيت عن بعد مصباحًا صغيرًا واعتقدت أن نقطة الحدود تقع ثمة . لكن ، لكى أبلغها ، يقتضى أن أقطع واديًا وأمـر فى غـابة مظلمـة . هنا فـقـدت حس الاتجـاه . ثم لاحظت أن شخصًا يصحبنى . سرعان ما تعلق بى كالمجنون . استيقظت مذعورة» .

انقطعت هذه المعـالجة أيضًا بعـد بضعـة أسابيع ، والسـبب هو أن المريضـــة قد ضلت الاتجاه تمـامًا بسبب مواحدة المحلل بها مواحـدةً خافيّة (= لا شعورية) .

الحلم الثالث : «وقد رأته المريضـة عندما وصلت إلىّ . هكذا يمضى الحلم : «يجب أن أقطع الحدود ، أو لـعلنى قطعتهـا ، ووجدتُنى فى دار الجمارك الـسويسرية . ليس معى سـوى محفظة يدى ، وأعتـقد أن ليس عندى ما أصرح عنه . لكن موظف الجمرك يفتش فى حقيبة يدى ويُخرج منها - يا لدهشتى - فراشين بالحجم الكامل» .

تزوجت المريضة فى أثناء معالجتها عندى ، لكن ليس من دون مقاومة عنيفة لهذه الخطوة ، ولم يتضح لى سبب مقاومتها العصابية إلا بعد شهور عديدة ، ولم يكن فى هذه الأحلام إشارة إليه .

كانت هذه الأحلام جميعًا استشرافًا لما سوف تلاقيه المريضة من صعوبات مع المحللين الذين قصدتهم لأجل العلاج .

وبوسعى أن أروى أحلامًا كثيرة أخرى تئول إلى نفس الغرض . لكن هذه الثلاثة كافية لأن تبيّن لنا أن من الأحلام ما يكون ذا صفة استشرافية ، وفى هذه الحالة لابد لها أن تفقد معناها الخاص لو نحن عاملناها على أساس البحث عن أسباب العصاب حصراً . تمدّنا هذه الأحلام بمعلومات هامة عن الوضع التحليلى ، وهى بالغة الأهمية لأغراض العلاج حين نفهم هذا الوضع فهمًا صحيحًا . لقد فهم الطبيب الأول وضع المريضة فأرسلها إلى الطبيب الثانى . وهنا استخلصت المريضة النتائج التى توصلت إليها من أحلامها وقررت أن تترك . وجاء تفسيرى لحلمها الثالث مخيبًا لها كثيراً ، لكنها تحلت بشجاعة متميزة وصممت على المضى قُدُمًا برغم كل الصعوبات ، بما أورده حلمها الثالث عن اجتيازها للحدود .

تكون الأحلام الأولية - على الأغلب - شفافة وصريحة حتى لتبعث على الدهشة . لكنها ما تلبث حتى تفقد وضوحها كلما قطع التحليل

خطوات إلى الأمام . فإن تبيّن لنا أنها أحلام استثنائية وظلت محافظة على جلائها ووضوحها ، أيقنّا أن التحليل لم يمسّ حتى الآن جانبًا هامًا من الشخصية . الأصل فى الأحلام أن تقل شفافيتها وتوغل فى الإبهام بعد بدء العلاج مباشرة حتى ليصبح تفسيرها من الأمور الصعبة . ولعل هناك سببًا آخر لهذه الصعوبة هو أن يصل الطبيب فيها إلى نقطة يصبح معها غير قادر على فهم الوضع فى مجمله ، فيما لو قيلت الحقيقة . هذا هو ما عليه الأمر فى حقيقته ، أما أن نقول إن الأحلام غير مفهومة ، فهذا القول ما هو إلا انعكاس لرأى الطبيب الذاتى . لا شىء يستعصى على الفهم ؛ وإنما تبدو الأشياء غير مفهوم ومختلطة عندما لا نفهمها . الأحلام واضحة بحد ذاتها ، بمعنى أنها هى ما يجب أن تكون عليه وفق الشروط المعطاة . ونحن لو عدنا نتدبر هذه الأحلام «غير المفهومة» فى مرحلة متأخرة من العلاج ، أو بعد انقضاء بضع سنوات ، لأصابنا ذهول مما كنا فيه من عمى . ومن الحقائق المقررة أننا كلما قطعنا شوطًا فى التحليل صادفتنا أحلام بالغة الغموض بالقياس إلى الأحلام الأولية . لكن على الطبيب ألا يسرف فى الاعتماد على اختلاط الأحلام المتأخرة أو غموضها ، أو يسرف فى اتهام المريض بالمقاومة متعمدًا ، بل حرىّ به أن يسلم بهذه الواقعة دليلاً على مبلغ عجزه عن تفهم الوضع . كذلك يميل طبيب الأمراض العقلية إلى وصم المريض بـ «الاختلاط» ، على حين أنه يُحسن صنعًا لو اعترف بأنه إنما «يُسقط» اختلاطه هو على المريض ويسلم

بذلك ، ذلك أن تفهمه هو الذى أضحى مختلطًا فى الحقيقة إزاء غرابة مسلك المريض . زد على ذلك أن من الأمور البالغة الأهمية فى العلاج أن يسلم المحلل بقلة فهمه من وقت إلى آخر ، لأنه ليس أثقل على المريض من أن يكون مفهومًا دائمًا . والمريض يعتمد كثيرًا على ما يتمتع به الطبيب من ثاقب النظر ، وهو إذ يحتكم إلى غروره المهنى إنما ينصب له فخًا محفوفًا بالخطر . والمريض إذ يلجأ إلى ثقة الطبيب بنفسه وإلى «عمق» تفهمه إنما يفقد كل إحساس له بالواقع ويتورّط فى تحويل معاند ويؤخر من أجل الشفاء .

الفهم سياق ذاتى وقد يكون من جانب واحط فقط ، بمعنى أن الطبيب يفهم فى وقت لا يفهم فيه المريض . وفى مثل هذه الحالة قد يشعر الطبيب أن من واجبه أن يقنع المريض ، وعندما لا يسمح هذا الأخير لنفسه بالاقتناع يتهمه الطبيب بالمقاومة . وعندما يقع عبء الفهم كله على عاتقى يكون من الحكمة أن أتنبّه إلى ما فى فهمى من نقص . أن يفهم الطبيبّ أو لا يفهم أمر قليل الأهمية نسبيًا ، إذ إن كل شىء يتوقف على فهم المريض . ما نحتاج إليه حقًا اتفاق متبادل يأتى ثمرة لتفكير مشترك . ويكون الفهم من جانب واحد ، وبالتالى محفوفًا بالمخاطر ، إذا حكم الطبيب على حلم من منطلق عقيدة معينة وأصدر مطالعته التى قد تكون صحيحة من الوجهة العلمية ؛ وقد تكون غير صحيحة أيضًا بمعنى أنها ربما تستبق نمو المريض الفعلى فتؤدى إلى تعطيله

إنما نتوجه إلى عقل المريض إذا أردنا أن نقسره على حقيقة معينة ؛ لكن لو نعاونه على النمو إلى مستوى هذه الحقيقة نكون قد وصلنا إلى قلبه ، وهذا التوجه أكثر عمقًا وجدوى .

عندما يقوم تفسير الطبيب حصراً على نظرية أحادية ، أو على رأى مُبيَّت ، تكون فرصته لإقناع المريض ، أو للوصول به إلى نتيجة شافية ، متوقفة على الإيحاء بصورة أساسية . ولا ينبغى لأحد أن ينخدع عن حقيقة الإيحاء وما يتركه من آثار . فالإيحاء بحد ذاته ليس بالشىء الذى يجب الزراية به ؛ وإنما هو تحديد خطير ، ويؤثر فى استقلال شخصية المريض تأثيراً غير مرغوب فيه أبداً . قد يكون مفروضًا فى المحلل الممارس أن يؤمن بما لتوسعة الوعى من قيمة وأهمية - وأعنى بتوسعة الوعى سياقًا يُخرج إلى النور أجزاء من الشخصية كانت خافيّة فى السابق ويقوم بتمييزها ونقدها نقدًا واعيًا . وهى مهمة تتطلب من المريض أن يواجه مشكلاته ، وتفرض عليه أن يستجمع قواه لكى يحاكم ويتخذ القرار الواعى . وهى مهمة ليست أقل من تحدّى حسه الأخلاقى ، ونداء إلى حمل السلاح واجبُ تلبيته يقع على الشخصية فى مجملها . ولذلك كان المنهج التحليلى ، بالنسبة إلى نموّ الشخصية ، يقع فى مستوى أعلى من مناهج المعالجة التى تعتمد على الإيحاء . فالإيحاء ضرب من السحر يعمل فى الظلام ولا يضع الشخصية فى مواجهة مطالبيها الأخلاقية . ومناهج المعالجة التى تعتمد على الإيحاء إن هى إلا بدائل مؤقتة وخادعة ، لا تتفق

مع مبادىء العلاج التحليلى وينبغى تجنبها . لكن الإيحاء لا يمكن تجنبه إلا إن كان الطبيب عالمًا بالأبواب الكثيرة التى يستطيع أن ينفذ منها . إذ يبقى ، فى أحسن الظروف ، إيحاءً خافياً (= لا شعوريًا) كافيًا ، بل أكثر من كافٍ .

يجب على المحلل الذى يريد استبعاد الإيحاء الواعى أن يعتبر كل تفسير لحلم لا ينال موافقة المريض تفسيراً غير صالح ، وعليه أن يواصل البحث حتى يعثر على صيغة تنال موافقته هذه قاعدة أعتقد أنه يجب مراعاتها دائمًا ، خصوصًا فى التعامل مع الأحلام التى يكون غموضها دليلاً على قلة تفهم ، من جانب الطبيب والمريض على السواء . يجب على الطبيب أن يعتبر كل حلم رحلة جديدة ، ومصدراً للمعلومات عن أحوال مجهولة ينبغى له أن يتعلم منها بمقدار ما ينبغى أن يتعلم منها المريض . وغنىّ عن البيان أنه يجب عليه ألا يتبنّى آراء مُبيتة مبنية على نظرية معينة ، بل يجب أن يكون على أهبة الاستعداد ، أمام كل حالة مفردة ، أن يُشيّد نظرية جديدة عن الأحلام كل الجدّة . إذ ما تزال هناك فرصة لا حدود لها من أجل عمل رائد فى هذا المجال .

النظرة التى تذهب إلى أن الحلم ما هو إلا تحقيق وهمى للرغبات المكبوتة ، هذه النظرة قد صُرف النظر عنها منذ أمد بعيد . صحيح أن ثمة أحلامًا تمثل رغبات ومخاوف مكبوتة ، لكن ما الشىء الذى لا يستطيع أن يمثله الحلم عند الاقتضاء ؟ قد تعبر الأحلام عن حقائق لا مهرب منها ،

وعن أحكلام فلسفيـة ، وأوهام وتخيلات وحشـية ، وذكريات وخطط ، وتكهنات واختبارات غير عقلية ، وحتى عن رؤى تواصلية (= تلباطيقية)، وعما سوى ذلك مما لا يعلمه إلا الله . شيء واحد يجب ألا ننساه أبدًا : نكاد نقضى نصف حياتنا فى حالة خـافيّة (= لا شعورية) تقريبًا . والحلم لغة الخافية تخصيصًا . يمكننا أن نسمى الواعية نهار النفس الإنسانية ، فى مقابل الجانب الليلى من الفعالية النفسية الخافيّة ، الذى هو بمثابة أضغاث أحلام . من الثابت أن الخافية لا تتكون من الرغبات والمخاوف وحسب ، وإنما من أكـثر من ذلك بكثـير ، ومن المحـتمل جـدًا أن تنطوى النفس الخـافيّة على ثروة من المحـتويـات والأشكال الحيّة تسـاوى - إن لم تكن تفـوق - ما تنطوى عليـه الواعـية ، التى تتـميـز بالتـركيـز والتحـديد والاستبعاد.

أما وإن الحالة على ما قد قدّمنا ، فقد بات من المحتم ألا ننتقص من معنى الحلم بحيث يأتى مفصلاً على مقاس عقيدة ضيقة . يجب أن نتذكر أن المرضى الذين يجيدون لغة الطبـيب الفنية أو النظرية ليسوا بالقليلين ، وأن هؤلاء إنما يفـعلون ذلك حتى فـى أحلامـهم . ما من لغـة لا يمكن التعـسف فى استـعمالهـا ؛ وإنه لمن الصعب أن ندرك مـقدار مـا ننخدع باعتساف الأفكار ؛ حتى ليبدو الأمر كـما لو أن للخافية طريقتها فى خنق الطبيب بأحـابيل نظريته . أمـا وإن الأمر كله كذلك ،فـإنى - وأنا أقوم بتحـليل الأحلام - أضرب صـفحًا عن النظريـة على قدر ما أسـتطيع .

بطبيعة الحال ، ليس في وسعنا أن نتخلى عن النظرية تمامًا ، لأننا نحتاج إليها لكي نفهم الأشياء . فمثلاً ، إنى إذ أتوقع أن يكون للأحلام معنى، فثمة أحلام لا يستطيع أن يفهمها الطبيب ولا المريض . ولكن يجب عليّ أن أعتبرها ذات معنى على أساس الافتراض لكى أجد فى نفسى الشجاعة على التعامل معها أصلاً . والقول بأن الأحلام تسهم إسهامًا بالغ الأهمية فى المعرفة الواعية ، وأن الحلم الذى لا يفعل ذلك لهو حلم لم نستطع تفسيره أصولاً - هذا القول أيضًا عبارة عن إبانة نظرية . لكن يجب على أن أتبنى هذه الفرضية لكى أوضح لنفسى لماذا أقوم بتحليل الأحلام . ومن ناحية ثانية ، كل فرضية حول طبيعة الحلم ووظيفته وبنيته إن هى إلا قاعدة عملية قائمة على الخبرة والتطبيق يجب أن تخضع إلى تعديلات متواصلة . يجب ألا ننسى ، ولو لحظة واحدة أننا إذ نحلل الأحلام فإنما نتحرك فوق أرض غير مأمونة حيث لا يقين فيها إلا الشك .

ولعل خير تحذير نوجهه إلى مفسر الأحلام - لولا أنه تحذير بالغ التضارب - هو «افعل كل ما يحلو لك ، لكن إياك أن تحاول الفهم !» .

عندما نتناول حلمًا غامضًا ، لا تكون مهمتنا الأولى فهمه وتفسيره ، بل تشييد السياق context بعناية فائقة . إن ما أريد قوله ليس دفقًا لا حدود له من «التداعى الحر» الذى يبدأ من كل صورة فى الحلم بل إنارة

واعية ودقيـقة لهذه السلسلة من التداعى التى تتصل اتصالاً مـباشراً بصورة معـينة . يجب أن يتعلم كـثيـر من المرضى القيـام بهذه المهـمة ، لأنهم يشبهون الطبيب فى رغبتهم الملحّة فى الفهم والتفسير الفورى . وهذه هى بالضبط حالتهم عندما يتـعلمون - أو بالأحرى «يتجهلون» - مما قرأوا أو مما سمـعوا عن تحليل سابق تم بصورة خـاطئة . فهم يعطوننا تداعـياتهم طبقًا لنظرية معينة ؟ أى إنهم يحاولون أن يفهموا وأن يفسروا ، وهم فى هذا لا يكادون يحصدون إلا الفشل . إنهم كالطبيب - يريدون أن ينفذوا رأسًا إلى ما وراء الحلم استنادًا إلى أساس غيـر صحيح يقول بأن الحلم ما هو إلا واجهة تخفى وراءها المعنى الحقـيقى ، ربما جاز لنا أن نسمى الحلم واجهة ، لكن يجب أن نتـذكر أن واجهات معظم البيـوت لا تحتال علينا ولا تخادعنا ؛ وإنما تتبع مخطط البناء وغالبًا ما تبين عن ترتيبه الداخلى. صورة الحلم «الظاهرة» هى الحلم نفسه مشـتملاً على المعنى «المستتر» . إذا وجدت سكراً فى البول ، فمعنى ذلك أنه سكر ، لا واجهة تخفى وراءها الزلال . عندما تكلم «فرويد» على «الحلم - الواجهة» ، لقد تكلم ، فى واقع الأمر ، لا عن الحلم نفسه وإنما عن غموضه . وهو عندما فعل ذلك قد «أسـقط» على الحلم عجزه عن الفـهم . وإنما نقول إن للحلم واجـهة زائفة لأننا نعجـز عن النفاذ إلى داخله . وحرىّ بنا أن نقـول إننا نتعامل مع شىء أشـبه بنص لا نسـتطيع فهـمه ، لا لأن له واجهـة بل لأننا لا نستطيع قـراءته . قبل أن ننفذ إلى مـا وراء هذا النص ، يجب أن نتعلم القراءة .

إننا نفلح فى قراءة الأحلام إذا نحن شيّدنا سياقها على نحو ما أسلفنا قبل قليل . ولن نفلح أبدًا ما دمنا نستعين بالتداعيات الحرة بأكثر مما نفلح لو استعنّا بهـذه الوسيلة على حل رموز كتـابة «حثيّة» . التداعـيات الحرة تساعدنى على كـشف الغطاء عن جميع عقدى الخـاصة بى ؛ لكننى لكى أصل إلى هذا الغرض لا أحتـاج إلى البدء انطلاقًا من الحلم ؛ بل يكفى من أجل ذلك أن أتناول جـملة فى صـحـيـفـة يوميـة أو عـلامـة «تمنع الدخول». لو استـخدمنا التداعى الحر فى تحليل حلم ، لتصاعـدت عقدنا إلى السطح تصـاعدًا كـافيًا ؛ لكننا عندئـذٍ لا نستطيع الكشف عن مـعنى الحلم . لكى نكشف عن مـعنى الحلم ، ينبـغى لنا أن نبقى عنـد أقرب شىء إليه ، إلى الصور نفسها . فلو حلم امـرؤ بطاولة خشبية ، وربطها بمنصة كـتابتـه غيـر المصنوعة من الخب ، لم نصنع إلا القليـل . فالحلم يشير إشارة صريحة إلى طاولة خشبية ، وإذا لم يحدث للحالم شىء عند هذه النقطة ، فإن تردده معناه أن ظلمة مـخصوصة تكتنف صورة الحلم ؛ وهذا أمر مـشكوك فيه . قد نتـوقع منه أن يربط عشرات الأشـياء بطاولة الخشب ، فإذا لم يستطيع أن يربطهـا ولا بشىء واحد ، كان معنى ذلك أن علينا - فى مثل هذه الأحوال - أن نرجع إلى الصـورة مرة بعد مرة . وعندئذٍ تجـدنى أقول للمـريض : «هب أننى لا أعـرف ماذا تعنيـه طاولة الخشب . صف لى هذا الشىء» . بهذه الطريقـة نفلح فى تثبيت جزء لا بأس به من سيـاق صورة الحلم الخاص بهـا . عندما نفعل ذلك بجـميع صور الحلم ، نكون مستعدين لمغامرة التفسير .

كل تفسير فهو فَرَض ، بما هو محـاولة لقراءة نص غير مألوف . أما الحلم الغامض - لو أخذناه بمفرده - فقلما نستطيع تفسيره فى شىء من اليقين ؛ ولذلك لا أعلق سوى أهمية ضئيلة على تفسير الأحلام المفردة . أما حين نأخذ سلسلة من الأحلام ، فنستطيع أن نولى تفسيراتنا حظًا أكبر من الثقة ، لأن الأحلام اللاحقة تصحح ما وقعنا فيه من أخطاء عند تناولنا للأحلام السابقة . كذلك نكون فى سلسلة الأحلام أقدر على معرفة كُنه المحتويات الهامة والموضوعات الأساسية ؛ ولذلك تجدنى أحضّ مرضاى على فتح سجل دقيق بأحلامهم وما أعطى بشأنها من تفسيرات . كذلك تجدنى أطلعهم علي كيفية تشييد أحلامهم حلمًا حلمًا على نحو ما أشرت إليه حتى يصير فى وسعهم موافاتى كتابةً بالحلم والمادة التى تشكل سياقه ، ثم أحملهم على استخلاص التفسيرات فى المراحل المتأخرة من التحليل . بهذه الطريقة يتعلم المريض كيف يرجع إلى الخافية (= اللاشعور) بدون معاونة من الطبيب .

لو كانت الأحلام مقصورة على إعلامنا بالعوامل السببية الكامنة من وراء العصاب لكنّا فى مأمن من ترك الطبيب يعالجها وحده . زيادة على ذلك ، ربما كانت طريقتى فى معالجة الأحلام عديمة الجدوى لو كان كل ما نأمله منها جملةً من اللمحات والفوائد التى تعين الطبيب على أداء مهمته . لكن ، بما أنه من المحتمل - كما بيّنت ذلك فى عدد من الأمثلة - أن تحتوى الأحلام على ما هو أكثر من المعونات التطبيقية اللازمة

للطبيب ، لَزِمَ أن يأخذ تحليل الأحلام محله من الاعتبار . والحق إنه قد يكون مسألة حياة أو موت .

من القضايا التى من هذا القبيل قضية تركت فى نفسى أثرًا عميقًا ، وكانت تتعلق بزميل لى فى زيورخ . كان يكبرنى سنًا ، وكنت أراه بين حين وآخر ، وكان كلما لقيته يغمز من اهتمامى بتفسير الأحلام . صادفته يومًا فى الشارع ونادانى قائلاً : «كيف تسير الأمور ؟ أما زلت تفسر الأحلام ؟ بالمناسبة ، رأيت حلمًا أبله آخر . هل له معنى أيضًا ؟ «كان حلمه كما يلى : رأيتنى أتسلق جبلاً عاليًا يطل على جُرُفٍ هارٍ تغطيه الثلوج . صعدت وصعدت وصعدت . . الطقس رائع . وكنت كلما صعدت أعلى شعرت أننى أحسن حالاً قلت فى نفسى : يا ليتنى مضيت صاعدًا هكذا إلى الأبد !» وعندما وصلت إلى القمة بلغت منى السعادة والبهجة مبلغًا جعلنى أشعر أن بوسعى الصعود إلى أجواز الفضاء . ثم اتضح لى أن فى وسعى فعل ذلك ، فمضيتُ أصعد . ثم استيقظت على نشوة حقيقية» .

قلت له بعد أن روى لى حلمه : «يا عزيزى ، أنا أعلم أنك لا تستطيع الإقلاع عن عادة صعود الجبال ؛ لكن اسمح لى أن أناشدك ألا تذهب وحدك من الآن فصاعدًا . وإذا ذهبت فخذ معك دليلين اثنين ، ويجب عليك أن تعطينى كلمة شرف أنك سوف تتبع إرشاداتهما .

«أجابنى ضاحكًا : لا جدوى من أحـلامك !» ثم ودعنى ومضى لشأنه. لم أره بعد ذلك أبدًا .

بعد شـهرين من هذا اللقاء جـاءته الضربة الأولى ، عندمـا كان فى الخارج وحده . غـمره انهيار ثلجى . وفى اللحظة المناسبة استطاعت أن تنتشـله دوريّة عسكرية قُدّر لهـا أن تكون قريبةً من مـكان الحادث . ولم تمضِ له ثلاثة أشـهر على هذا الحـادث حـتى كانت النهـاية . ذهب إلى التسلق يصحبه صديق له يصغره سنًا ، بدون مرشدين . وقد شاهده أحد هواة التسلق وكان واقفًا إلى مـا دونه ، شاهده يخطو فى الفراغ وهو يلقى بنفسه فوق حائط صخرى . لقد سقط على رأس صديقه الذى كان ينتظر فيمـا دونه ، فتمزق كلاهمـا إربًا واستقرا عند منخـفض السفح ، وكانت تلك «نشوة» بكل ما فى الكلمة من معنى .

لم يكن عندى قدر مـن الشك أو الاحتراس النقـدى يجعلنى أعتـبر الأحلام حوادث لا يؤبه لها . فهى غالبًا مـا تبدو غير ذات معنى ، لكن الشيء الواضح هو أننا نحـن الذين نفتـقـر إلى المعنى والحذق فى قـراءة الرسالـة المبهمـة الآتية إلينـا من الجانب الليلى من النفس . عنـدما نرى الإنسان يقـضى نصف حيـاته على الأقل فى هذا الجانب ، وعـندما نرى الواعية تستمد جذورها من هذا الجانب أيضًا ، ونرى الخافية (= اللاشعور) تعمل إبّان الوجـود اليقظ وخارجـه ، يكون لزامًا على علم النفس الطبى أن يشحذ مـفاهيمه ويدرس الأحلام درسًا منظـمًا . ما من أحد يشك فى

قيمة الخبرة الواعية ، فلماذا نشك إذن فى أهمية حوادث الخافية . هى أيضًا تعود إلى الحياة البشرية ، وهى أيضًا يتكوّن منها الشطر الأصدق من أى حادث من حوادث النهار فى كل ما له صلة بالسرّاء والضرّاء .

إن الأحلام تمدّنا بمعلومات عن أسرار الحياة الداخلية ، وتكشف لصاحب الحلم عن العوامل الخبيثة ، الملونة لشخصيته . ومادام لم يكشف النقابُ عن هذه العوامل ، تظل مصدراً للاضطراب فى حياته اليقظة . ولا تبين عن نفسها إلا فى شكل أعراض مَرَضية . وهذا معناه أننا غير قادرين على معالجة المريض علاجًا ناجعًا انطلاقًا من جانب الواعية وحدها ، بل لابد لنا من إحداث تغيير فى خافيته ومن خلالها . وإلى حدّ ما وصلت إليه معرفتنا الحالية ، ليس ثمة إلا طريق واحد لفعل هذا : يجب أن يكون هناك تمثّل شامل واعٍ لمحتويات الخافية . وأريد بـ «التمثّل» أن تتداخل محتويات الخافية والواعية فيما بينها ، لا - كما شاع كثيرًا - أن تُقوّم محتويات الخافية تقويمًا أحاديًا وتُفسّر وتُشوّه من جانب العقل الواعى . أما بخصوص القيمة والأهمية اللتين تنطويان عليهما محتويات الخافية عمومًا ، فالأفكار الفادحة الخطأ موجودة فى كل مكان . لقد بات أمرًا معروفًا جدًا أن مدرسة «فرويد» تعرض لنا الخافية على نحو يبخسها قيمتها ، تمامًا كما تنظر إلى إنسان بدائى وتعتبره أفضل قليلاً من الحيوانات المتوحشة . إن ما روته مدرسة «فرويد» من حكايات الأطفال عن شيخ القبيلة الرهيب ، وما بثّته من تعاليم عن الخافية «المجرمة -

المنحرفة - الطفولية» ، أفضى بالناس إلى جعل الخافية هُولة[1] خطرة ، بينما هي شيء طبيعي جداً ، وإلى حُسبان أن كل ما هو خير ومعقول وجدير بأن نحيا من أجله قد اتخذ له سكنًا في الواعية ! ألم تفتح أهوال الحرب الكبرى عيوننا ؟ أما زلنا عاجزين عن رؤية ما في واعية الإنسان من شيطانية وانحراف أشدّ وأدهى مما في خافيته ؟

اتُهمتُ مؤخراً أن تعليمي عن «تمثّل الخافية) ، لو قُبل به ، لدمر الثقافة وأعلى من شأن الحياة البدائية على حساب قيمنا العليا . لا أساس لهذه التهمة إلا الاعتقاد الخاطيء بأن الخافية هُولة مخيفة. ومثل هذا الرأي ناجم عن الخوف من الطبيعة ومن الحياة كما هي فعلاً . لكن ما هو موجود فعلاً لا نستطيع أن نتسامى به باصطناع حيل سيمياوية ، ونحن لو تسامينا بشيء لم يكن أبدًا ما يعتبره التفسير الخاطيء أنه كذلك .

ليست الخافية هُولة شيطانية ، بل شيء من الطبيعة حيادي تمامًا بمقدار ما قد يكون عليه الحس الأخلاقي والذوق الجمالي والحكم العقلي من حياد . وهي لا تكون خطراً إلا عندما يكون موقفنا الواعي منها خاطئًا إلى درجة ميئوس منها . ويتعاظم هذا الخطر بمقدار ما نمارس من كبت . لكن ما إن يبدأ المريض يتمثل المحتويات التي خفيت عنه فيما مضى حتى يتضاءل الخطر من جانب الخافية . وحين يمضي سياق التمثل

(١) اصطلحنا على ترجمة monster بـ «الهُولة» (بضم الهاء وتسكين الواو الممدودة) وهي ترجمة - فيما نعرف - لا نجدها في المعاجم التي في حوزتنا - المترجم - .

فى اتخاذ مجراه ، يقوم بوضع حدّ لانفصـام الشخصية وتبديد القلق الذى يلازم الفـصل ما بين الحـيّزين من النفس ويستـثيره إن ما يتخـوّف منه متقدىّ - وأعنى به غلبـة الخافية على الواعية - حقـيقٌ بأن يحدث عندما نستبعـد الخافية من الحياة بواسطة الكبت ، أو عندما نسىء فـهمها ونقلل من شأنها .

من الأخطاء الفادحة - والكثيرة الشيوع مع ذلك - حُسبانُ محتويات الخافية واضحة لا لَبس فيهـا ، وتتميز بعلامتى «زائد» أو «ناقص» ثابتتين لكن هذه النظرة - كمـا أراها مفرطة فى السذاجة . فـالنفس «نظام تعديل ذاتى Self - regulatig system يحافظ على توازنه كمـا يحافظ الجسم على توازنه تمامًا . كل سـيـاق يذهب إلى حده الأقـصى ، فـلابد له من اسـتدعـاء فـاعلية تعـويض حـالاً . بدون هذا التـعديل لا تتـم عمليـة «استقلاب» metabolism سويّة ، ولا تقـوم نفس سويّة . فكل تـفريط فى جـانب ، ينتج عنه إفراط فـى جانب آخـر . والعلاقـة بين الواعيـة والخافـية قائمـة على المعارضـة . ولذلك يكون من المفيـد دومًا أن نسأل عندمـا نشرع فى تفـسيـر حلم : ما الموقف الواعى الذى يعـوّض عنه هذا الحلم ؟

رغم ما قد يتخذه التعويض من شكـل تلبية وهمية لرغبة ، إلا أنه ، بصفـة عامة ، يطرح نفسـه بمثابة واقعـة فعلية على أظهر مـا يكون كلما حاولنا كبتها . نحن نعلم أننا لا نستطيع التغلب على العطش إذا كبتناه.

لذلك ينبغى لنا أن نحمل محتوى الحلم على محمل الجد ونعتبره شيئًا حدث لنا فعلاً ، كما ينبغى لنا أن نعامله على أساس أنه عامل يساهم فى نظرتنا الواعية . ونحن إن لم نفعل ذلك ، احتفظنا بموقف أحداى يستثير تعويضًا خافيًا (= لا شعوريًا) فى المقام الأول . لكن هذا الطريق لا ينطوى إلا على أمل ضئيل بأن نحكم على أنفسنا حكمًا صحيحًا أو نحقق توازنًا فى حياتنا .

لو شرع امرؤ فى الاستعاضة عن نظرته الواعية ، وراح يعمل بناء على توجيهات الخافية – وهذه الإمكانية يعتبرها منتقدى أمرًا مخيفًا ، لم يُفلح إلا فى كبت الأولى (= الواعية) التى تعود إلى الظهور تعويضًا خافيًا (= لا شعوريًا) . وفى هذه الحالة ، تكون الخافية قد غيرت ، وقلبت موقعها ، وغدت رصينة إلى حد الجبن وعلى تناقض صارخ مع لهجتها السابقة . عمومًا ، لا يعتقد أن الخافية تعمل على هذا النحو ، ومع ذلك يحدث مثل هذا القلب باستمرار ، ويكون منها وظيفتها الأساسية . ولذلك كان كل حلم مصدرًا للمعلومات ووسيلة تعديل ذاتى ، وهذا ما يفسر لنا لماذا كانت الأحلام أكثر أعواننا فعالية فى مهمة بناء الشخصية .

ليست الخافية بحد ذاتها مأوى للمواد المتفجرة ، لكنها قد تصبح كذلك بما نمارسه من مكبوتات اعتمادًا على نظرتنا الواعية المعتدة بنفسها ، أو المكتفية بذاتها ، أو الجبانة ، إذن ، فالعقل كل العقل أن نعير هذا الجانب انتباهنا ! لقد أصبح الآن من الأمور الواضحة لماذا جعلت من

قواعدى العملية أن أسال دائمًا قبل أن أحاول تفسير الحلم : ما الموقف الواعى الذى يعوّض عنه ؟ بذلك - كما يمكننا أن نرى - أربط الحلم بأوثق صلة ممكنة بالحالة الواعية حتى لأذهب إلى استحالة تفسير حلم على درجة من يقين إلا إذا عرفنا ما هو الموقف الواعى . لأننا ، فى ضوء هذا المعرفة فقط ، نستطيع أن نتبين إن كان محتوى الخافية يحمل علامة «زائد» أو «ناقص» . الحلم ليس حادثًا نفسيًا منعزلاً ومنفصلاً تامًا عن الحياة اليومية . وإذا بدا لنا أنه كذلك ، فلأنه وهم ناشىء عن قلة فهمنا. فى الواقع ، إن العلاقة بين الواعية والحلم ذات طبيعة سببية صارمة ، وهما يتفاعلان فيما بينهما على أكثر ما يكون التفاعل دقةً ولطفًا .

بودىّ هنا أن أستعين بمثال لكى أبيّن كم هو مهم أن نجد القيمة الحقيقية للمحتويات الخافيّة . جاءنى شاب بهذا الحلم :

«أبى يقود سيارته الجديدة بعيدًا عن المنزل . . يقودها برعونة . وكنت أتميّز غيظًا من غبائه البادى . كان يذهب فى هذا الاتجاه وذاك . إلى الأمام وإلى الخلف ، ويكرر إقحام السيارة في مكان ضيق . ثم ارتطم بجدار فأصاب السيارة بأضرار بالغة . صحت به وأنا فى منتهى الغضب أن يلتزم جانب الأدب . كان أبى يضحك ثم تبين لى أنه ميت من السكر» .

صاحب الحلم مقتنع أن أباه ما كان ليسلك هذا المسلك أبدًا حتى ولو كان سكران . لكن صاحب الحلم نفسه اعتاد قيادة السيارات . وهو سائق

ماهر ، ومـعتدل جداً فى تناول المشـروب ، خاصة عندمـا يكون عليه أن يقود سيارة . القيادة الهوجاء ، والأضرار التى تصيب السيارة مهما كانت خفيفة ، تغضبه أشد الغضب . علاقة الابن بأبيه جيدة . وهو معجب به لأنه رجل ناجح نجاحًا غير عادى . يمكننا القول ، بدون محاولة للتفسير ، إن الحلم يعرض صورة عن الأب ليسـت فى صالحه . إذن ما المعنى الذى ينبغى أن نستخـلصه من ناحية الابن ؟ هل علاقته بأبيـه جيدة فى الظاهر فقط ؟ هل هى حقًا تتكون من مـقاومات مفرطة فى التـعويض ؟ إن كان الأمر كذلك فعلينا أن نضيف علامة «زائد» إلى محتوى الحلم ، وأن نقول للشاب : «هذه هى عـلاقتك بأبيك . «ولكن بما أنى لم أسـتطع أن أجد التباسًا أو عـصابًا فى الوقائع المتعلقة بصلـة الابن وأبيه ، ليس من حقى أن أمسّ مشـاعر الفتى بهذا الحكم المؤذى ولو فـعلت ذلك ، لأضر ذلك بنتيجة المعالجة .

لكن إذا كانت علاقـته بأبيه ممتازة حقًا ، فلـماذا تعيّن على الحلم أن يختلق هذه القصة البعيدة الاحتمال للتقليل من شأن الأب ؟ لابد أن تكون مقاومـة الفتى لأبيه ناشئة عن غـيرة غذّاها قدر مـعين من شعور النقص ؟ لكن قبل أن نحيـد عن الطريق ونثقل ضمير الفـتى - ومع الشباب ذوى الحساسيـة ثمة دائمًا محذور من أن نفعل ذلك عن قلة اكـتراث - خير لنا أن نسقط من حسـابنا ، ولو مرة واحدة ، سؤالنا عن «سـبب» رؤيته هذا الحلم ، وأن نسـأل أنفسنا «لأى غـرض» رآه ؟ فيكون الجـواب ، فى هذه

الحالة ، هو أن خـافية الفـتى تحاول أن تقلل من شـأن الأب فى وضوح ظاهر . ولو فهمنا هذا على أنه تعويض لاضطررنا إلى استنتاج أن علاقته بأبيه ليست جـيدة وحسب ، وإنما فى غاية الجودة لكن الفـتى جدير حقًا بالوصف الفرنسى لِصقُ أبيه[١] . فأبوه لما يزل القائم على شئون الابن ، والابن لما يزل يعيش الحياة التى أسـميها بالحياة المؤقتـة . فهو يخشى من الفشل فى تحقيق نفـسه لأن فى كل جانب من جوانب حياته شيـئًا كثيرًا من «الأب» . إن هذا يفسر لنا لماذا اصطنعت خافيته نوعًا من التجديف : إنها تسعى إلى وضع الأب ورفع الابن . ولـعلنا نقع تحت إغراء القول : «قضية منافـية للأخلاق» . كل أب يفتقر إلى بعـد نظر ، فعليه أن يأخذ حذره من هذه الناحية[٢] . ومع ذلك لقد أصاب التعويض كلّ الغرض إذ أجبر الابن على مـساواة نفسه بأبيه ، وهى الوسيلة الوحـيدة التى يستطيع بها أن يصير عارفًا بنفسه .

واضح أن التفـسير الذى أوجـزناه توآ هو التفـسير الصـحيح ، لأنه حقق الغرض إذ لقى قبـول الفتى قبولاً عفويًا ، ولم يجرح شـعوره حيال أبيه ، ولا شعور أبيه حياله .

لكنِ هذا التفسير ما كان ممكنًا لولا أننا درسنا علاقة الأب والابن فى ضوء جميع الوقائع التى كانت فى متناول الواعية ؟ إذ لولا معرفتنا بالحالة الواعية ، لظل المعنى الحقيقى للحلم يكتنفه شك وغموض .

---

(١) العبارة مثبتة فى النص بالفرنسية : fils a papa - المترجم - .

(٢) فى ثقافتنا الشعبية هذه الوصية الذائعة : «إذا كبر ابنك فآخِه» . - المترجم - .

وفى تمثل محتويات الحلم يأتى فى الدرجة الأولى من الأهمية ألا ننتهك حرمة القيم الحقيقة التى تؤمن بها الشخصية الواعية . فلو تحطمت الشخصية الواعية ، أو حتى تشوهت ، لم يبق لدينا من يقوم بعملية التمثل . إننا نعترف بما للخافية من أهمية ، لا نريد أن نباشر تجربة ترفع الأدنى إلى القمة ، (وتنزل الأعلى إلى الحضيض)[1] ، لأن من شأن هذا أن يقلب الوضع الذى نريد تصحيحه . يجب أن نحرص أن تظل الشخصية الواعية بدون أن تمس ، لأننا لا نستطيع إجراء نقل التعويضات الخافيّة إلى الجهة الدائنة من الحساب إلا إذا تعاونت معنا الشخصية الواعية فى المشروع الذى نحن بصدده . وعندما يصل الأمر بنا إلى تمثل المحتوى لا تكون المسألة مسألة «هذا أو ذاك» ، بل مسألة «هذا وذاك» جميعًا .

وكما يتطلب تفسير الأحلام معرفة دقيقة بالحالة الراهنة للواعية ، كذلك تتطلب معالجة رمزية الحلم أن نأخذ فى الحسبان ما لصاحب الحلم من معتقدات فلسفية ودينية وأخلاقية وإنه لمن بالغ الحكمة عمليًا ألا نعتبر رموز الحلم علامات أو أعراضها ذات صفات ثابتة ، بل يجدر بنا أن نعتبرها رموزاً حقيقية ؛ أى تعبيرات عن شيء لم نعرفه بعد معرفة واعية، أو لم نصغهُ بعدُ صياغة عقلية . زد على ذلك أنه يجب النظر إليها بالنسبة لصاحب الحلم ، ويحسن بنا أن نتبعها فى تطبيقاتنا العملية،

---

(١) العبارة بين القوسين من وضعنا . - المترجم - .

لأنه - نظريًا - يوجد رموز ثابتة نسبيًا لا يرجع معناها بحال إلى شىء ذى محتوى معروف ، أو إلى شىء يمكننا أن نصوغه فى مفهوم . ولو لم يكن ثمة رموز ثابتة نسبيًا ، لاستحال علينا تعيين بنية الخافية ، وامتنع علينا أن نضع يدنا على شىء فيها أو أن نأتى على وصفه .

ربما يبدو أمرًا غريبًا أن أنسب مضمونًا أو محتوى غير محدد إلى رموز ثابتة نسبيًا . لكن المضمون غير المحدد هو ما يمنح الرمز سمته فى مقابل مجرد العلامة أو العرض . ومن المعروف أن مدرسة «فرويد» تستخدم «رموزًا» ثابتة وصلبة ، لكن هذه الرموز نفسها هى ما ينبغى أن أسميه «علامات» ؛ لأن المقصود منها أن تدل على الجنس ، وهذا يُفترض فيه أن يكون شيئًا محددًا . وحقيقة الأمر أن مفهوم الجنس عند «فرويد» مفهوم فى غاية المرونة ، وفضفاض حتى ليشمل كل شىء تقريبًا . الكلمة مألوفة بحد ذاتها ، وما تدل عليه يصل إلى مجهول غير محدد ومتقلب حتى ليعبر عن الغدد ونشاطها الفيزيولوجى من جانب ، وعن أعلى مراقى الروح من جانب آخر . لكن ، بدلاً من أن نتخذ موقفًا دغماطيقيًا يقوم على توهمنا أننا نعرف الشىء إذا كانت الدنيا كلمة مألوفة له ، أفضل أن أعتبر الرمز بمثابة إعلان عن شىء غير معروف ، يصعب التعرف إليه، غير ممكن تحديده تمامًا . خذ ، على سبيل المثال ، ما يسمّى برموز الذكورة phallus symbols ، والتى يُفترض أنها ترمز إلى الفحولة ولا شىء غير ذلك . سيكولوجيًا ، العضو بحد ذاته صورة رمزية

ذات مضمون أوسع ليس تحديده بالأمر اليسير ، كما بين ذلك «كرانيفلت» مؤخراً . وكما جرت عليه العادة لدى الأقوام القديمة ، مازال البدائيون حتى يومنا هذا يستخدمون رموز الذكورة بكل حرية بدون أن يخطر لهم ببال أبداً أن يخلطوا «الفالوس» ، بما هو رمز طقوسى ، بالقضيب . فهم يعتبرون «الفالوس» دائمًا على أنه الـ «مانا» المبدعة ، قوة الشفاء والإخصاب ، «ذلك الشيء ذو القدرة الخارقة» - على حد تعبير «لهمان». ويعادل «الفالوس» فى الأحلام والميثولوجية الثور والحمار والرمانة والتيس والصاعقة وحافر الفرس والرقص والمساكنة السحرية فى الحفرة ودم الحائض ؛ وهذا غيض من فيض . ما يكمن وراء هذه الصور، بما فى ذلك الجنس نفسه ، مضمون أو محتوى بدئى archetypal content يصعب دَركُه ؛ لكنه يجد خير تعبير سيكولوجى عن نفسه فى رمز الـ «مانا» البدائى . فى كل من هذه الصور التى تقدم ذكرها نستطيع أن نتبيّن رمزًا ثابتًا نسبيًا هو رمز الـ «مانا» ولكننا لا نستطيع مع ذلك أن نقطع بأنها لا تعنى شيئًا آخر عندما نجدها فى أحلامنا .

لكن الضرورة التطبيقية قد تتطلب منا تفسيراً مغايراً تمامًا . إذ من المسلّم به لو كان علينا أن نفسّر الأحلام تفسيراً شموليًا وفقًا لمبادىء العلم، لكان علينا أن نرد كلاً من هذه الرموز إلى نموذج بَدئى archetype لكن ، فى التطبيق العملى ، ربما كان هذا النوع من التفسير خطأ فادحًا نرتكبه بحق المريض الذى قد يحتاج إلى كل شىء إلا

الإصغـاء إلى نظرية فى الأحلام . لذلك يحسن بنا ، من أجل أغراض الشفاء ، أن نبحث فى معنى الرموز من حيث علاقتها بالحالة الواعية - بعبارة أخرى ، أن نعاملها كما لو كانت رموزاً غير ثابتة . وهذا تماماً يساوى القول بأنه يجب علينا أن نتخلّى عن جميع آرائنا السابقة ، مهما كنا معتدّين بمعرفتنا ، وأن نحاول اكتشاف معانى الأشياء بالنسبة إلى المريض . وهى ، فى الحقيقة ، قد تقصّر جداً من هذه الناحية . فالممارس الذى يُسرف فى استخدام الرموز الثابتة ، يقع فى محذور الروتين والدغماطيقا مما يجعله يخفق فى تلبية احتياجات المريض . ومن سوء الحظ ، كان ينبغى أن أدخل فى تفصيلات أكثر مما يسمح به هذا المجال لكى أوضح ما تقدم ، إلا أننى نشرت فى غير مكان بحثاً إضافياً يعزّز إباناتى تعزيزاً كبيراً .

سبق وبينا أنه كثيراً ما يحدث عند بدء المعالجة أن يكشف الحلم للطبيب المعالج عن الاتجاه العام الذى تسير فيه الخافية (اللاشعور) فقد يكون من غير المجدى ، لأسباب عملية ، أن نبين للمريض ما ينطوى عليه حلمه من معنى عميق ، وهو ما يزال فى المرحلة الأولى من المعالجة. إذ تفرض علينا متطلبات الشفاء أن نلتزم بهذه القاعدة أيضاً . وإذا اكتسب الطبيب مثل هذه النظرة البعيدة ، فإنما يكتسبها بفضل خبرته لموضوع الرموز الثابتة نسبياً . فقد يكون لهذه النظرة قيمة عظمى فى التشخيص وفى المطالعة على السواء .

دُعيت مرة للاستشارة فى حالة فتاة فى السابعة عشرة من عمرها . وكان أحد أصحاب الاختصاص ذهب إلى أنها ربما كانت فى المراحل الأولى من ضمور العضلات التدريجى ، بينما ذهب آخر إلى احتمال إصابتها بالهستيريا . وإنما دُعيت بسبب هذا التشخيص الأخير . الصورة السريرية جعلتنى أذهب إلى أنها مصابة بمرض عضوى ، لكن الفتاة أبدت أيضًا عن أعراض هستيرية . طلبت منها أن توافينى بأحلامها فأجابتنى على الفور :

«نعم ، أشاهد أحلامًا مفزعة . حلمت مؤخرًا أنى أتيت إلى البيت ليلاً . كان كل شىء ساكنًا كالموت ، وكان الباب المفضى إلى حجرة الجلوس مفتوحًا نصفه ، ورأيت أمى مدلاة من شمعدان وهى تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال ، وكانت الريح الباردة تهب من نافذة مفتوحة ، وفى وقت آخر ، كنت حلمت بضوضاء مخيفة وقعت ليلاً فى المنزل . ذهبت لأرى ماذا يحدث فوجدت حصانًا مذعوراً يفتح الحجرات فى هياج شديد . ثم اقتحم الباب المفضى إلى الردهة وقفز من نافذة الطابق الرابع إلى حيث ارتطم بأرض الشارع . انتابنى هلع شديد حين شاهدته ممددًا على الأرض وقد تشوه كله» .

كلا الحلمين يشير إلى الموت إشارة تكفى لأن تجعلنا نقف ونفكر . لكن كثيراً من الرمزين البارزين : «الأم» و «الحصان» . هذان الشكلان يجب أن يعادل أحدهما الآخر ، كلاهما يفعل نفس الشىء : ينتحر

«الأم» ترمــز إلى نمــوذج بدئى archetype ، يدل على مــوطـن النشـأة والطبـيـعـة المـادية والجـزء السـفلى من الجـسم (الرحـم) وعلى وظائف الإخصاب ، وتدل رمزية «الأم» أيضًا على الخافـية (اللاشعور) وعلى حياة الغـريزة والطبيـعة والمجـال الفيـزيولوجى والجسـد الذى نسكنه أو الذى يحـتوينا . و «الأم» هى الـوعاء أيضًا ، والشكل الأجـوف الذى يحـملنا ويمدّنا بالغـذاء ؛ وهى بهـذا ترمـز إلى الأساسـات التى تنهض عـليهـا الواعيـة. أن يكون المرء داخل شىء ، أو محـاطًا بشىء ، أمر يوحى له بالظلمة والليليـة ، بحالة الخوف والقلق . وإنى ، بهـذه الإشارات ، إنما أعرض «فكرة الأم» فى كثـير من تحولاتها الميـثولوجية والإيتمـولوجية (= جذورها اللغوية) ، كما أعرض جزءًا كبيرًا من مفهوم الـ «ين» فى الفلسفة الصينيـة . لقد اشتمل الحلم على هذه الأشـياء جميعًا ؛ وهـى أشياء لم تكتـسبهـا فتـاة السابعـة عشـرة فى وجودها الفـردى ؛ إنما هى إرث من الماضى. وهذا الإرث من الماضى لم يزل حـيًا فى اللغة من ناحـية ، وفى بنية النفس من ناحيـة ثانية ؛ ولذلك نجده فى جمـيع الأزمنة وعند جميع الشعوب .

إن كلمة «الأم» المألوفة لدينا تشيـر إلى الأم التى نعرف عنها أكثر مما نعرفه عن كل أم أخـرى ؛ إنها تشير إلى «أمى» . بينـما تدل رمزية الأم على معنى أكـثر غموضًا وأكـثر استعـصاءً على الصيـاغة الفكرية ، ولا يسعنا فهمه إلا على نحو غير محدد بما هو الحياة الخبيئة المقيدة فى الجسد.

ومع ذلك يظل هذا التعبيـر يضيق عن استيعاب المعنى ، ويستبـعد الكثير من المعانى الجانبية التى تتصل به . لأن ما ينطوى عليـه من حقيقة نفسية بلغت مبلغًا من التعقيد لا نستطيع معه أن نفهمها إلا أن يكون فى وسعنا تبينهـا عن بعد ؛ وحـتى ، فى هذه الحالة ، لا نتبـينها إلا فى غـموض شديد . وأمثال هذه الحقيقة هى مما يتطلب التعبير الرمزى .

ونحن لو رحنا نطبق ما تكشّف لنا من الحلم لكان معناه : أن الحياة الخافـية (اللا شعـورية) تدمر نفسـها . تلك هى رسالـة الحلم إلى العقل الواعى لدى صاحبة الحلم ، إلى كل من له أذنان يسمع بهما .

و «الحـــصـان» أيضًا نمـوذج بدئى archetype كثـير الشـيوع فى الميثولـوجيا والفنون الشعـبية (الفولكلور) . بما هو حـيوان ، يمثل النفس غيـر البشـرية ، والجانب الحيـوانى الأدنى من الإنسان ، وبالتـالى يمثل الخافـية . ولهذا يجـعله الفولكلور أحـيانًا يرى الرؤى ويسـمع الأصوات ويتكلم . وبمـا هو حـيـوان حَمل ، يمتّ بصلة وثـيـقـة إلى نموذج الأم mother archetype . فقبائل الـ «وال كيريز» يحملون البطل الميت على «وال هلاّ» ، وحـصان طـروادة المعـروف باحـتوائه للإغـريق . وبما هو حيـوان أدنى من الإنسان ، يمثل الجـزء الأسفل من الجـسد ، كـما يمثل الغرائز الحيوانيـة التى تستمد نشأتها منه . والحصان طاقـة حركة ووسيلة نقل ؛ ينقلنا بعيدًا كما تنقلنا شحنة غريزة ؛ يصاب بالذعر كما تصاب به جميع المخلـوقات الغريزية التى تفتـقر إلى واعية عاليـة ، كذلك له صلة

بالسحـر وتعاويذ السحرة ، ولا سيـما الحصان الحـالك السواد الذى ينذر بالموت .

واضح ، إذن ، أن «الحصان» هو المعـادل «للأم» مع فارق طفيف فى المعنى . فالأم ترمز إلى الحياة فى نشأتهـا ، والحصان إلى حياة الجسد . ولو رحنا نطبق هذا المعنى عـلى الحلم لقلنا : إن الحيـاة الحيـوانية تدمـر نفسها .

كلا الحلـمين يؤكد نفس الشىء تقـريبًا ، لكن ثانيهـما - كـما هى الحال فى العادة - أكثر تحـديدًا . ويظهر فى كلا الحلمين ، ما يتصف به الحلم عمومًا من لطافة خصوصيـة من خلال إغفال الإتيان على ذكر الموت صاحبة الحلم . فالمعروف أن الإنسان كثـيرًا ما يرى نفسه ميتًا فى المنام ، لكن هذا ليس فيه خطر ، لأن الحلم يتكلم لغة أخـرى عندما يتعلق الأمر بموت حقـيقى . إذن ، كلا الحلمين يدل على مرض عـضوى خطر ، بل قاتل . وقد جاءت الوقائع مصدقة لهذه المطالعة بعد قليل .

أما فيما يتعلق بالرموز الثابتة نسبيًا ، فهذا المثال يعطينا فكرة لا بأس بها عن طبيعتها العامة . وهناك عدد كـبير منها ، وقد تختلف فيما بينها اختـلافات لطيفـة فى معـانيها من فـرد إلى آخر . ولا يتـأتّى لنا تعيين معانيها علميًا إلا إذا درسناها دراسة مقارنة حـيثما وجدناها فى الميثولوجيا والفولكلور والدين واللغة . ويمكننا أن نتبيّن مراحل التطور التى مرت بها النفس البشرية على أوضح مـا تكون وهى فى الحلم مما هى فى اليقظة أو

الوعى . فالحلم يخاطب بالصورة ويُنطق الغرائز ، وهذه اللغة مستمدة من أدنى مستويات الطبيعة بدائيةً . لكن الواعية ما أيسر ما تنأى بنفسها عن قانون الطبيعة ؛ لكنها ما تلبث أن تعود لتنسجم معها فى تمثيلها لمحتويات الخافية . وإننا إذ نأخذ بهذا السياق فلكى ندل المريض على التعرف بقانون كينونته .

لم يسعنى فى هذه العجالة إلا تناول عناصر الموضوع دون سواها . إذ لم أستطع أن أشيد أمام أبصاركم البناء الذى يقيمه كل تحليل من مواد الخافية ويأتى على نهايته عند إعادة تشييد بناء الشخصية برمتها . فطريق التمثلات المتعاقبة يصل بنا إلى نتائج أبعد بكثير من النتائج الشفائية التى تعنى الطبيب على وجه الخصوص . إذ تصل بنا فى نهاية المطاف إلى ذلك الهدف البعيد (الذى ربما هو الحضّ الأول على الحياة) ، وأعنى به الإتيان بالكائن البشرى كله إلى الواقع ؛ أى تحقيقه الفردى . لكننا لا نكون فى وضع يسمح لنا بدراسة سياق التغيير السوىّ الذى يستغرق سنين أو عقود سنين إلا عندما يحدث الشفاء . فلو كنا نعلم بالمرامى التى تسعى إليها الخافية ويسعى إليها النمو النفسى ، ولو كانت رؤيتنا النفسية غير مستمدة حصراً من المرحلة المرضية ، لكانت فكرتنا عن السياقات التى كشفت عنها الأحلام أقل اختلاطًا ، ولكانت معرفتنا بما تمثله الرموز أجلى وأوضح . ولذلك أرى أن من واجب كل طبيب أن يعلم أن علم الشفاء النفسى عمومًا ، وتحليل الأحلام خصوصًا ، إجراء ينقسم إلى :

غائىّ ، ونموّ مستمر ، مرة هنا ومرة هناك ، فيفرد له مراحل خصوصية قد يبدو أنها تسير فى اتجاهات متضادة . ولما كان كل تحليل لا يظهر بذاته إلا جزءاً أو جانبًا واحدًا من المجرى العميق من النمو ، كان ما ينتج من المقارنات الاحتيالية لا يعدو أن يكون اختلاطًا ميئوسًا منه . لهذا السبب آثرت الاقتصار عن المبادىء الأولية الخاصة بالموضوع وعلى الاعتبارات التطبيقية . وليس كالاحتكاك الفعلى بالوقائع ، كما تحدث فعلاً ، ما يجعلنا نصل إلى اتفاق يبعث على الرضا .

الفصل الثانى

مشكلات العلاج النفسي الحديث

العلاج النفسى ، أو علاج العقل بالاعتماد على مناهج علم النفس ، يتواحد اليوم مع الفكر العـامّى مع التحليل النفسى Psychoanalysis . وقد بلغت هذه الكلمة من الشـيوع مبلغًا بدا معه وكأن كل من يسـتعملها يفهم مـعناها ، على حين قلّ من غير أرباب الاخـتصاص من يعـرف ما تشتمل عليه بالضبط .

ولكن هذه الكلمة لا تنطبق -بحسب ما قصد إليه صاحبها «فرويد»- انطباقًا مناسبًا إلا على منهجه الخاص القائم على تـفسير الأعراض النفسية بصيغة الكبت لدوافع معينة . ولما كانت هذه التقانيّة»[1] قد جاءت نتيجة

(١) «التِقانية» (بكسر التاء) مصدر صناعى من «التقانة» ، آثرتها تعريبًا لكلمة technology بدلاً من «تقنية» التي شاع استعمالها خطأ على غـير قياس يراعى خصائص العربية . والوجه فى «التقانة» انطباقها على وزن «فعالة» ، مصدر ما يدل على حرفة أو علم أو فن . تقول : سياسة وزراعة وطبابة وكتابة إلخ - المترجم - .

لفهم الحياة على نحو خاص ، جاءت فكرة التحليل النفسى مشتملة على فرضيات تتفق مع نظريات معينة ، ومنها نظرية «فرويد» فى الجنس و «فرويد» نفسه ، مؤسس مدرسة التحليل النفسى ، يؤكد هذا التحديد صراحةً . لكن غير المختص يطبق مفهوم «التحليل النفسى» رغمًا عن «فرويد» على كل نوع من المحاولات الحديثة الرامية إلى فحص العقل بالأساليب العلمية . وبحسب هذا المفهوم الخاطىء ، صارت تدمغ مدرسة «أدلر» بتبعيتها إلى مدرسة التحليل النفسى» ، بالرغم من التعارض البيّن القائم بين وجهة نظر «أدلر» ومنهجه من جهة ، وبين وجهة نظر «فرويد» ومنهجه من جهة ثانية . وبسبب من هذا التعارض ، لم يطلق «أدلر» على تعليمه اسم «التحليل النفسى» بل «علم النفس الفردى» individual psychology وآثرتُ أنا أن أطلق على مفهومى الخاص اسم «علم النفس التحليلى» analytical psychology . وإنما ابتغيت من هذا الاصطلاح أن يدل على مفهوم عام يشمل كلاً من «التحليل النفسى» و «علم النفس الفردى» وكل جهد آخر يبذل فى هذا الميدان .

وبما أن العقل ملك مشترك بين الناس جميعًا ، بدا لغير المختص امتناع وجود غير علم نفس واحد ؛ ولذلك نجده يحسب الاختلافات القائمة فيما بين المدارس مردّها إلى حذلقات كلامية شخصية ، أو إلى اعتماد تلك الطريقة الشائعة من التستر على جهود أصحاب الملكات المتواضعة ممن يسعون إلى اعتلاء سدّة العرش . وبوسعى أن أستفيض فى

تعداد «علوم النفس» فأتى على ذكر مدارس أخرى لا تنضوى تحت عنوان «علم النفس التحليلى» . فهناك كثير من المناهج والمنطلقات والآراء والعقائد كلها يخاصم بعضها بعضًا ، مما ترتب عليه أن أياً منها لم تستطع أن تعترف بقيمة الأخرى . إن تعدد جوانب الآراء المتعلقة بعلم النفس وتنوعها أقلُّ ما يوصف به أنه يبعث على الدهشة ؛ ومما يحيّر غير المختص ويلبّس عليه امتناع إجراء كشف عام بها .

عندما يقع فى يدنا كتاب فى علم الأمراض يصف علاجًا لمرض معين أشد الأدوية اختلافًا ، يحق لنا أن نقطع واثقين بأن أياً منها ليس بالدواء الناجح . كذلك عندما نجد مناهج مختلفة كل منها ينصحنا باتباعه زاعمًا أنه خير منهج لفهم النفس البشرية ، يحق لنا أن نطمئن أن أياً منها لن يؤدى بنا إلى الهدف ، ولا سيما النهج الذى ينتصر لنفسه بطريقة تتّسم بالتعصب ؛ فهذا أقلها باعثًا على الاطمئنان . لقد بلغ عدد «علوم النفس» من الكثرة حداً يجعلنا نعترف بما يحدث فينا من بلبلة وتشويش . وقد انغرس فى نفوسنا بمرور الأيام أن الوصول إلى العقل أمر بالغ الصعوبة ، وأن العقل نفسه مشكلة شائكة فلا غرو بعد هذا أن تتضاعف الجهود المبذولة ، مرّة من هنا وطوراً من هناك ، وأن تتنوع وتتضارب الآراء ، بما هى نتيجة لا مفر منها .

ولا شك أن القارىء يوافقنا ، ونحن نبحث فى التحليل النفسى ، على وجوب عدم الوقوف عند تعريف هذا العلم بمعناه الضيق ، بل يتوقع

منا أن نتناول بعامة ما أسفرت عنه من نتائج ناجحة وفاشلة مختلفُ المحاولات المعاصرة الرامية إلى حل مشكلة النفس ؛ وهذه المحاولات هى التى اصطلحنا على انضوائها جميعًا تحت مفهوم «علم النفس التحليلى» .

إنما لماذا اشتد الاهتمام فجأة بالنفس البشرية بما هى شىء ينبغى لنا اختباره ؟ فالقضية لم تكن أبدًا على ما هى عليه الآن على مدى آلاف السنين . إنما أردت فقط أن أطرح هذا السؤال الذى يبدو وكأنه لا علاقة له بموضوعنا وبدون أن أسعى للإجابة عنه ؛ مع أنه فى حقيقة الأمر ليس بدون علاقة به ، لأن هذا الاهتمام يختبىء وراء جميع الحركات العصرية من مثل الثيوسوفيا (= الحكمة الإلهية) والعلوم الخفية occuttism والتنجيم وغير ذلك .

كل ما تشتمل عليه اليوم فكرة غير المختص عن «التحليل النفسى» مستمد من الممارسة الطبية ، ومعظمها من علم النفس الطبى بالتالى . فهى تحمل بصمةً لا تخطىء من عيادة الطبيب ؛ وهذه حقيقة لا تتضح فيما اشتملت عليه من مصطلحات وحسب ، وإنما فى إطارها النظرى أيضًا . فكثيرًا ما تصادفنا مسلّمات أخذها الطبيب عن العلوم الطبيعية ، ولا سيما علم الحياة (= البيولوجيا) . وقد أسهم هذا الاقتباس فى العداء بين علم النفس الحديث والميادين الأكاديمية الأخرى كالفلسفة والتاريخ والدراسات الكلاسيكية . فعلم النفس علم تجريبى قريب من الطبيعة ، بينما تقوم هذه الدراسات على إعمال العقل والنظر . والفجوة بين الطبيعة

والعقل ، التى «يصعب ردمها فى أحسن الأحـوال ، تتسع كلما استخدمنا المصطلحات الطبية والبيولوجية التى ربما تكون ذات فائدة تطبيقية أحيانًا ، لكنها تكون عبئًا على نيّاتنا الحسنة فى أكثر الأحيان .

بالنظر إلى بـلبلة المفـاهيم الموجـودة حـاليًا ، رأيت من الضـرورى الإشـارة إلى الملاحظات التى تقـدم ذكـرها . وبودى الآن أن أعـود إلى المهمـة العاجلة فأنظر فى الإنجـازات الفعليـة التى تحققت فى مـيدان علم النفس التـحليلى . لما كانت المحاولات المخـتلفة التى يشـتمل عليـها هذا الاصطلاح بالغة الاختلاف والتنوع ، كان من الصعوبة بمكان الأخذ بمنطق كلىّ الشـمول . وأنا إن حـاولت أم أميّز أصنافًا مـعينة ، أو بالأحـرى مراحل معـينة ، بالنسبة للأهداف التى ترمى إليهـا هذه المحاولات ، فإنما أفعل ذلك فى شىء من التحفظ ، وأعتبره تدبيرًا مؤقتًا ليس غير ، مسلّمًا بأنه ربما كان إجراء تحكميًا أشبه شىء بمخطط لبلد يرسمه موظف مساحة. مهمـا يكن من أمر فقد أقمت على تـرتيب مجمل الاكتشـافات فى أربعة عناوين رئيـسية هى : الاعـتراف confession والتفـسير explanation والتعليم education والتغيير transformation . وسـأمـضى الآن فى بحث معانى هذه الاصطلاحات غير المعتادة بعض الشىء .

يجب أن نبحث عن البدايـات الأولى لكل معالجة تحليلية فى مـثالها الأصلى ، وأعنى به «الاعتراف». غـير أن فقدان الرابطة السببـية المباشرة بين الممارسة الدينية وممارسة التحليل النفسى ، على الرغم من تفرعها عن

جذر نفسى مشترك ، يـجعل من الصعب على القادم الغريب أن يرى من فوره العـلاقة بين أسـاس التحليل النفـسى والمؤسسـة الدينية المتمـثلة فى «الاعتراف» . مـا إن يصبح الإنسان قادرًا على فهم فـكرة الإثم حتى يلجأ إلى التسـتّر النفسى ، أو إلى الكبت repression ، على حـد المصطلح التحليلى . كل مـا نتستّر عليـه فهو سرّ . وربما كـان هذا السمّ بلسمًا لا يقدر بثـمن لو أخذناه على جُرَع صغيـرة ، لا بل أوليّة جوهرية فى تمايز الفرد[1]. حتى فى المستوى الابتدائى ، كثـيرًا ما يشعر المرء أنه بحاجة لا تقاوم إلى اختراع الأسرار ؛ لأن امتلاكه لها ينقذه من الانحلال فى خافية حياة الجماعة ، وينقـذه – بالتالى – من أذى نفسىّ قاتل . ومن المعروف أن كثيرًا من الأديان الباطنية ، وما تشتمل عليه من طقوس سرّية ، تعمل على تغذية فطرة التـمايز . حتى أسرار المسـيحية كانت فى أيام الـكنيسة الأولى بمثابة أسرار باطنية ، وكان يُحتفل بها – مثلما كان عليه الحال فى سر المعمودية – فى ملاجىء خصوصـية لا يُشار إليها إلا من وراء حجاب الرمز .

مهما كانت فائدة السر الذى يقتـسمه عدد من الأشخاص ، فإن للسر الذى نحتـفظ به على وجه الخصوصـية البحتـة أثرًا تدميريًا ؛ فهـو أشبه

(١) ليس المقصـود بتمـايز الفرد هنا على حـساب الجمـاعة ، كمـا ترمى إلى ذلك بعض المذاهب الفلسفية أو الاقتـصادية ، وإنما مجرد انتقال الإنسان من حالة «الرقـمية» غير المتمايزة – إن جاز لنا التعبير – إلى حالة يتـحقق فيها بإنسانيته . وما الاسم يُعطاهُ كل إنسان إلا من قبيل تمييزه فردًا من غيره من أفراد الجماعة – المترجم – .

بعبء الإثم يفصل صاحبه السيء الحظ عن مشاركة غيره من أبناء قومه .
ومع ذلك ، فإن كنا نعرف ما نخفي ، يكون الضرر أقل مما لو كنا لا نعرف ما نخفي أو نكبت ، أو مما لو كنا لا نعرف إن كان لدينا مكبوتات أصلاً . في هذه الحالة لا نكون قد أخفينا محتوى ما إخفاءً واعيًا ، بل نكون أخفيناه حتى عن أنفسنا . وعندئذٍ ينشطر هذا المحتوى عن الواعية ويشكل عقدة مستقلة ، تعيش حياة منعزلة في الخافية ، حيث لا يكون بمقدور العقل تصحيحها أو التدخل فيها . بهذا تكون العقدة عبارة عن شطر مستقل من النفس ينمّي - كما دلت الخبرة - حياة وهمية خاصة به. وما نسمّيه وهمًا أو تخيلاً ما هو إلا فاعلية نفسية عفوية ، تتصاعد إلى الأعلى كلما ضعفت قدرة العقل عن الكبت أو توقفت قدرته توقفًا تامًا ، كما هو الحال في النوم إذ تتكشف هذه الفاعلية في صورة الأحلام ؛ ثم نظل نحلم في اليقظة فيما دون وصيد الواعية ، خاصّة عندما تكون هذه الفاعلية محكومة بعقدة مكبوتة أو خافيّة . ولابد هنا من ملاحظة عابرة وهي أن المحتويات الخافيّة ليست قاصرة على المحتويات التي كنا على وعي بها فيما مضى ثم أصبحت عُقَدًا خافيّة بعد كبتنا لها . على العكس من ذلك تمامًا ، إن للخافية محتوياتها الخاصة بها التي تتصاعد بطيئة في الأعماق ثم ما تلبث حتى تتدخل في الواعية . ولذلك يجب ألاّ نصوّر النفس الخافيّة أبدًا مجرد وعاء لا ينطوي إلا على محتويات نبذها العقل الواعي .

إنما يؤثر فى فاعليتنا الواعية جميع المحتويات النفسية التى تقترب من وصيد الواعية طالعةً إليها من الأسفل ، أو التى غاصت قليلاً فيما دونها. ولما كانت المحتويات ذاتها غير واعـية ، كان لابد وأن تكون تأثيراتها غير مباشرة . ولعل أكثر زلات اللســان والقلم والذاكرة وما أشبه ذلك تُعزى إلى هذه الاضطرابات ، شأنها فى هذا كشأن جـميع الأعراض العصابية . وتكاد تكون هذه الأعـراض من منـشأ نـفسى دائـمًا ، اللهم إلا أن تأتى نتيجة لصدمة أحدثهـا انفجار قنبلة أو أسباب أخرى . ولعل أخف صور العصــاب هى «الزلات» التى أشرنــا إليها توًا كــزلات اللسان والنســيان المفاجىء للأسماء والتواريخ والبلادة المبـاغتة المفضية إلى الأذى والحوادث وإساءة فهم الدوافع الـشخصية أو إســاءة فهم ما سمعــناه أو قرأناه، وما يُسمى بهلوسات الذاكرة التى تحـملنا على الظن خطأً أننا قلنا أو فعلنا هذا أو ذاك . فى جمـيع هذه الحالات يُظهـرنا التحرّى علـى وجود محـتوى يحبط أداءنا الواعى إحباطًا خافيًا غير مباشر .

لذلك نستطيع القول بعــامة إن السر الذى نخفيه غـير دارين به أشدّ ضرراً من السر الذى نخفيه ونحن دارون به .. قـد شاهدت مرضى كثيرين وقعوا فى مآزق حرجة فى حياتهم لو وقع فيها ضعاف الطباع لأفضت بهم إلى الانتحار ، لكن ما بهم من رجحـان عقل حال دون الحضّ الانتحارى أن يطفو إلى سطح الواعية . لكنه مع ذلك ظلّ يعـمل فى الخافية (= فى الخفاء) ويأتى بجميع أنواع الحوادث الخطرة ؛ من ذلك مثلاً نوبة إغماء أو

تردد أمام دراجة نارية ، أو تجرع سمّ زعاف (= سليماني) ظنًا بأنه دواء سعال ، أو حماس مفاجىء للقيام بأعمال بهلوانية خطرة ، وهكذا دواليك. عندما نستطيع أن نجعل الميل إلى الانتحار شأنًا من شئون الوعى، يصبح بمقدور العقل السليم أن يتدخل ، وعندئذٍ يستطيع المريض أن يعرف الأوضاع التى تغريه بتدمير نفسه فيجتنبها .

رأينا أن لكل سر شخصى تأثير الإثم أو الذنب ، يستوى فى هذا أن يكون السر خاطئًا أو غير خاطىء ، من وجهة نظر الأخلاق العامة . ثم إن هناك نوعًا آخر من التستّر يتجلّى فى «الإمساك» أو «الامتناع» أو «ضبط النفس» ، من حيث إنه انفعالات أو عواطف نحسبها فى العادة . وكما هو الحال بالنسبة للأسرار ، كذلك هنا يجب أن نضع تحفظًا : ضبط النفس أمر صحّى ومفيد ، بل فضيلة . وهذا هو ما جعل تهذيب النفس وتقويم اعوجاجها من أقدم ما عرف الإنسان من فضائل . حتى عند الأقوام البدائية نجد لهذه الفضائل مكانًا فى احتفالات «الشدّ والتلقين[(١)] initiation ، خصوصًا فى صور الزهد والعفّة والصبر الرواقى على الألم والخوف . لكننا هنا نمارس ضبط النفس داخل الجمعية السرية بما هو شىء نؤديه فى صحبة الآخرين . أما لو كان ضبط النفس شيئًا خصوصيًا ليس غير ، أو كان خاليًا من كل جانب دينى ، لأضرّ بنا بمثل الضرر الذى

---

(١) نحن مدينون بترجمة هذا الاصطلاح على هذا النحو للدكتور عبد الرحمن بدوى - المترجم - .

يورثه لنا الاحتفاظ بسرّ شخصي . وإنما تأتى أطوارنا القبيحة ونوبات الغضب والهياج تنتاب المسرفين فى التمسك بالفضيلة ، إنما تأتى من هذا النوع من ضبط النفس وكبت الانفعال . لأن انفعالاً نمسكه هو أيضًا شيء نخفيه ، شيء نستطيع أن نخفيه حتى عن أنفسنا ؛ وهو فنّ يتفوق فيه الرجال بخاصة ، على حين أن النساء - مع استثناءات قليلة جدًا - ينفرن بطبعهن من ممارسة هذا اللون من العنف بحق عواطفهن . إننا إذ نمسك انفعالاتنا ، فإنما تميل بنا إلى العزلة وتورثنا القلق ، تمامًا كما يفعل سرّ ليس فى واعيتنا ، وهى - مثله - مثقلة بعبء الذنب .

وكما تضمر لنا الطبيعة شرًا لو احتفظنا بسر نحجبه عن سائر الناس، كذلك هى تضمر لنا المقت لو أمسكنا عواطفنا تجاه أقراننا . فالطبيعة تمقت الفراغ من هذه الناحية مقتًا شديدًا ؛ لأنه - فى السياق الطويل - لا شيء أثقل عبئًا علينا من فتور العلاقات الشخصية الذى يورثه ضبط العواطف . فالعواطف المكبوتة - على الأغلب - نوع مما نريد أن نبقيه طىّ الكتمان ؛ لكن السر الذى يستحق هذا الاسم لا وجود له فى الأعم الأغلب ؛ فما ثمّ إلا عواطف نستطيع أن نجاهر بها ، لكنها أصبحت خافيةً لمجرد حبسنا لها فى مناسبةٍ هامة .

من المحتمل أن نجد عصابًا تحكمه سيادة الأسرار ، وشكلاً آخر تحكمه سيادة ضبط الانفعالات . فصاحب الهستيريا ، الذى يطلق

لعواطفه العنان ، هو - فى الأغلب - صاحب سر . بينما مريض الـ «سيكستينيا»[1] يعانى من عجز فى هضم انفعالاته .

الاحتفاظ بالأسرار ، والتحكم بالانفعالات ، مخالفات نفسية من أجلها تقوم الطبيعة بزيارتنا ومعها المرض ؛ أى عندما نرتكب هذه المخالفات فى السرّ . أما عندما نفعلها ، بالاشتراك مع الآخرين ، فإنما نلبّى بذلك حاجة طبيعية حتى لتُعدّ من الفضائل المفيدة . إن التحكم بالانفعالات لا يكون ضاراً إلا عندما نمارسه وحدنا ومن أجل أنفسنا . يبدو الأمر وكأن للإنسان حقًا لا يُنازع أن يرى فى أقرانه كل مظلم وناقص وغبى ومذنب - وهذه الأشياء التى نحتفظ بسرّيتها بغية أن نحمى أنفسنا . ويبدو أن الطبيعة تعتبرنا آثمين إذا نحن أخفينا عيوبنا ، تمامًا كما لو عشنا على جانبنا المعيب وحده . ويبدو أن فى الإنسان ضميراً ينزل أشد العقاب بمن لا ينقطع عن حماية نفسه وتوكيدها بطريقة ما وفى وقت ما ومهما غلا الثمن الذى يتكلفه من كبريائه ، بدلاً من أن يقر بعجزه ويعترف بإنسانيته[2] . وإلى أن يستطيع ذلك ، ينهض بينه وبين ممارسته للخبرة الحية التى تشعره بإنسانيته سور صفيق لا سبيل إلى اختراقه . هنا نجد مفتاح المغزى العظيم الذى ينطوى عليه «الاعتراف»

(١) لم نعثر ، فيما لدينا من معاجم - وفيها معجم للمصطلحات الفنية - ، على تفسير لهذا المرض - المترجم - .

(٢) يذكرنا هذا بمخاطبة الشاعر عمر أبو ريشة لفيلسوف المعرة :

لست تسطيع أن تكون إلهًا   فإن استطعت فلتكن إنسانًا

- المترجم -

الحقيقى ، غير المتجمد فى قوالب ؛ وهو معنى عرفته جميع النحل المريدية initiatic وديانات الأسرار فى العالم القديم ، كما يظهر ذلك فى قول يُنسب إلى الأسرار الإغريقية : «هب كل ما عندك حتى تنال» .

يمكننا اتخاذ هذا القرار دليلاً نسترشد به ونحن فى المرحلة الأولى من المعالجة النفسية . ومن الحقائق المقررة أن تقتصر بدايات التحليل النفسى ، بصفة أساسية ، على التنقيب العلمى عن حقيقة قديمة ؛ حتى اسم التطهير catharsis الذى أُسمى به أول منهج فى العلاج النفسى إنما جاء من طقوس الإغريق المعتمدة فى الشدّ والتلقين . لقد قام منهج التطهير الأول على أساس يجعل المريض يعقد صلة مع مؤخرة عقله ، بواسطة التنويم أو بدونه ؛ أى وضع المريض فى الحال التى تدعوها أنظمة «اليوغا» الشرقية بحال التأمل أو التفكر . وفى مقابل التأمل الذى نجده فى رياضة اليوغا ، يرمى التحليل النفسى إلى ملاحظة الصور الظليلة - سواء أكانت فى هيئة صور أم مشاعر - التى تتكشف عنها النفس الخافية وتظهر على الإنسان الذى ينظر فى الداخل بدون طلب منه . بهذه الطريقة نعود فنعثر على الأشياء التى كنا كبتناها أو نسيناها . وهذه الطريقة ، رغم ما لعلّه أن يكون فيها من إيلام ، تُعتبر كسبًا بحد ذاتها ، لأن ما هو ناقص، أو حتى لا قيمة له ، ينتسب إلىّ بما هو ظلّ لى ، ويهبنى قوامًا وكتلة . كيف يكون لى قوام ولا ظلّ لى ؟ لابد لى من جانب مظلم أيضًا إن كنت أبتغى لنفس كمالاً ؛ وكلما وعيت ظلّى تذكرت أيضًا أننى

كائن بشرى مثلى مثل غيرى من الناس . على كل حال ، عندما أحتفظ به لنفسى ، يعيدنى التنقيب عنه ، وهو ما يجعلنى كلاً متكاملاً ، إلى نفس الحالة التى كانت قبل وقوع العصاب أو انشطار العقدة . فإن احتفظت بالموضوع سراً ، لم أصل إلا إلى شفاء جزئى ، لأنى عندئذ أظل فى مسألة عزل . وليس كالاعتراف ما يعيننى على إلقاء نفسى فى أحضان الإنسانية التى تحررت أخيراً من عبء المنفى الأخلاقى . والهدف الذى يرمى إليه العلاج بواسطة التطهير هو الاعتراف الكامل ، لا مجرد إقرار العقل بالوقائع بل تثبيت بواسطة القلب ، وإطلاق فعلى للمكبوت من الانفعالات .

ولعلنا نتصور أن لمثل هذه الاعترافات أثراً عظيماً فى نفوس بسطاء الناس ، وإن الشفاء الذى ينتج عنها غالبًا ما يبعث على الدهشة . ومع ذلك لا أريد الإشارة إلى أن شفاء بعض المرضى كان تحقيقاً رئيسيًا للعلاج النفسى عند هذا المستوى ؛ ما أريد لفت الانتباه إليه هو التوكيد المنهجى الذى يرتديه مغزى الاعتراف . فهو الذى يعيدنا إلى الألفة جميعًا؛ لأننا جميعًا نظل متفرقين على نحو أو آخر بسبب من أسرارنا ؛ وبدلاً من السعى إلى إقامة الجسور فيما بيننا بواسطة الاعتراف ، نتخيّر الطريق الجانبى الأسهل وما يتضمن من آراء وأوهام خادعة . إنى ، إذ أقول هذا لا أريد أن أنطق بحكمة عامة . لأن من الصعب أن نسرف فى اتهام ما فى الاعتراف المشترك المتبادل بالآثام من قلة ذوق . الحقيقة التى

أقرها علم النفس هى هذه : نحن إنما نتعامل مع قضية بالغة الحساسية ؛ فلا نستطيع أن نتناولها مباشرة أو بذاتها لأنها تطرح أمامنا مشكلة ذات «قرون مدبّبة» لم نعتَد عليها . ولسوف يجلّى هذه المسألة النظر فى المرحلة الثانية ، وأعنى بها مرحلة التفسير explanation .

واضح تمامًا أن التطهير لو كان دواء يشفى من كل الأمراض ، لظل علم النفس الجديد واقفًا عند مرحلة الاعتراف ولم يتجاوزها . فأولاً وقبل كل شىء ، ليس بالمستطاع دومًا أن تُدنى مرضى معيّنين من الخافية قربًا يتيح لهم الوصول إلى الظلال . والحق إن مرضى كثيرين - معظمهم معقد وعلى مبلغ من الوعى - يتشبثون بالواعية تشبثًا شديدًا حتى لا يستطيع شىء أن ينزع أيديهم عنها . وغالبًا ما يُبدون أعنف المقاومة كلما بدت محاولة لطرح الواعية جانبًا ؛ يريدون أن يتحدثوا إلى الطبيب عن أشياء يعونها وعيًا شديدًا ؛ يريدون أن يجعلوا مصاعبهم مفهومة وأن يبحثوا فيها ، ويقولون إن عندهم الكثير لكى يعترفوا به ، ولذلك يجب ألا يُلتفت إلى الخافية من أجل ذلك . لمثل هؤلاء تمسّ الحاجة إلى «تقانية» كاملة لكى ندنيهم قربًا من الخافية .

هذه إحدى الحقائق التى تقيد حريتنا منذ البداية فى اعتماد منهج التطهير ، والقيد الثانى الذى سنكشف عنه بعد قليل تفضى بنا مناقشته فى التوّ واللحظة إلى مشكلات المرحلة الثانية ، وهى مرحلة التفسير . لنفرض أن الاعتراف المطلوب بواسطة منهج التطهير قد حصل فى حالة

معـينة ، وبأن العصـاب قد اخـتفى ، أو أن الأعراض قـد تلاشت على الأقل. فى مثل هذه الحالة ربما نعتبر المريض قد شُفى إن كان الأمر متوقفًا على الطبيب وحده . لكن المريض - أو المريضـة بخاصة - لا يخلص ، لأنه يظل «متـعلقًا» بالطبيب بفـعل الاعتراف . فإذا انـقطع هذا التعلق ، الذى لا معنى له بحسب الظاهر ، انقطاعًا قـسرياً ، فإن نكسة خطرة لابدّ واقعة .

ومن الأمور الغـريبة والهامـة معًا أن توجد حـالات لا يحصل فيـها تعلّق ، إذ ينصـرف المريض وقـد شُفى ظاهريًا ، لكنـه يُضحى مـغـرمًا بمؤخرة عـقله غرامًا يجعله يمضى فى عـملية التطهيـر بنفسه على حـساب تكيّفه مع الحياة . لقـد أضحى متعلقًا بخافيتـه - بنفسه - لا بالطبيب - واضح أنه قـد أسـهم بقسطـه من خبـرة «ثيسيوس» ورفيـقه «بيريثوس» نزولهمـا إلى الجحيم من أجل إعادة إلهـة العالم السفلى . ولمّا أعيـاهما التعب جلسا فى بعض الطريق يلتمسان حـظًا من راحة فما راعهما إلا أن ألفيا نفسيهما فى الدرك الأسفل ولم يستطيعا نهوضًا .

هذه الحوادث الغـريبة والمفاجـئة يجب أن نشـرحها للمـريض . أما الحالات التى أتينا على ذكرها أولاً . وهـى حالات المرضى الذين يمتنعون على التطهيـر ولا يستجيبـون له ، فيجب أن نعالجـها بطريقة التفـسير . ورغم أن الفريقين من المرضى مختلفان ظاهريًا ، لكنهما يلتقيان عند نفس النقطة التى تتطلب البـدء بالتفسير ؛ وأعنى بها النقطة الـتى تنشأ عندها

مشكلة التثبيت fixation ، على ما بيّنها «فرويد» . ويكون التثبيت فى أوضح حـالاته عند المرضى الذين عـولجـوا بواسطة التطهـيـر ، ويكون واضحًا جدًا خصوصًا عند من يظلون متعلقين بالطبيب . وقد لوحظ شىء مماثل أثمـر نتيجـة غيـر سارة عن المعـالجة بواسطة التنويم المغناطـيسى ، وكانت الآلية الداخلية لهذه الرابطة غير مفهومة فى حينها . أم الآن فيبدو أن هذه الرابطة تنطبق أساسًا على العلاقة بين الأب والابن . يقع المريض فى تواكل صـبيانى لا يسـتطيع له دفعًا حـتى ولو استـخدم عقـله وأنفذ بصيرته . ويبلغ التثبيت أحيـانًا مبلغًا من الشدة يبعث على الدهشة حتى ليرتاب المرء فى أن تكون تغذيته آتيـة من قبل قوى خارجة عن المألوف . لكن بما أن سياق التحويل transfernce سياق خـافىّ (= لا شعورى) ، يجد المرء نفســه عاجزًا عن إعطاء معلومات عنه . واضـح هنا أننا نتعامل مع عرض مرضى جديد ، مع تشكل عصابىّ مستمدّ من المعالجة . ولذلك ينهض أمامنا السـؤال التالى : كيف نتغلب على هذه الصـعوبة الجديدة ؟ العلاقة الخارجيـة التى لا تخطىء على هذا الوضع هى صورة الذكرى عن الأب وما تحمله من شعور بيّن تتـحول إلى الطبيب . وبما أن هذا الأخير يتخـذ دور الأب طوعًا أو كرهًا ، ما يلبث المريض حتى ينزلق فـى علاقة صبيانية . طبـعًا هو لا يصير صبيانيًا بسبب هذه العلاقـة ؛ لقد كان فيه دائمًا شـىء من الصبيانية ، لكنها صبيانية مكتومة ؛ أما الآن فقد صعدت إلى السطح . وبما أن الأب الذى فقدناه منذ مـدة طويلة قد عدنا فلقيناه ، نجـــد هذه الصبيانية تحاول أن تسترجع الوضع الطفولى فى العائلة .

لقد أعطى «فرويد» هذا العرض الاسم المناسب له ، وهو التحويل transference . إن قدرًا من الاتكال على الطبيب الذى قدّم لك العون أمرٌ سوىّ بالطبع ولعلنا نفهمه تمامًا . لكن الذى يشذّ عن السويّة ويفجؤنا هو العناد غير العادى الذى يتصف به التحويل وامتناع إيصاله إلى التصحيح الواعى .

لقد كان أحدُ إنجازات «فرويد» البارزة تفسيرَهُ لطبيعة هذه الرابطة ، على الأقل فى ضوء تاريخ الإنسان الشخصى ، وفتحَهُ الطريق أمام تقدم هام فى المعرفة السيكولوجية . ولم يعد اليوم أدنى شك أن هذه الرابطة ناشئة عن تخيلات خافيّة ، وأن هذه التخيلات تتمتع بصفة الزنا (بالقرابة القريبة) incest بصفة رئيسية ، ومن شأن هذا أن يفسّر بقاءها فى الخافية وامتناع صعودها إلى السطح مهما بلغ الاعتراف من شمول وإحاطة . رغم أن «فرويد» كان يتكلم دائمًا على تخيلات الزنا (بالقرابة القريبة) ، بما هى تخيلات مكبوتة ، لكن تقدم الخبرة يظهر لنا أن هذه التخيلات ما كانت قط واعية فى كثير من الحالات ، أو أن أصحابها قد أحسّوا بها ولو إحساسًا غامضًا ؛ ولهذا يمتنع أن تكون مكبوتة قصدًا . وما كشفت عنه المباحث الحديثة أن تخيلات الزنا (بالقرابة القريبة) تخيلات خافيّة عادةً وأنها تبقى كذلك حتى تخرج إلى النور بواسطة المعالجة التحليلية . لا أريد بهذا صعودها إلى الأعلى من أعماق الخافية تدخل من طبيعة يجب اجتنابها ، وإنما أردت أن أبين أن هذا الإجراء

يكاد أن يبلغ من العنف مـا تبلغه عـملية جـراحية . لكنه أمـر لا يمكننا تفاديه كليّةً ، لأن الإجـراء التحليلى يستثـير «التحويل» ، وهو أمـر غير طبيعى ، ولا يعالج إلا بالوصول إلى تخيلات الزنا (بالقرابة القريبة) .

فى الوقت الذى تعيد فيه طريقة الـتطهير إلى الأنيّة محتويات هى فى متناول الواعية ومندرجة فيها ، تقوم بطريقة تجلية التحويل بإنارة محتويات تكاد بطبيعـتها أن تكون ممتنعة على الواعيـة . هذا هو الفرق الرئيسى بين مرحلة الاعتراف ومرحلة التفسير .

بحثنا - فيما تقـدم - فى فئتين من الحالات : حالات المرضى الذين لا يستجيبون لطريقة التطهيـر ، وحالات الذين تثمر معهم هذه الطريقة . ثم تناولنا - زيادة على ذلك - حالات المرضى الذين يتخذ التثبيت لديهم صورة التحويل . وإلـى جانب هؤلاء وأولئك أناس أتينا على ذكرهم ممن لا يحدث لهم تعلق بالطبـيب ، بل بالخافية وهو يشـبه الوقوع فى فخ . وفى هذه الحالات لا تـنتقل الصورة الأبـوية إلى الموضوع البـشرى ، بل تبـدو تخيـلاً ، لكنها مع ذلك تحـدث نفس قوة الجـذب ، وتورث نفس التعلق الذى يورثه التحويل .

نستطيع أن نفـهم المرضى الذين لا يمكنه إسلامُ أنـسـهم بدون تحفظ إلى العلاج بطريقة التطهير ، فى ضوء البحث الفرويدى[1] ، إذ نستطيع

(١) الذى يذهب إلى أن تخيلات الزنا (بالقـرابة القريبة) كانت مرة فى الواعـية ثم انسربت إلى الخافية .

أن نرى فيهم توحداً identification مع الأبوين حتى قبل مـجيئهم إلى الطبـيب ، يستمـدون منه سلطة قـوية واستقـلالاً وقوة نافـذة تمكنهم من مقاومة العلاج مـقاومة ناجحة . معظم هؤلاء مثقفون أفـردوا شخصياتهم عن كتلة المجموع . على حين نجد آخرين وقـعوا ضحايا ، لا شفاء لها ، لصورة الأبوين الخافيّة[1] يستـمدون القـوة من توحد أنفسـهم مع أبويهم توحداً خافيّاً .

فى موضوع التحويل ، لا نستطيع الوصول إلى نتيـجة مثمرة اعتماداً على الاعتراف . وكانت هذه المسألة هى التى حملت «فرويد» على إحداث تجديد أساسى على تقانيّة «بروير» الأصلية القائمة علـى التطهير وعلى ما دعاه هو نفسه بـ «المنهج التفـسيرى» وقد جاءت هذه الخطوة عن اضطرار ، لأن العلاقة التى تحدث نتيجة للتـحويل تتطلب الشرح والتفسير . الرجل العادى قلمـا يستطيع إدراك أهميـة ذلك ، لكن الطبيب الذى يجد نفـسه واقعًا فى شبكة من المفاهيم التـخيلية التى يتعذر فهمـها يدرك أهمية ذلك بجلاء . يجب عليـه أن يفسر التـحويل للمريض ؛ أى أن يشـرح له ما «يُسقطه» على طبـيبه . وبما أن المريض لا يدرى مـا هو ، يُضطر الطبيب إلى إخضـاع ما يمكنه الحصول عليـه من شذرات التخـيل التى تصدر عن المريض إلى التفـسير التحليلى . والأحـلام ، أولاً وقبل كل شىء ، هى التى تزوّدنا بهـذه المادة الهامة . لقـد قام «فرويد» وهو يبحـث فى كبح

---

(١) أى أن هذه الصورة ما كانت فى الواعية أصلاً ، بل منشؤها الخافية - المترجم - .

الرغبات التـى تتصادم مع منطلقاتنا الواعـية ، قام بدراسة الأحـلام سعيًا لتعرف هذه الرغـبات . وإنه لفى سياق بحـثه إذ اكتشف مـحتويات الزنا (بالقرابة القريبـة) التى تكلمت عنها . لكن الذى كشف عنه «فرويد» لم يكن هذه المحتـويات وحدها . وإنما جـميع القذارة التى بمـقدور الطبيـعة البشرية أن تنطوى عليها . ومن المعـروف أن وضع قائمة بها ، ولو غير دقيقة ، مهمة تستغرق العمر بأكمله .

كانت النتيجة الختامية التى أثمر عنها منهج «فرويد» فى التفسير بيانًا مفصلاً عن الجانب المظلم (= الظل) من الإنسان على نحو لم يقم به أحد قط من قبل . وكان هذا البيان أنجح ترياق قد يخطر بالبال من أجل تبديد جميع الأوهام المثالية التى نحكيها حول طبيعة الإنسان ؛ ولذلك لا عجب أن تنهض فـى وجـه «فرويد» ومدرسـته أشد أنواع المعـارضة من جـميع الجهات .

والحق إنه لا يمكننا أن نـتوقع شـيـئًا آخر ممـن يؤمنون بالأوهام عن عقيدة ومبدأ . لكنى أعتقد أن فئة غير قليلة ممن لم تستحوذ عليهم الأوهام بالجانب البشرى المظلم كانوا فى جملة من اعـترضوا على منهج التفسير ؛ وكان وجه الإعتراض عندهم أنه لا يجـوز رسم صورة الإنسان انحيازًا إلى جانبـه القاتم وحـده . وبعد ، ليس الظل بالأساسـى ، بل الجسم الذى يلقيه .

يعتمد منهج «فرويد» فى التفسير على إيضاحات تبتغى رد الأمور إلى أصولها ، وهذا يؤدى بنا بإطّراد نحـو الخلف ونحو الأسفل ؛ وإذا بالغنا

فى استخدام هذا المنهج بطريقة أحـادية ، كان له تأثير مدمر علينا . ومع ذلك استفاد علم النفس فـائدة عظيمة من عمل «فرويد» الرائد ؛ إذ تعلم (علم النفس) أن للطبيعة البشرية جانبها الأسود أيضًا ، وإن الإنسان ليس وحده الذى عنده هذا الجانب ، وإنمـا أعماله ومؤسسـاته وعقائده أيضًا ، حتى أنقى معتقداتنا وأقدسها يمكننا ردّها إلى أكثر أصولها خاميّةً (= نسبة إلى المادة الخام) ؛ بل حـتى هذه الطريقة من النظر إلى الأشياء . فـبداية جميع العضويّات الحيـة بدايات بسيطة ومتدنيّة ؛ وإنما نبنى بيوتنا بدءًا من الأساس ثم نـرفعهـا إلى أعلى ما من مـفكر ينكر أن تفـسير «سـلومون ريناخ» للعشاء الأخير بصيغة التوتمية البدائية قد جاء محمّلاً بالمعنى ، وما من أحد يعترض على أن موضوع الزنا (بالقـرابة القريبة) قد بيّنته أساطير آلهـة الإغريق . ومن المؤلم - ولا نكـران فى ذلك - أن نفسـر الأشيـاء المضيئة من الجانب الظلم (= الظل) ، وبذلك نعيدها ، بمقياس ما ، إلى أصولهـا من القذارة الـكئيبـة . لكن يبدو إلـى أن ثمّة نقصًا فى أشـياء الجمال، وضعـفًا فى طبيعة الإنسان . إن كان للتفـسير من الجانب المظلم تأثير مدمّر . ومـا مردّ الرعب الذى نشعر به من تفـسيرات «فرويد» إلا إلى سذاجتنا البربرية أو الصبيانية التى تذهب بنا إلى حد الاعتقاد بوجود مرتفـعات بدون منخفـضات تقابلها ، ممـا يُعمينا عن الحقـيقة «النهـائية» القائلة إن الأطراف تتـلاقى عندما تُحمل إلى حدودها القُصـوى . ومنشأ

الخطأ أن نحسب المضيء لا يعود له وجود إذا نحن فسّرناه من الجانب المظلم . وهذا خطأ يؤسف له ، وقد وقع فيه «فرويد» نفسه ، ومع ذلك يرجع الظل إلى النور ، مثلما يرجع الخير إلى الشر ، والعكس بالعكس. لذلك تجدنى لا آسف لما يورثه فينا عرض أوهامنا وحقارتنا الغريبة من شعور الصدمة ؛ على العكس ، أرحب بهذا العرض وأعلق عليه أهمية تكاد لا تُقدر بثمن . . لأنه إحدى النوسات التى تنوس لكى تعيد الأمور إلى نصابها الصحيح ، كما أظهر لنا التاريخ ذلك فى كثير من الأحيان . ويجبرنا على القبول بالنسبية الفلسفية الحاضرة على النحو الذى صاغه إينشتاين فى الفيزياء الرياضية ، والتى هى فى الأساس حقائق الشرق الأقصى التى لا يسعنا التنبؤ بآثارها النهائية علينا .

الأفكار الأقل تأثيرًا فى سلوكنا هى الأفكار التى ينتجها العقل . لكن عندما تعبر الفكرة عن خبرة نفسية تؤتى ثمارها فى أقاليم منفصل بعضها عن بعض ، كانفصال الشرق عن الغرب ، ومبرأة من العلاقة التاريخية ، عندئذ يجب أن ننظر فى الأمر فى إمعان ؛ لأن هذه الأفكار تمثل قوى هى من وراء التبرير المنطقى والتأييد الأدبى أو الأخلاقى ؛ هى دائمًا أقوى من الإنسان وأقوى من عقله . والإنسان يؤمن إيمانًا حقيقيًا بأنه هو الذى يصوغ هذه الأفكار ، لكن هذه الأفكار هى التى تصوغه فى الحقيقة ، وتجعل منه الناطق باسمها وهو لا يدرى .

عَودًا إلى مشكلة التثبيت ، أحب أن أتناول الآثار التى تترتب على سياق التفسير . يصبح المريض عارفًا بوضعه غير السليم من حيث علاقته بالطبيب عندما يرتد التحويل إلى أصوله المظلمة ؛ فلا يستطيع أن يتجنب رؤية ما فى مطالبه من قلة لياقة ومن صبيانية . فإن كان به غرور عمل على استبدال موقع أوضع بموقعه الأرفع ، وعلى التسليم بأن فقدان الأمن أصح وأكثر عافيةً . وإن كان ظل متمسكًا بمطالبه الصبيانية يبغى أن يحل محله شعور متعاظم بالمسؤولية . والحصيف من يتخذ قراراته الأخلاقية بنفسه ، عارفًا عيوبه ، ويتخذ من هذه المعرفة درعًا يقى بها نفسه ؛ يخوض غمار معترك الوجود ويستنفد شيئًا فشيئًا بالعمل والخبرة تلك الطاقة من الحنين التى كانت من وراء تشبثه عنيدًا بفردوس الطفولة ، أو لا ينظر إليه - على الأقل - إلا من فوق كتفه . ويصبح من مبادئه الأخلاقية الهادية أن يتكيف مع عيوبه ويصبر عليها ، ويسعى أن يحرر نفسه من العاطفية والأوهام . والنتيجة الحتمية التى تترتب على ذلك انصرافه عن الخافية كما ينصرف عن مصدر ضعف وغواية ، عن ميدان هزيمته الأخلاقية والاجتماعية .

المشكلة التى تواجه المريض الآن هى أن يتعلم كيف يصبح كائنًا اجتماعيًا ، وبذلك نأتى إلى المرحلة الثالثة . حسبُ الذى عنده حس أخلاقى أن ينظر فى نفسه بما لديه من قوة دافعة تكفى لأن تنقله إلى موقع متقدم . أما صاحب الخيال الضعيف من ناحية القيم الأخلاقية ، فهذا

غيـر كافٍ . هذا لا تعـود عليه مـعرفتـه بذاته بأى نفع إلا إن كـان ثمة محرّض من ضرورة خارجـية ، حتى ولو كان مقتنعًا بها قناعـة عميقة ؛ هذا ، ناهيك عمن صـدمته تفسيـرات المحلل وظل يرتاب بها مع ذلك . هذا الأخيـر إنسان منضبط عقلـيًا أدرك حقيقـة التفسيـر الذى يرد الأمور الرفيعـة إلى أصلها «الوضيع» لكنه لا يستـطيع التسليم به لأنه يتنافى مع آماله ومثله العليا . فى مثل هذه الحالات لا يكفى مجرد النظر فى الذات. إن ضعف منهج التـفسير أنه لا يُفلح إلا مع الأشـخاص ذوى الحساسـية الذين يسـتطيعون اتـخاذ قرارات أخـلاقيـة مستـقلة مسـتقـاة من فهـمهم لأنفسـهم. صحيح أننا نستطيـع أن نقطع فى التفسيـر خطوات إلى الأمام أبعد مما نـستطيع أن نفعل ذلـك بالاعتراف غـير المفـسّر وحده ، بما هو تدريب للعقل ، وربما إيقاظ للقوى الراقدة التى تستطيع أن تتدخل تدخلاً مسعـفًا بالتالى . لكن الحقيـقة الباقيـة هى أن أشمل التفسـيرات وأنفذها يجعل الإنسان فى أكثر الحالات إنسانًا ذكـيًا ، لكنه يتركه طفلاً عاجزًا . المشكلة هى أن التفـسيرات «الفرويدية» القـائمة على مبدأ اللذة وإرضـائها تفسيـرات أحادية وبالتالى غيـر كافية ، خصـوصًا إذا نحن طبقناها على المراحل المتأخـرة من التطور . هذه النظرة لا تصلح تفسيـرًا لكل إنسان ؛ لأنه ، وإن كـان كل إنســان يمتلك هذا الجـانب ، ليس بالجـانب الأهم دائمًا. الفنان الجائع يفضل الخبز على لوحة جميلة ، والمحب يفضل امرأة على حياته العامة ؛ ومع ذلك تظل اللوحة عند أحدهما ، والوظيفة العامة

عند الآخر ، ذات أهمية بالغة . بعامة ، لعلنا نستطيع أن نعزو إلى مبدأ اللذة أسباب نجاح الذين يستطيعون أن يتكيفوا مع المجتمع ويحتلوا مركزًا مرموقًا فيه أكثر من الذين لم يستطيعوا تكيفًا معه بما لديهم من عيوب اجتماعية تتركهم يتحرقون لهفةً على السلطة والمكانة الرفيعة . فالأخ الأكبر الذى يسير على خطا أبيه ، ويصل إلى مركزه الآمر الناهى ، قد يكون معذبًا بشهواته ؛ لكنّ الأخ الأصغر الذى يشعر أنه مكبوت ، وأن الاثنين الآخرين قد أخفيا ظلّه ، قد يكون الحافز عنده الطموح واللهفة إلى الاحترام ؛ إذ ربما يستسلم لعواطفه كليّة ، ولا يرى فى سواها أمرًا حيويًا.

عند هذه النقطة ندرك مبلغ ما فى تفسير «**فرويد**» للأشياء من نقص، وعند هذه النقطة بالذات قام تلميذه السابق «**ادلر**» بسدّ الفجوة . لقد بيّن «**ادلر**» وكان بيانه مقنعًا، أن كثيرًا من حالات العصاب نستطيع لها تفسيرًا مُرضيًا على أساس «دافع السيطرة» بأكثر مما يستطيع «مبدأ اللذة» أن يفسّرها . ولذلك قام تفسيره على أساس أن يبيّن للمريض أنه «يرتب» أعراضه ويستغل عصابه سعيًا للوصول إلى مكانة وهمية ، وأن تحويلاته وتثبيتاته الأخرى لا عمل لها سوى خدمة شهوته للسيطرة ، وهو (العصاب) يمثل «احتجاجًا مذكرًا» على خضوعه الموهوم . من الواضح أن «**ادلر**» قد ركّز نظره على المكبوتين والفاشلين اجتماعيًا ممن استحوذت عليهم شهوة واحدة هى توكيد الذات self-assertion . هؤلاء محصورون

لأنهم يتصورون أنفسهم مضطهدين دائمًا ، ويصوّبون رماحهم نحو طواحين هوائية من صنع تخيلاتهم ؛ وبذلك يرفعون الهدف الذى يرمون تحقيقه ، أكثر من كل هدف آخر ، إلى ما فوق متناولهم .

فى اعتبار الأساسيات ، يبدأ منهج «ادلر» فى المرحلة الثانية ، وهو يفسّر الأعراض التى أشرنا إليها توآ ، ويكون مفهومًا لدى المريض عند هذا الحد . ومع ذلك إن ما يتميز به «ادلر» أنه لا يتوقع الشىء الكثير من الفهم ، بل يخطو خطوة إلى الأمام باعترافه صراحةً بالحاجة إلى التربية الاجتماعية . فى الوقت الذى يُعتبر فيه «فرويد» باحثًا ومفسرًا يعتبر «ادلر» مربيًا بصفة رئيسية . وهو إذ يرفض أن يترك المريض فى حالة صبيانية ، يائسًا رغم فهمه الثمين ؛ وهو إذ يجرّب كل طريقة لكى يعلمه ويجعل منه كائنًا متكيفًا اجتماعيًا سويًا ؛ وهو إذ يجرّب كل هذا - على ما يبدو - اعتقادًا منه أن التكيف الاجتماعى والحالة السويّة أمران لا غنى عنهما للكائن البشرى ، بل هما من أكثر الأهداف إلحاحًا ، وأكثر التحقيقات مناسبةً . والتأثير الاجتماعى الذى أشيع عن مدرسة «ادلر» إنما جاء نتيجة لهذه النظرة ، شأنه فى هذا كشأن إهماله للخافية ، ذلك الإهمال الذى يصل به إلى حد انكاره لها إنكارًا تامًا . ولعل هذا الإنكار هو النَّوسة إلى الطرف الأقصى المضاد ؛ إلى الارتداد الحتمى الناجم عن توكيد «فرويد» على الخافية الذى يتطابق مع الانجراف الطبيعى إليها الذى لاحظناه فى المرضى الذين يكافحون فى سبيل التكيف والصحة . ذلك

أننا عندما نعتبر الخـافية مجرد وعاء تُلقى فيه جـميع أشياء الظل الشريرة من الطبيـعة البشـرية . بما فى ذلك الرسوبات الطينيـة الأولى ، فإننا لا نرى لماذا يجب علينا أن نظل نتسكع على حافـة هذا المستنقع الذى سقطنا فيه فى وقت من الأوقات . قد يرى البـاحث فى بركة وحل صغيرة عالمًا حافلاً بالعجائب ، بينما لا يرى الإنسان العادى غير شيء يفضل أن يدير إليه ظهره . وكـما تَعَيَّنَ على البوذية ألا تعترف بإله لأنه كـان عليها أن تتحرر من إرث ما يقرب من مليـونين من الآلهة ، كذلك يتعيّن على علم النفس أن يرفض رفضًا قاطعًا مفهومًا عن الخـافية مثل مفهوم «فرويد» إن كان يريد لنفسه أن يتطور قُدُمًا .

تبدأ مـدرسة «ادلر» وما اشـتملت عليـه من مقاصـد تعليمـية ، عند النقطة التى تتركها مدرسة «فرويد» ، وبذلك تُعين المريض ، الذى تعلم أن ينظر فى نفســه ، على إيجـاد طريق يوصله إلى حـياة سـويّة . من الواضح أنه ليس يكفيه أن يعلم كيف وقع المرض ولا لماذا وقع فيه ؛ لأن معرفة أسباب المرض لا تفعل إلا القليل في سبيل الإقلال منه . يجب ألا ننسى ما تفضى إليه ممرات العصاب الملتوية من اكتساب لكثير من العادات العنيدة ، لا يُقلع عنها المريض إلا أن يحل محلها عادات أخرى ، بالرغم من كل قـدر من تفـهم يحـصل عـليـه . لكن العـادات لا تُكتـسب إلا بالممارسـة ؛ والوسيلة الوحـيدة إلى هذه الغاية التـعليمُ المناسب . لذلك يجب أن نحمل المريض على السير فى ممرات أخرى ؛ وهذا يتطلب دائمًا

إرادة للتعليم . من هنا كـان سبب ما لقيه مـفهوم «ادلر» من عطـف من رجال الـدين والتعليم ، بينمـا كان أنصـار مدرسـة «فرويد» من علمـاء الطبيعة ورجال الفكر ، وكلهم مُربٍ أو معلم فاشل .

لكل مرحلة من التطور النفسى نهاية خاصـة بها . فبعد أن نكون قد اختبـرنا التطهير وما يرافقـه من اعتراف شامل ، نشعـر أننا بلغنا الهدف الذى كنا نسعى إليه : فكل خبىء ظهر ، وكل مجهول عُلِم ، وكل تعلق تبدّد ، وكل دمعة أُريقت ، وكل شىء سوف يسير على ما يجب أن يسير عليه . بعد مـرحلة التفسيـر ، نصبح قانعين أننا صرنا نعـرف كيف نشأ العصـاب . فالذكـريات الأولى تم الكشف عنها ، والجـذور العميـقة تم التنقيب عليـها ، والتحـول لم يكن غير توهُّم إشـباع رغبـة فى فردوس الطفولة أو انكفاءٍ إلى الوضع العائلى القديم ، والطريق إلى حياة سويّة لا أوهام فيـها بات سالكًا وممهـدًا . ثم بعد ذلك تأتى مرحلـة التعليم التى تجعلنا نتـحقق أن ليس الاعتراف ولا كل قـدر من التفسيـر بقادر على أن يكفل لنا نموًا مستقـيمًا لشجرة معوجّة ؛ إذ لابد لها من بسـتانى يتعهّدها بالعناية قبل أن يصبح الوصول إلى تكيف سوىّ أمرًا ممكنًا .

هذا الإحسـاس الغريب بالنهاية ، الذى رافق كل مـرحلة من مراحل التطور ، هو الذى يجـعلنا نرى أناسًا ما سـمعـوا قط شيـئًا عن تفسـير الأحلام يلجؤون إلى ممارسة التطهير . فهناك «فرويديون» لا يفهمون كلمة من «ادلر» و «ادلريون» لا يريدون أن يسـمعوا كلمـة عن الخافـية (= اللا

شعور) ؛ جميع هؤلاء وأولئك خدعهم إحساس بالنهاية الذى يستدعى مثل هذا التصلب العنيد فى كل الاتجاهات ؟ لا أستطيع تفسير هذا لنفسى إلا على أساس أن كل مرحلة من مراحل التطور تشكل إجمالاً لحقيقة أساسية ؛ فهناك حالات تتكرر المرّة تِلْو المرّة وتثبت فيها هذه الحقيقة ثبوتًا ظاهرًا جدًا . لقد حفل عالمنا بالضلالات حتى باتت الحقيقة فيه شأنًا لا قيمة له ، ومن يعثر عليها لا يريد لها أن تفلت منه بسبب بضعة استثناءات لا تتفق معها . ولذلك يُنظر إلى من يشك فيها كما يُنظر إلى كافر شرّير ، بينما تتسلل إلى المناقشة لهجة من التعصب وقلة التسامح على جميع الجهات .

ومع ذلك بوسع كلّ منا أن يحمل مشعل المعرفة حتى مرحلة من الطريق إلى أن يتناوله منه شخص آخر . هل بمقدورنا أن نقبل هذا بطريقة غير شخصية ؟ هل بمقدورنا الاعتراف أننا لسنا المبدعين الشخصيين لحقائقنا ، وإنما نحن عارضون لها وتقتصر مهمتنا على تفصيل الاحتياجات النفسية ليومنا ؟ لو كان بمقدورنا هذا كلّه ، إذن لوفّرنا على أنفسنا كثيرًا من السمّ والمرّ وأصبحنا قادرين على إدراك استمرارية العقل البشرى العميقة وفوق الشخصية .

كثيرًا ما نُسقط من حسابنا أن الطبيب الذى يعتمد التطهير أسلوبًا فى العلاج هو أكثر من تجسيد لفكرة مجردة تنتج التطهير ولا شىء غيره تلقائيًا ، وننسى أنه إنسان أيضًا . فقد يكون تفكيره محدودًا بحقل

اختصاصه ، وهذا شيء أكيد ؛ لكنه في سلوكه يمارس تأثير كائن بشرى كامل . وهو يفعل الشيء الكثير في طريق التفسير والتعليم من غير أن يقصد إلى ذلك ، ومن غير وعى ظاهر منه ومن غير أن يسمّيه ؛ وهناك محللين آخرين يفعلون مثله في طريق التطهير من غير أن يرفعوا ذلك إلى مستوى المبدأ .

ليست المراحل الثلاث من علم النفس التحليلى التى عالجناها حتى الآن من النوع الذى يمكن أن تحل فيه المرحلة الأخيرة محل الأولى أو الثانية . فالمراحل الثلاث موجودة معًا في وقت واحد ، وتشكل مظاهر بارزة لنفس المشكلة لا يُبطل بعضها بعضًا كما لا يبطل الاعتراف الغفران. نفس الشيء ينطبق على المرحلة الرابعة ، وهى مرحلة التغيير transformation ، الذى ليس له أن يدّعى أنه تحقق نهائيًا ، أنه وحده الحقيقة الثابتة . فدوره يقوم على سدّ الخلل الذى خلّفته المراحل السابقة ، ومهمته أن يلبى حاجة إضافية مازالت بدون تلبية .

ولكى نجلىّ القصد الذى ترمى إليه المرحلة الرابعة ، ونلقى شيئًا من الضوء على اصطلاح «التغيير» ، يجب علينا أولاً أن نأخذ في اعتبارنا حاجات الإنسان النفسية التى لم تأخذ مكانًا لها في المراحل الأخرى . بعبارة أخرى ، يجب أن نستيقن مما قد يبدو مرغوبًا فيه أو يؤدى إلى أبعد من الزعم أن المريض أصبح كائنًا اجتماعيًا ومتكيفًا سويًا لكن نفس مفهوم «الإنسان السوىّ» يوحى لنا باقتصاره على الكائن المتوسط ، كما

يوحى لنا أيضًا بمفهوم «التكيّف» . والإنسان الذى يصعب عليه أن يتلاءم مع عالمه اليومى هو وحده الذى يرى فى هذا الاقتصار تحسنًا مرغوبًا فيه ؛ أى الذى لا يؤهله عُصابه للتلاؤم مع الحياة السويّة . أن يكون المرء «إنسانًا سويًا» هو أروع مثل أعلى للفاشلين الذين لم يتكيفوا بعد . لكن الوقوف عند «السويّة» بالنسبة لمن يتمتعون بمقدرة أكبر مما يتمتع به «المتوسط» ، ولمن لا يصعب عليهم أن يحققوا نجاحًا أو يسهموا بقسط أبكر مما يتمتع به «المتوسط» ، ولمن لا يصعب عليهم أن يحققوا نجاحًا أو يسهموا بقسط فى صنع العالم ، لهو بمثابة سرير «بروكروستيس» ، وضجر لا طاقة لهم به ، وعقم وقنوط كالجحيم . وقد ترتّب على ذلك أن نجد كثيرين قد نال منهم العصاب لمجرد كونهم أسوياء ، وآخرين يرتد عصابهم إلى قصورهم أو عجزهم عن «السويّة» لهو عندهم كابوس لا يُطاق ، فأعمق احتياجاتهم أن يصبحوا قادرين حقًا على أن يحيوا حياة «غير سويّة» .

بوسع الإنسان أن يأمل بتلبية حاجة لم يمتلكها بعد ، لكن ليس بوسعه أن يجد لذة فيما عنده منه الشىء الكثير . أن يكون المرء متكيفًا اجتماعيًا ليس فيه ما يفتن إنسانًا عنده أن يكون كذلك هو من قبيل لعب الأطفال . أن تفعل دومًا ما هو صحيح يصبح باعثًا على الضجر عند من يعرف كيف يفعله، بينما يظل يداعب الصانع الذى تنقصه المهارة تطلّع خفى لأن يكون صحيحًا، ولو مرة واحدة ، فى وقت ما من المستقبل البعيد .

حاجات الأفراد وضرورياتهم تتفاوت بين فرد وآخر . وما قد يحرّر إنسانًا قد يسجن آخر ؛ ويصدق هذا القول على السويّة والتكيّف . ورغم الحكمة البيولوجية القائلة إن الإنسان حيوان اجتماعى وإنه لا يكون صحيحًا معافى إلا أن يعيش فى جماعة ، إلا أن القضية التى نلاحظها وكأنها تقلب هذه الإبانة رأسًا على عقب ، ونثبت أن الإنسان لا يكون صحيحًا معًا فى إلا أن يعيش حياة غير اجتماعية وغير سويّة . ومن سوء الحظ ألا يستطيع علم النفس التطبيقى أن يقدم وصفات وقواعد سلوك صالحة على وجه العموم . فما ثمة إلا حالات فردية لها احتياجات ومتطلبات تختلف فيما بينها اختلافًا كبيرًا . وقد بلغ اختلافها مبلغًا بتنا معه غير قادرين على استشراف الطريق الذى سوف تسلكها حالة بعينها . ولذلك يحسن بالطبيب أن ينبذ المسلّمات الفجّة ، من دون أن يعنى ذلك أن عليه أن يرفع جميع مسلّماته على الرفّ ، بل أن يعتبرها مسلّمات افتراضية إزاء كل حالة على حدة .

ومع ذلك لا تقتصر مهمة الطبيب على تعليم المريض أو إقناعه وحسب ؛ وإنما عليه أن يبين له كيف يكون رجع (= رد فعل) الطبيب على حالته الخاصة . لأننا إن لجأنا إلى اللف والدوران ، تبقَ العلاقة بين الطبيب والمريض علاقة شخصية فى إطار المعاجلة المهنية غير الشخصية . ومهما كانت وسائلها ، فليس بمقدورنا أن نجعل من المعالجة أمرًا بعيدًا عن التأثير والتأثر المتبادلين اللذين يلعب فيهما دوره كل من كينونة

للمريض والطبيب . وقد يكون نطاق الوعى عند كليهما معروفًا معرفة يقينية واضحة ، ولكنهما يجلبان معهما نطاقًا من الخافية لا حدّ لمداه أيضًا. لهذا السبب غالبًا ما تكون نتيجة المعالجة ذات صلة بشخصية الطبيب والمريض أكثر مما يقوله الطبيب أو يظنّه ، رغم أنه يجب ألا نقلل من قيمة العامل الأخير من حيث كونُهُ سببًا فى الاضطراب أو الشفاء .

إن اجتماع الشخصيتين أشبه ما يكون باتصال مادتين كيماويتين : إن كان ثمة تفاعل يغير كلتاهما . ولعلنا نتوقع أن يكون للطبيب على المريض تأثير فى كل معالجة نفسية ناجحة ؛ لكن هذا التأثير لا يحدث لولا تأثر الطبيب بالمريض أيضًا. إنك لا تستطيع أن تحدث تأثيرًا إن لم تكن أنت قابلاً للتأثر . وليس يُجدى الطبيبَ أن يحصّن نفسه من المريض وأن يحيط نفسه بستار من دخان السلطة الأبوية أو الحرفية . وإن هو فعل ذلك حَرَم نفسه من الإفادة من عنصر المعلومات البالغ الأهمية ، ومع ذلك يظلّ المريض يؤثر فيه تأثيرًا خافياً . فالتأثيرات الخافيّة التى يحدثها المريض فى الطبيب يعرفها كثير من أطباء النفس ، وهى اضطرابات - أو حتى أضرار ناشئة عن المهنة - تبين بجلاء تأثير المريض شبه «الكيماوى» .

ومن هذه التأثيرات المعروفة التحويل المضاد conuter - transference الذى يستثيره التحويل. لكن أغلب هذه التأثيرات أدقّ وأخفى ، وأفضل مما يعبِّر عنها فكرة «عفريت المريض» القديمة . بحسب هذه الفكرة ، ينقل المريض مرضه إلى شخص صحيح يقع «العفريت» تحت سيطرة قواه لكن ليس بدون تأثير سلبى على صحة المعالج .

في العلاقة بين الطبيب والمريض نصادف عوامل لا قياس لها ولا وزن تحدث تغييرًا وتغيّرًا متبادلين . وفى هذا التبادل ، الشخصية الأثبت والأقوى تحسم النتيجة . لكننى شاهدت حالات كثيرة أثبت فيها المريض أنه أقوى من الطبيب رغمًا عن كل نظرية يشكلها هذا الأخير أو قصد يريد الوصول إليه . إن حدث شىء من هذا القبيل كان ذلك فى مصلحة الطبيب فى أكثر الأحيان ، وإن لم يكن كذلك دائمًا . التأثير والتأثر المتبادلان ، وكل ما يصاحبهما من آثار وأعراض ، يستتران تحت مرحلة التغيير . ولقد احتاج الأمر إلى ربع قرن من الخبرة العملية حتى وصلنا إلى اعتراف صريح بهذه المظاهر . وقد سلّم «فرويد» نفسه بأهميتها وأثنّى على مطالبتى بوجوب خضوع المحلل للتحليل .

لكن ما هو المعنى الأوسع لهذه المطالبة ؟ إنها لا تعنى أقل من أن الطبيب ، وهو يمارس التحليل ، لا يختلف عن المريض فى شىء ؛ وأنه جزء من سياق العلاج النفسى ؛ وأنه - كالمريض - عُرضة لما يورثه التغيير من آثار . والحق إنه لو كان الطبيب ممتنعًا على هذا التأثر بعض الامتناع ، لامتنع عليه التأثير فى المريض بنفس المقدار ؛ ولو كان تأثره بالمريض خافياً فقط ، لكان نقص واعيته يمنعه من رؤية المريض رؤيةً صائبة . فى كلتا الحالتين تكون المعالجة غير ناجحة .

المطلوب من الطبيب ، إذن ، أن يواجه المهمة التى يريد من المريض مواجهتها . فإن كان المطلوب من المريض أن يتكيف مع الجماعة ، كان

على الطبيب نفسه أن يتكيف معها ؛ أو بالعكس ؛ أن يكون متكيفًا معها على حساب ما يناسبه . طبعًا ، ثمة ألف جانب من هذه المهمة في عملية الشفاء ، وفقًا للوضع المطلوب في حالة معينة . فطبيب يؤمن بوجود التغلب على الطفولية - إن هذا يترتب عليه أن يتغلب هو أيضًا على طفوليته ، وآخر يرى وجوب تصريف العواطف والانفعالات - الأمر الذي يوجب عليه تصريف عواطفه وانفعالاته . وثالث يؤمن بالواعية الكاملة - وهذا يقتضيه أن يبلغ مرحلة متقدمة من الوعي . في كل الأحوال ، يجب على الطبيب أن يثابر على محاولة جميع المتطلبات العلاجية الخاصة به إن كان يريد أن يضمن لنفسه تأثيرًا خاصًا في مريضه. إن جميع هذه المبادىء العلاجية المرشدة تضع الطبيب وجهًا لوجه أمام واجبات أخلاقية هامة نُجملها في قاعدة واحدة : كن ذلك الإنسان الذي تريد من خلاله أن تؤثر في الآخرين . الكلام المجرد أجوف دائمًا ؛ وما ثمة حيلة - مهما بلغت من براعة - تتيح للإنسان أن يجتنب هذه القاعدة البسيطة طويلاً . أن تكون مقتنعًا ، لا أن تكون مادة إقناع ، هي الحقيقة التي يقام لها وزن دائمًا .

لا تتطلب المرحلة الرابعة من علم النفس التحليلي أن يتغير المريض وحسب ، وإنما أن يطبق الطبيب على نفسه نفس النظام الذي يصفه لمرضاه في كل حالة تصادفه ، والطبيب إذ يعالج نفسه ، يجب عليه أن يبدي نفس الشدة والصلابة والدأب الذي يبديه إذ يعالج مرضاه . أن

يشتغل على نفسه فى تركيزه على مرضاه ليس بالمهمة الهيّنة ، لأن عليه أن يبذل كل الانتباه وأن يدقق فى الحكم الذى يتطلبه إظهار مرضاه على طرائقهم وقراراتهم الخاطئة وحيلهم الصبيانية . لا أحد يكافىء الطبيب على جهوده الاستبطانية (التى بذلها فى تقويم نفسه)[1] ، فضلاً عن أننا لا نُعنى بأنفسنا العناية الكافية . فنحن ، بعامة ، نقلل من شأن ما فى النفس البشرية من مظاهر عميقة حتى لنعدَ فحص النفس أو الاهتمام بها أمراً يكاد أن يكون مَرَضياً . واضح أننا نرتاب أن يكون علق بأنفسنا أشياء غير صحية مما تخلّفه غرفة المرضى . يجب على الطبيب أن يتغلب على هذه المقاومات فى نفسه ، لأنه ما من أحد يستطيع أن يعلّم غيره وهو نفسه غير متعلم ، وأن ينير صحبه وهو فى ظلمة عن نفسه ، وأن يطهّر غيره وهو نفسه غير طاهر !

الانتقال من مرحلة تعليم الآخرين إلى تعليم النفس أمر مطلوب من الطبيب فى مرحلة التغيير ؛ لأنه النتيجة الطبيعية المترتبة على طلبه من المريض أن يغيّر نفسه ، وبذلك يُتم المراحل الأولى من المعالجة . لكن هذا التحدّى الذى يواجه الطبيب أن يغيّر نفسه لكى يحدث التغيير فى المريض لا يحظى بالقبول إلا قليلاً ؛ ولذلك أسباب ثلاثة : أولها ، أنه غير عملى . وثانيها ، أن ثمة تحاملاً على الاهتمام بأنفسنا ، وثالثها ، أنه قد يكون من المؤلم أن نحمل أنفسنا على العيش فى مستوى كل ما

(١) العبارة بين القوسين من وضعنا – المترجم – .

نتوقـعه من المريض . ولعل هذا الأخيـر هو السبب الأقـوى الذى يجعلنا نمتنع - على نطاق واسع - عن مطالبة الطبيب أن يفحص نفسه ؛ لأنه إن فحص نفسه صـادقًا فسرعان ما يكتشف فى نفسه أشـياء تتعارض كليّاً مع وضعيـة «الإنسان السوىّ» ، أو تظل قابعـة فى نفسه فى داخله تثـير أشد أنواع الاضطراب بالرغم من التفـسيرات الضـافية واتباع وسـائط تصريف العـواطف والانفعـالات . ماذا يجب عليـه أن يفعل مـخلصًا حيـال هذه الأشياء ؟ هو يعلم دائمًا ما ينبـغى على المريض أن يفعل بإزائها - إذن ، إن واجبـه المسلكى يحمله على أن يفـعل مثله . لكن مـاذا يجب عليه أن يفعل مخلصًا حيال هذه الأشياء عندما تكون متعلقة به أو بأقربائه الأدنين؟ لو فحص نفسه لاكتشف فيهـا جانبًا ناقصًا يُدنيه من مريضه دنواً خطرًا قد يفسد عليه سلطته . كـيف يعالج هذا الكشف الذى يعذبه ؟ هذا السؤال ، «العصابـى» من بعض الأوجه ، سوف يُقضّ عليه مـضجعه ، مـهما ظنّ نفسه إنسانًا سويًا . ثم تبين له لدى الفحص أن الأسئلة النهائية التى تلح عليه ، كما تلحّ على مرضاه ، لا تجد لها حلولاً بأى قدر من «المعالجة» . لسوف يخلى بينهم وبين أن يروا فـى توقع الحلول من الآخرين شكلاً من البقاء فى حالة الطفولية . ولسوف يرى بنفسه - إذا لم يكن الحل ممكنًا - أن عليه أن يعود فيكبت هذه الأسئلة .

لن أمـضى بعـيـدًا فى مسـألة فـحص الذات ومـا ينشـأ عنهـا من مشكلات، لأن الغمـوض الشديد الذى لم يزل يكتنف درسـنا للنفس لا

يسمح لنا أن نوليها من الاهتمام إلا أقله . وإنما بودّى أن أشدد على أهمية ما قد قلته توآ : تواجهنا أحداث التطورات الحاصلةو فى ميدان علم النفس التحليلى بعناصر لا قياس لها ولا وزن من عناصر الشخصية الإنسانية ؛ لقد تعلمنا أن نضع فى المقدمة شخصية الطبيب نفسه عاملاً شافيًا أو ضاراً؛ وبدأنا نطالبه بتغيير نفسه ، أى بتعليم المعلم . كل ما حدث للمريض يجب أن يحدث مثله للطبيب ، وعليه أن يمر بمراحل الاعتراف والتفسير والتعليم كى لأ تأتى رجوعاته (= ردود فعله) غير مناسبة للمريض. ولعل الطبيب ، فى هذه الحالة ، لا تعود تؤرقه مصاعبه الخاصة به عندما يعالج مصاعب الآخرين ، ويتذكر أن من يشكو من خُراج جارٍ لا يناسبه أن يجرى عملية جراحية لغيره .

وكما أجبر جانب الخافية الظليل مدرسة «فرويد» على التعامل حتى مع المسائل الدينية ، كذلك جعلت المراحل الأخيرة من تطور علم النفس التحليلى من موقف الطبيب الأخلاقى مشكلة لا يمكن اجتنابها . فالنقد الذاتى والفحص الذاتى المطلوبان منه يبدّلان نظرتنا إلى النفس الإنسانية تبديلاً جذريًا . فالنفس الإنسانية لا يتيسر لنا فهمها من منطلق العلم الطبيعى ؛ لأنها ليست المريض وحسب ، وإنما هى الطبيب أيضًا ؛ وهى ليست وظيفة من وظائف الدماغ ، بل هى الشرط اللازم للواعية نفسها .

ما كان يُعتبر فى السابق أسلوبًا فى المعالجة الطبية أضحى اليوم أسلوبًا فى التعليم الذاتى أو التعلم ، وبذلك يتسع علم النفس الحديث

سَعَةً لا حدود لها . فلم تعد شهـادة الطب التى نحصل عليها هى الشىء الحاسم ، وإنما هى الصفة الإنسانية . وهذه هى خطوة هامة . فقد تطورت جميع وسائلنا فى العلاج النفسـى والممارسة السريرية وتهذبت وتبوّبت ، وهى الآن مـوضوعـة فى خـدمتنا ويمكننـا الإفادة منهـا فى تعليم أنفـسنا والارتقاء بها إلى حـيث الكمال . لم يعد علم النفس التحليلى مـحصوراً بين جدران عيادة الطبيب ؛ لقد تقطّعت أغلاله . وبات من حقنا أن نقول إنه قـد تجاوز نفـسـه ؛ وها هو ذا يمضى قُدُمًا لكى يملأ الفـراغ الذى ظل حتى الآن يسِم الثقافـة الغربية بالقصور فى ميدان النفس مـقارنة مع ثقافة الشرق . لقد تعلمنا نحن الغربيين أن نروض أنفسنا ونخضعها لسيطرتنا، لكننا لم نتعلم شيئًا عن تطورها المنهجى ولا عن وظائفها . فحضارتنا لم تزل شابّة ؛ ولذلك نحن بـحاجة إلى جـميع الوسائل اللازمـة لترويض الحيوان لكى نجعل من ذلك الوحـش الجرىء الذى فى داخلنا حيوانًا طيّعًا بمقياس ما . ولكن ، عندما نصل إلى مـستوى ثقافى أعلى ، يجب علينا أن نتخلّى عن الإكـراه ونلتفت إلى تطوير أنفـسنا . من أجل ذلكَ تلزمنا المعرفـة بطريق أو منهج ، لكننا لا نعـرف حتى الآن ولا واحـدًا منها . ويبدو أن مـا كشف عنه واختبـره علم النفس التحليلى يصلح أن نعتـمده أساسًا على الأقل ؛ لأنه فى الوقـت الذى يتطلب فيه العـلاج النفسى أن يقوم الطبيب بترقية نفسـه والارتفاع بها إلى مستوى من الكمال - فى هذا الوقت بالذات يكون قد تحرر من أصوله السـريرية ولم يعد مجرد أسلوب

أو منهج فى علاج المرضى . إذ يغدو هذا موضوعًا فى خدمة الأصحاء أيضًا ، أو على الأقل فى خدمة الذين يحق لهم أن يكونوا أصحّاء ، وأمراضهم فى معظمها المعاناة التى تعذبنا جميعًا . لهذا السبب يحق لنا أن نأمل فى رؤية علم النفس التحليلى أعمّ فائدة حتى من المناهج التى تشكل منه مراحله الأولية التى تحمل كل منها حقيقة عامة . لكن ما بين تحقيق هذا الأمل والحاضر الراهن فجوة عميقة لا يقوم عليها جسر . يبقى علينا أن نشيده حجرًا حجراً .

الفصل الثالث

أهداف العلاج النفسى

بات من المتفق عليه اليوم بعامة أن العُصاب اضطراب وظيفى فى النفس يقتضى لشفائه اتّباع مناهج نفسية فى المعالجة . لكن . عندما نصل إلى مسألة تشكل العصاب ، وإلى المبادىء الأساسية فى المعالجة ، ينتهى كل اتفاق توصّلنا إليه ، ويبدأ عندئذ الاختلاف فى وجهات النظر . ولابد لنا من الاعتراف أننا إلى الآن لا نملك مفهومًا نرضى عنه كل الرضا لا عن طبيعة العصاب ، ولا عن مبادىء العلاج . وصحيح أن هناك اتجاهين أو مدرستين حظيتا باهتمام خاص ، غير أن تعاليمهما لا تستغرق جميع الآراء المختلفة التى صرنا نعبّر عنها اليوم . كذلك يوجد من غير هاتين المدرستين من كّون لنفسه وجهة نظر خاصة وسط هذا التنازع العام فى الآراء . ولذلك لو رحنا نرسم صورة شاملة للوضع الراهن ، لتعيّن علينا أن نتدرج فى ألوانها تدرّج قوس قزح فى ألوانه اللطيفة الدقيقة .

ولو كـان فى مقـدورى رسم مثل هذه الصـورة لكان هذا من دواعى سـرورى وابتهـاجى ، ذلك أننى كنت دائمًا أشـعر بحـاجة إلى إجـراء المقارنة بين العديد من وجهات النظر . لكننى - فى السياق الطويل - لم أخفق أبدًا فى إعطاء هذه الآراء المتبـاينة ما هى جديرة به . لأن هذه الآراء ما كانت لتنهض - بل ما كانت لتلقى من يتبـعها وهو أقل أمانًا بكثير - لو لم تكن متفقة مع استعـداد من نوع معين ، وشخصية من نوع معين ، وخبرة نفسية أساسـية من نوع معين ، عمّ وانتشر بهذه الدرجة أو تلك ، ولو كان علينا أن نسـتبعـد هذه الآراء لمجرد أنها خـاطئة ولا قيمـة لها ، لكان علينا أن ننبـذ هذا الاستـعداد الخـاص ؛ أو هذه الخبـرة الخاصـة ، ونعتبرها تفسيرًا خـاطئًا - أى ، لكان علينا الإضرار بمادّتنا التجريبية التى بين أيدينا . إن القبول الواسع الذى لقيه تفسير «فرويد» للعصاب بصيغة السببية الجنسية ، ونظرته القائلة بأن الحوادث النفسية ترتد فى الأساس إلى لذة طفولية وتلبـية لهذه اللذة ، يجب على العالم النفـسى أن يتعلم منها الشىء الكثيـر . فهى تُظهره على أن هذه الطريقـة من التفكير والشـعور تتوافق مع ميل أو تيار روحى واسع الانتشـار نسبيًا ظهر بمعزل عن نظرية «فرويد» فى أمكنة وأزمنة أخرى ، وفى عـقول كثيرة وأشكال مـختلفة . ينبـغى أن أسمّى هذا الميل تجليًا أو ظـهورًا للنفس الجـامعـة collective psyche علىّ أن أشـيـر أولاً إلى أعمـال «هافلوك أليس» و «أوغست فوريل» وإلى من ساهمـوا فى تحرير الـ Anthropophyteia ؛ وكذلك

إلى الموقف من الجنس فى بلاد الأنكو- سكسون فى الحقبة ما بعد الفكتورية ، وإلى المناقشات التى دارت مع الواقعيين الفرنسيين . وما «فرويد» إلا واحد ممن يمثلون سابق استعداد نفسى ظهر فى هذا العصر ، له تاريخ خاص به ، ولأسباب واضحة لا يسعنا أن نخوض فى هذا التاريخ من هذا المقام .

والقبول الذى لقيه «أدلر» على كلا ساحلى المحيط - ولم يكن أقل مما لقيه «فرويد» يسمح لنا بأن نخلص إلى نفس الاستنتاج ، لا نكران فى أن عدداً كبيراً من الناس يرتاح حين يفسر اضطراباته بصيغة «حض السيطرة» الناشىء عن شعور بالنقص . ولا أحد ينازع فى أن هذه النظرة تفسر حوادث نفسية فعلية لم يعطها حقها نظام «فرويد» ولا حاجة بى إلى أن أذكر بالتفصيل قوى النفس الجامعة والعوامل الاجتماعية التى تستتر وراء نظرة «أدلر» وتستوجب هذه الصياغة النظرية تحديداً . فهذه المسائل واضحة تماماً .

ولعله خطأ لا يُغتفر أن نغض الطرف عن عنصر الحق فى كلتا وجهتى النظر «الأدلرية» و «الفرويدية» ، لكن ما لا يغتفر أكثر أن نأخذ بإحداهما أو الأخرى على أنها الحقيقة الوحيدة . كلتا الحقيقتين تتفقان مع وقائع نفسية .

ثمة حـالات فعلية يكون خيـر وصف لها أو تفسـير اعتمـاد إحدى هاتين النظريتين أو الأخـرى . لا أستطـيع اتهّام أىّ من هذين الباحـثين بالخطأ ، وإنما أحاول تطبـيق كلتا الفـرضيتين على قـدر المستطاع ، لأنى أسلم تسليـمًا تامًا بجـدواهما النسـبيـة . ولولا أننى عـثرت على وقـائع اضطرتنى إلى تعـديل نظرية «فرويد» ، مـا كنت لأحيـد عن طريقـه ؛ ونفس الشىء ينطبق على علاقتى بوجهة نظر «أدلر» . كذلك يخيل إلىّ أن ليس ضروريًا إضافة اعتبارٍ ما فى نظرتى الخاصة من حقيقة نسبية بما أعتبر نفسى ممثلاً لسابق استعداد معين .

وليس كعلـم النفس التطبيقـى ميدان يتـوجب علينا فيـه أن نتواضع ونمنح القيمة لعدد كبير من الآراء المتـعارضة ظاهريًا ؛ فمازلنا بعيدين عن امتلاك شىء كـالمعرفة النافذة والشـاملة بالنفس الإنسانية - الميـدان الأكثر امـتناعًا على البحث العلـمى . ففى الوقت الحـاضر لا نملك سـوى آراء متفاوتة فى درجة الوضوح لـيس من السهل الجمع بينها . لذلك ، عندما أتولىّ عـرض ما لدىّ من وجـهات نظر عـرضًا عامًا ، أرجـو ألا يسىء فهمى أحد لأنى لست بصدد الدعوة إلى حقيقة جديدة وأقل من ذلك أنى أبشر بإنجـيل نهائى . إنما أستطيع الكلام على مـحاولات قمت بها بغـية إلقاء الضوء على وقائع نفسية كانـت غامضة علىّ ، أو على جهود بذلتها بغية التغلب على مصاعب تتصل بالمعالجة .

ويطيب لى أن أبدأ بهذه المسألة الأخيرة ؛ ففيها نشعر بأمسّ الحاجة إلى إجراء تعديلات . لقد بات من الأمور المعروفة أن بوسع المرء أن يتفق مع نظرية علاجية غير مكافئة . فى ممارستى للعلاج النفسى - وقد استغرقت ما يقرب من ثلاثين عامًا - صادفت عددًا لا بأس به من حالات أخفقت فى شفائها ، وكانت أوقع أثرًا فى نفسى من الحالات التى أفلحت فيها . يكاد يستطيع كل شخص أن يحقق نجاحًا فى ميدان العلاج النفسى ، بدءًا من الساحر البدائى إلى قارىء التعاويذ ، لكن الطبيب النفسى لا يتعلم إلا القليل ، أو لا يتعلم شيئًا ، من الحالات التى حقق فيها نجاحًا . لأن معظم هذه الحالات تثبته على أخطائه ؛ على حين تعتبر الحالات التى أخفق فيها اختبارات لا تقدر بثمن من حيث إنها لا تفتح أمامه طريقًا إلى حقيقة أعمق وحسب ، وإنما تضطره إلى تغيير وجهات نظره وطرائقه .

وإنى لأعترف بسبق «فرويد» ثم «أدلر» لى فيما قمت به من عمل ، وأعتمد منطلقاتهما فى العلاج التطبيقى الذى أعالج به مرضاى ، كلما كان ذلك ممكنًا . غير أننى صادفت حالات انتهت إلى الإخفاق ، وكان ممكنًا تفاديه لو أننى أخذت بعين الاعتبار المعطيات التجريبية التى اضطرتنى فيما بعد إلى إدخال تعديلات على نظرياتهما . يستحيل علىّ وصف جميع الحالات التى واجهتنى ، لذلك سأقتصر هنا على ذكر بضع حالات نموذجية . كانت أكبر المصاعب التى لقيتها ما كان من جانب

المرضى المتـقدمين فى الســنّ ؛ أى من الذين تجاوزوا الأربعين . أمـا فى معالجتى للشباب فكنت أجد وجهات النظر المعروفة عن «فرويد» و «أدلر» قابلة للتطبيق تمامًا ، إذ كانت تتيح عـلاجًا للمريض يصل به إلى مستوى معين من التكيف والســويّة ، بدون أن يترك ظاهريًا ذيولاً أو مضـاعفات مزعـجة . لكــن لم يكن الحال كـذلك مع المتقـدمين فى السن فى أغلب *الأحيان ؛ هذا بحـسب خبرتى . ولقد بدا لى أن عناصـر النفس تتعرض* مع الأيام إلى تغـيير بالغ الأثر حـتى لنستطيع أن نميـز بين سيكولوجـية «صبح» الحيـاة وسيكولوجية «عصـرها» . الأصل أن تتميز حـياة الشاب بتفتح عام وسعى دائب نحو غايات محسوسة ، فإذا ألمّ به عصاب أمكننا إرجاعه إلى تردده أو إنكفائه عن هذه الضرورة . لكن حياة من تقدمت به السن تتميز بضمور القوى أو تقلصها وتثبيت ما قد تم إنجازه والتوقف عن تحقيق مـزيد من نمو . وإنما يأتى عصابه من تعلّقه بموقف شـبابى أضحى الآن فى غيـر أوانه . وكما يخاف الشـاب المعصوب من الحيـاة ، كذلك ينكفىء الشـيخ عن الموت . وما كـان هدفًا سويًا عند الـشاب ، فـهو لا محـالة عقبة عـصابية لدى الطاعن فى السن . فى حـالة الشاب لابد وأن يصبح ما قـد كان فى وقت ما اعتمـادًا سويًا على الأبوين - أن يصبح زنا (بالقرابة القريبة) incest من خلال تردده فى مواجهة العالم ، وهى علاقة منافية للحياة . ويجب أن نتذكر، بالرغم من كل المشابهات ، أن المقاومة والكبت والتحويل و «الخيالات الهـاوية» إلى غير ذلك ليس لها إلا معنى واحد عندمـا نجدها لدى الشبـاب ، بينما لهـا معنى آخر عند الشـيوخ .

لذلك كان لابد لنا من إدخال تعـديل على أهداف العلاج لكي نواجه هذه الحقيقة . ولذلك يبدو لنا عمر المريض «شاخصة»[1] على درجة كبيرة من الأهمية .

لكن هناك أيضًا شواخص مختلفة نلاحظها فى فترة الشباب نفسها . ولذلك أرى أن الطبيـب يقع فى منزلق «تقـانى» إذا عـالج مـن منطلق «فرويدى» مريضًا لا ينطبق عليـه غير سيكولوجـية «أدلر» ، أى شخـصًا فاشلاً تسيطر عليه حاجة طفولية إلى توكيد ذاته . وعلى العكس ، يكون من فادح الخطأ أن نقحم نظرة «أدلر» على إنسان ناجح نسـتطيع أن نفهم دوافعه بصـيغة مبـدأ اللذة . وفى الحالات المشتبـه بها ربما تفيدنا مـقاومة المريض باعـتمادها «شـواخص» قيّمـة . وإنى لأميل منذ البـداية أن آخذ بالمقاومة العنيفة مأخذًا جادًا ، مهما بدا فى ذلك من غرابة لأنى مقتنع أن الطبيب ليس بالضـرورة فى وضع يمكّنه من معرفـة ما هو مطلوب معـرفة أفضل من البنية النفـسية الخاصة بالمريض ، التى ربما تكون خـافية (= لا شـعورية) حـتى بالنسـبة إلى المريض نفـسـه . هذا التواضع من جـانب الطبيب مناسب لوضـعنا اليوم مناسبةً تامـةً ؛ لا لأننا لا نملك حتى الآن سيكولوجـية صالحـة للتطبيق تطبيـقًا عامًا وشمـوليًا وحسب ، وإنما لأن

(١) «الشاخـصة» هى الاصطلاح الحديث الذى تعتـمده شرطة المرور (فى سوريـا) علامة على الطريق يسترشد بـها سائق السيارة . وقد رأيناها ملائمـة لترجمة indicilum اللاتينية المثبتة فى النص الإنجليزى - المترجم - .

التركيب النفسى متفاوت تفاوتًا لا حدود له، ولأن ثمة نفوسًا مفردةً تأبى أن تندرج فى أى تصنيف عام .

فيما يتعلق بالبنية النفسية أو التكوين النفسى ، بات معلومًا أنى أطرح أمرًا مسلمًا موقفين أساسيين مختلفين تبعًا للفروقات النفسية التى تلمّسها كثير ممن درسوا الطبيعة البشرية ، وهما : الموقف الانبساطى ، والموقف الانطوائى . هذين الموقفين أيضًا آخذهما «شاخصتين» هامتين ، شأنهما فى هذا كشأن سيادة وظيفة نفسية معنية على الوظائف النفسية الأخرى . إن التغيرات التى تطرأ على حياة الإنسان تستوجب من الطبيب أن يجرى تعديلات متواصلة على نظريته التى غالبًا ما يطبقها خافياً «= لا شعورية» ، على الرغم مما يكون فى هذه التعديلات من تضارب من حيث المبدأ مع عقيدته النظرية . وبما أننا بصدد مسألة التكوين النفسى ، يجب ألا نغفل الإشارة إلى أن فريقًا من الناس يتّسم موقفه بالروحية بصفة أساسية ، وفريقًا آخر يتسم موقفهُ بالمادية بصفة أساسية . يجب ألا نذهب إلى أن مثل هذا الموقف قد تم اكتسابه بسائق المصادفة أو أنه ينبع من نوع من إساءة الفهم . هذان الموقفان يبدوان وكأنهما عاطفتان مركوزتان فى النفس لا يجدى معهما نقد ولا إقناع ؛ حتى لنجد حالات تستمدّ منها المادية الصريحة ظاهريًا مصدرها فى نفس الاستعداد الدينى . أما حالات النموذج المضاد فقد أضحت اليوم معروفة على نحو أفضل ، رغم أنها ليست تكرارًا عن الأخرى . وأنا أرى أن هذين الموقفين أيضًا «شاخصتان» يجب ألا نغضّ الطرف عنهما .

وعندما نستخدم كلمة «شاخصة» ، لا نريد بذلك أن نصف هذا العلاج أو ذاك ، على ما هى عليه الحال فى المصطلح الطبى . ولعل هذا ما يجب أن تكون عليه الحال ؛ لكن العلاج النفسى لم يصل بعد إلى هذه الدرجة من اليقين . ولذلك كانت «شواخصنا» ، لسوء الحظ ليست أكثر من تحذيرات من الوقوع فى الأحادية sidedness-one .

النفس الإنسانية من أغمض الأشياء وأبعثها على اللّبس . ولذلك كان علينا أن ننظر فى كل حالة على حدة إن كان الموقف موجودًا من تلقاء ذاته أم تعويضًا عن حالة مضادة . يجب على أن أعترف أنى كثيرًا ما أخطأت فى هذه المسألة ؛ حيال كل قضية محسوسة ، أبذل جهدًا مضنيًا لكى أتجنب جميع سوابق الفرضيات النظرية المتعلقة بتكوين العصاب وبما يستطيع أن يفعله المريض أو ما يجب علىّ أن أفعله وبقدر ما أستطيع ، أترك للخبرة الصرفة أن تقرر أهداف العلاج . ولعل هذا يبدو أمرًا غريبًا، لأن العادة جرت على أن للطبيب هدفًا يسعى إلى تحقيقه . ولكن الأمر يختلف فى العلاج النفسى حيث يحسن بالطبيب ألا يبالغ فى تحديد أهدافه . إذ لا يستطيع أن يعلم بالمطلوب خيرًا من الطبيعة ومن إرادة الحياة لدى المريض . الأصل أن يكون للقرارات العظمى فى الحياة البشرية علاقة بالغرائز والعوامل الخافيّة الغامضة أكثر من علاقتها بالإرادة الواعية والمعقولية المريرة ، بكثير . الحذاء الذى يناسب شخصًا قد يؤلم غيره ؛ وما ثمة من وصفة حياة تناسب جميع الحالات . كل منا

يحمل من الحياة شكلاً خاصًا به ، شكلاً غير معين لا يمكن استبدال شكل آخر به .

طبعًا ، لا تمنعنا كل هذه الاعتبارات من بذل كل ما فى وسعنا لكى نجعل حياة المريض سويةً ومعقولة . فإن أثمر الجهد المبذول أثرًا يبعث على الرضا ، أمكننا عندئذ أن نتركه يمضى نحو ذلك الأثر ؛ أما إن اتضح لنا أنه غير كاف ، فعندئذٍ يتعين على الطبيب - لحسن الحظ ولسوئه - أن يسترشد بالمعطيات التى تنبعث من خافية المريض ، والاتجاه الذى يجب على الطبيب أن يتخذه عندئذ أن تصبح مسألة العلاج أقل شأنًا من تنمية الإمكانيات الخلاّقة الكامنة فى المريض نفسه .

إن ما أردت قوله يبدأ عند النقطة التى تتوقف عندها المعالجة وندخل بعدها فى مرحلة النموّ . وتقتصر مساهمتى فى العلاج على الحالات التى تجدى معها المعالجة المبنيّة على العقل . فالمادة السريرية التى بحوزتى ذات طبيعة خاصة : لا جدال فى أن الحالات الجديدة تدخل فى زمرة الأقلية . لقد سبق لمعظم المرضى الذين عالجتهم أن مرّوا بنوع من العلاج النفسى نجمت عنه اثار جزئية أو سلبية . حوالى ثلث الحالات التى تصديت لمعالجتها كانت تعانى من عصاب غير قابل التحديد سريريًا ، كانت معاناتها من عبث الحياة وقلة جدواها . وكان ثلثا مرضاى ممن تجاوزوا جميعًا منتصف العمر .

من الصعب معالجة مرضى من هذا النوع المخصوص اعتمادًا على

الطرق المبنيّة على العقل ؛ لأن معظمهم كانوا ممن تكيفوا اجتماعيًا ويتمتعون بقدرات جيدة ؛ ولذلك ما كانت لتعنى لهم الحياة السويّة شيئًا. أما من يُسمّون بالأسوياء فأنا فى نظرهم فى وضع بالغ السوء ، لأن ليس عندى فلسفة حياة جاهزة أناولهم إياها . فى أكثر الحالات التى عُرضت علىّ كانت موارد الحياة نافدة عند أصحابها ، وكان التعبير المعتاد عن هذا الوضع هو «الاستعصاء» Iam stuck ! هذه الحقيقة هى التى حملتنى على البحث عن الإمكانيات الخبيئة ، لأنى ما كنت أعلم ماذا أقول للمريض عندما كان يسألنى : «بم تنصحنى ؟ ماذا يجب علىّ أن أعمل ؟» ، إذ ما كان المسؤول بأعلم من السائل . لكن كنت أعلم شيئًا واحدًا فقط : عندما كنت لا أجد ، من وجهة نظرتى الواعية ، طريقًا يمكننى المضى فيه قُدُمًا ؛ أى عندما كنت أجد نفسى فى حالة «استعصاء» كنت أعلم ان الرجع (= رد الفعل) على حالة الجمود التى لا تُطاق سوف يأتى من قبل الخافية .

هذا الجمود ، أو هذا السكون ، حادث نفسى تكرر كثيراً فى مسيرة تطور النوع البشرى ، حتى لقد غدا الموضوع الرئيسى فى كثير من الأساطير وقصص الحور fairy tales فقد رُويت لنا حكايات عن «افتح يا سمسم !» وعن الحيوان الذى يمدّ لنا العون لكى يدلنا على سرداب سرى نخرج منه . ولعل من حقنا أن نصوغ الموضوع على هذا النحو : «الاستعصاء» حادث نموذجى يستثير فينا ، على مر الزمن ، رجوعات (=

رد فعل) نموذجية وأعـواضًا . ولذلك يحق لنا أن نتوقع ، على درجة من اليقين ، احتمال ظهور شيء مماثل في رجوعيات الخافية ، مثلما هو الحال في الأحلام مثلاً .

لذلك كان انـتباهي ، في مـثل هذه الحالات ، يتـجه نحـو الأحلام خاصة أكثر من كل شيء آخر ، لا لأني مقيد بمفهوم عن الأحلام يوجب على استدعـاءها للنجدة ، أو لأن عندي نظرية خفيـة في الأحلام تعلمني كيف يتشكل كل شيء ، بل كنت استدعـيها لأني في حيرة من أمري . فأنا لا أعلم مكانًا آخر أقصده لأستمد منه العون ، ولذلك أحاول جهدي أن أجده في الأحلام ، فـهي - على الأقل - تمدّنا بصورة تدل على شيء أو آخر ؛ وهذا أفضل مـن لا شيء على كل حال . ليس لديّ نظرية في الأحلام ، ولا أعلم كيف تنشأ ، وأنا في شك إن كانت تستحق طريقتي في تناول الأحلام أن يطلق عليها اسم «منهج» .

وأنا هنا أشارك قرّائي في سوابق حكمـهم على تفسير الأحلام بما هو أصل في الغموض وأصل في التحكم . لـكني أعلم ، من ناحية ثانية ، أننا لو تدبرنا الحلم زمنًا كـافيًا ، وتأملنا فيـه تأملاً شافـيًا ، وقلبناه على جميع وجوهه ، لكان يجيئنا دائمًا منه شيء . طبعًا ، هذا «الشيء» ليس من النوع الذي يحق لنا أن نتبجّح بطبيعته العلمية ، أو أن نصوغه صياغة عقلية ، بل هو دلالة عملية وهامة لأنهـا تظهرنا على الوجهة التي تتخذها خافية المريض وتسير به إليها . ولعلني لا أعطي مثل هذه الأهمية - وهي

أهميــة من الدرجة الأولى - إلى مسألة درس الأحــلام ، لو كانت تعطينا نتيجة متحققة علميًا ؛ إنى لو فعلت ذلك ، إذن لكنت أسعى وراء هدف شخــصى حصــرًا ، هدف يعبــر عن «عشق الذات» بالتــالى . إنما أرضى بالنتيجة التى أحصل عليها من تفســير الأحلام حينما تعنى للمريض شيئًا وتطلق له عنان الحياة ثانية . ولعلىّ أبيح لنفسى اعتــماد معيار وحيد على صحة تفسيرى للحلم أن يعود بالفائدة على المريض . أما هوايتى العلمية، وشهــوتى إلى معرفــة لماذا عاد الحلم بالفائدة ، فــهذا أحتــفظ به لأوقات الفراغ .

تخــتلف محــتويات الأحــلام الأولى اخــتلافًا لا حــدود له ، وأعنى الأحلام الأولــى ما يرويه المريض منهــا عند بدء المعالجــة . ففــى حالات كثــيرة نجــدها تشيــر إلى الماضى مبــاشرة وتأتى إلى العــقل بما هو منسّى وضائع على الشــخصية . وإنما تأتى الأحــادية من هذه المفقودات فتــسبب الجــمود ومــا ينشــأ عنه من ضلال . فى الاصطلاح الــسيكولوجى ، قــد تفضى الأحــادية إلى فقدان مفاجــئ للطاقة النفسيــة (= ليبيدو) ، فــتغدو جمــيع فاعلياتنا الســابقة لا أهميــة لها ولا معنى ، وتفــقد الأهداف التى نسعى إليــها كل قيمــتها . فمــا هو عند بعضهم لا يعدو مــزاجًا عابرًا ، يصبح عند بعضــهم الآخر حالة مزمنة . وفى هذه الحالات كثــيرًا ما تقبع إمكانيات أخــرى لنمو الشخــصية فى مكان أو آخــر من الماضى لا يعرف أحد عنهــا شيئًا حــتى ولا المريض نفسه . لكن ربما كــشف الحلم لنا عن

مفـتاح الحل . وفى حـالة أخرى قـد يدلنا على وقائع راهنـة ، كالزواج والمركز الاجتماعى مثلاً ، مـا كان المريض ليسلّم بأنها الأصل فى مشاكله ومنازعاته .

وتقع هذه الإمكانيات فى متناول التفسير العقلى ، لأن تفسير الأحلام الأولية ليس بالأمر الصـعب . إنما تبدأ الصعوبة الحقيقـية عندما لا تدلنا الأحلام على شىء محسوس ، كما هى عليه الحال غالبًا - خصوصًا عندما تبدى الأحلام نوعًا من اسـتشراف المستقـبل . لا أريد القول إن مثل هذه الأحلام تنطـوى على نبوءات اضطرارًا ، وإنما هى من قـبل الاستـباق أو «الاسـتطلاع» . فهى تنطوى على تـلميـحات عن الإمكانيـات ، ولذلك يتعـذر توضيـحها لـشخص غريب عنهـا . وفى أحيـان كثـيرة لا تكون واضحـة حتى بالنسبـة إلىّ ، عندئذٍ أقول للمـريض : «لا أصدق ، تابع مفـتاح الحل» . وكـما قلت ، إن الأثر هو المعـيار الوحيـد ، وليس من الضرورى أن نفهم لماذا يحدث مثل هذه الأثر . وهذا يصدق بخاصة على الأحلام التى تنطوى على صور ميثولوجية فتكون غريبة ومربكة أحيانًا إلى حد لا يـصدق . إذ تنطوى على شىء أشـبه مـا يكون بـ «ميـتافـيزيـقا الخافية»، وهى تعبيرات عن فاعلية نفسـية غير متمايزة قد تنطوى فى كثير من الأحيان على فكرة الخافية[1] .

---

(١) رؤيا الكهف عند أفلاطون اسـتباق لمشكلة المعرفـة التى شغلت الفلاسفـة قرونًا بعدها والأحلام والتخيلات تبين أحيانًا عن رؤيا فلسفـية داخلية يمكن مقارنتها بهذه الرؤية - المترجم الإنجليزى - .

فى حلم أولى لأحد مرضاى «الأسوياء» يلعب مرض ابنة أخته دورًا كبيرًا . كانت ابنة الأخت فى الثانية من عمرها . وفى وقت مضى ، كانت هذه الأخت فقدت صبيًا بمرض أصابه . ومن ناحية ثانية ، لم يكن أحد من أبنائها مريضًا . فى بادىء الأمر كانت صورة الطفلة المريضة فى الحلم باعثًا على حيرته الشديدة ، ولا شك لأنها لم تكن متناسبة مع الوقائع . ولما كان ليس بين صاحب الحلم وأخته صلة مباشرة وثيقة ، لم يستطع أن يجد فى هذه الصورة ما يعنيه شخصيًا . ثم خطر له فجأة أنه قبل سنتين عكف على دراسة «العلوم الخفية» occultism وأن هذه العلوم هى التى قادته إلى علم النفس . وكان من الواضح أن ابنة الأخت كانت موضع اهتمامه من بين أشياء النفس - وهى فكرة ما كانت لتخطر لى على بال . بمحض إرادتى . هذه الصورة الحلمية إذا رأيناها من الجانب النظرى فقد تعنى لنا كل شىء كما يمكن ألا تعنى لنا شيئًا على الإطلاق . ولذلك نتساءل إن كانت واقعة ما تعنى لنا شيئًا بحد ذاتها أو من تلقاء ذاتها . الشىء الذى نحن واثقون منه تمامًا أن الإنسان وحده هو الذى يفسّر الوقائع أو يهبها المعنى . لقد لفت انتباه صاحب الحلم أن يكون لدراسة «العلوم الخفية» جانب مرضى ، بما هى فكرة جديدة وباعثة على الاهتمام . أصابت هذه الفكرة الغرض ، وكانت هذه هى النقطة الحاسمة : التفسير يعطى ثماره على الرغم من طريقتنا فى تفسير الكيفية التى يعطى بها هذه الثمار . فقد كانت هذه الفكرة تنطوى على نقد

بالنسبة لصاحب الحلم ، وقد حدث بها قدر من تغيير الموقف . إذ بواسطة هذه التغييرات الطفيفة التى لا يسع المرء أن يفكر بها تفكيراً عقليًا، تبدأ الأشياء بالحركة ونبدأ بالتغلب على النقطة الميتة .

تعقيبًا على هذا المثال ، لعلنى أستطيع القول فى هيئة خطاب إن الحلم كان يريد أن يقول إن درس «العلوم الخفية» ، الذى شغل صاحب الحلم فى وقت ما ، به جانب مَرَضى . وبهذا المعنى ، يحق لنا أيضًا أن نتكلم عن «ميتافيزيقا» الخافية إذا قُدّر لصاحب الحلم أن يصل بواسطة حلمه إلى هذه الفكرة عينها . لكننى ما أزال أذهب إلى أبعد من ذلك ؛ فأنا لا أهيىء للمريض فرصة لكي يرى ما يحدث له فيما يتصل بحلمه وحسب ، وإنما أبيح لنفسى أن أفعل الشىء نفسه أيضًا ؛ أبيّن له الجدوى من تخميناتى وآرائى . وأنا ، بعملى هذا ، لو فتحت الباب أمام ما يسمى بـ «الإيحاء» ، لم أر فى هذا ما يستوجب الأسف ؛ لأننا - كما هو معلوم - لا نتقبل من الإيحاء إلا ما نوافق عليه سراً . لا ضير أن نضل، حينًا بعد آخر ، فى قراءة هذا اللغز ؛ لأن النفس لابد لها أن تنبذ هذا الضلال عاجلاً أم آجلاً ، تمامًا مثلما ينبذ جهاز عضوى جسمًا غريبًا . لست مضطراً إلى إثبات صحة تفسيرى للأحلام - وهذه مهمة حرىّ أن تكون ميؤوسًا منها - ، بل يجب على أن أعين المريض على إيجاد ما يجعله يفعل ؛ وهنا أكاد أكشف عن خبية نفسى بالقول : أن أعينه على إيجاد ما هو «فعلى» .

أولى أهميـة خاصـة أن أعرف أكثـر ما أسـتطيع عن السيكولوجـيا البدائية وعلم الأساطير وعلم الآثار وعلم مقارنة الأديان ، بما تمدّني به هذه العلوم من مشابهات بالغة القيـمة أتمكن بواسطتها من إغناء ما يصدر عن مرضاى من تداعيات . فإذا علمنا بهذه الأشياء مجتمعة ، أمكننا عندئذ أن نجد المعنى التام الذى يبدو وكأن لا صلة له بالموضوع ، وزدنا من مفعولية الحلم زيادة كبيرة . وبذلك يصبح الدخول إلى ميـدان الخبرة المباشرة خير حافـز لمن بذلوا كل ما فى وسعـهم فى الميادين الشخـصية والعـقلية من الحياة، وظلوا - رغم ذلك - لا يجدون فيـها معنى ولا باعثًا على رضا . وبذلك أيضًا يرتدى الواقـعى والشـائع زيّاً جديدًا ، ولعلـه يكتسب فـتنة جديدة . لأن الأمر كله يـتوقف على كيفيّة نظرتنـا إلى الأشياء ، لا على كيـفية مـا هى عليه بحد ذاتهـا . فى الحيـاة ، الأشياء الأقل ولهـا معنى تساوى أكثر من الأشياء الأكبر وليس لها معنى .

لا أظن أنى أنتقص من شأن الخطر الذى تنطوى علـيه هذه المهمة ، فهى أشبه بمن راح يبنى جسرًا فى فراغ . وفى الحق ، لعل امرءًا يزعم - وقـد حدث هذا كـثيـرًا - أننا إذ نتّبع هذا الإجـراء فـإنما نغرق الطبـيب والمريض كليهما فى عالم الأوهام والتخيلات . أنا لا أعدّ هذا اعتراضًا ، بل هو عين الصواب . فـأنا أبذل كل ما فى وسعـى لكى أحمل المريض على أن يطلق لخيـالاته العنان . إن شئتم الحق ، فإن لى رأيًا عـاليًا جدًا فى التخـيلات والأوهام ، وهى عندى الجانب الأنثـوى الخلاق من الروح

المذكر ، إننا ، عندما نقول كل شيء ، ونفعل كل شيء ، لا نكون أبدًا فى حصن منيع يصدّعنا الخيال . صحيح ، ثمة خيالات لا قيمة لها ، خيالات غير مكافئة وغير صحية ، يستطيع كل ذى حس سليم أن يكشف عن طبيعتها العميقة فورًا ؛ لكن هذا ، طبعًا ، ليس دليلاً يُساق لنفى قيمة الخيال الإبداعية . كل أعمال الإنسان فإنما تستمد أصولها من خياله المبدع . إذن ، هل من صواب الرأى أن ننتقص من قيمة الخيال ؟ إذا جرت الأشياء فى مجراها المعتاد ،فليس من السهل أن يضل الخيال أو يخطىء ؛ لأنه أعمق من أن يفعل ذلك ، وأوثق صلةً بجذور الإنسانية والحيوانية . والفاعلية الخلاّقة التى يؤديها الخيال تحرر الإنسان من قيد «لا شىء إلاّ» ، وتطلق فيه روح العمل . يقول شيلر : «الإنسان لا يكون إنسانًا إلا عندما يعمل»* .

إن الهدف الذى أسعى إليه أن أصل بالمريض إلى حالة نفسية يبدأ فيها باختيار طبيعته الخاصة ؛ وهى حالة سيولة من تغيّر ونموّ ، ليس فيها شىء ثابت أبدًا ، ولا متحجر ولا رجاء فيه . ولكى أعرض تقانيّتى هنا، لابد لى من بيان مبادئها العامة : عندما أتناول حلمًا أو تخيلاً ، أذهب فيه إلى أبعد من المعنى الذى يؤثر فى المريض ، وأبذل كل ما فى وسعى لكى أجعله يفهم المعنى بقدر هذا الإمكان ، حتى يصبح هو أيضًا قادرًا

---

(١) جاءت كلمة play هنا لكى تعبر عن «العمل» ؛ ولعل المقصود توافق العمل مع الهواية (= اللعب) ، أى عندما يكون العمل «لعبًا» ، وبالتالى «إبداعًا» - المترجم - .

على تعرّف علاقاته فوق - الشخصية . إن هذا الأمر هام ، لأن الإنسان إذا حدث له ما يتصف بالعمومية وظنّه خبرةً تخصه وحده ، فعندئذٍ يخطيء فى موقفه خطأ فادحًا ، فيسرف فى الشخصية إسرافًا يجنح به إلى البعد عن المجتمع الإنسانى . نحن لسنا بحاجة إلى واعية شخصية عصرية وحسب ، وإنما إلى واعية شخصية يتوفر فيها حس باستمراريّة التاريخ . ومهما بدا هذا المطلب بعيد المنال ، فإن الخبرة تُظهرنا على كثير من حالات العصاب أصابت أصحابها لأن أعينهم كانت فى عمىً عن حوافزهم الدينية ، عمىً سببه هوى صبيانى بالتنوّر العقلى . يجب أن يعلم عالم النفس اليوم أننا لم نعد نتعامل مع المسائل المتعلقة بالدجماطيقا والعقائد . فالموقف الدينى عنصر من الحياة النفسية لا يصح التقليل من أهميته ، وحس الاستمرارية التاريخية أمر لا غنى عنه للنظرة الدينية .

عودًا إلى موضوع التِقانيّة التى اتّبعتها ، فإنى أسائل نفسى إلى أى مدى أنا مدين لـ «فرويد» . مهما يكن من أمر ، فقد تعلمت هذه التِقانيّة من منهج «فرويد» فى التداعى الحر ، وإنى لأعتبر تِقانيّتى إضافة جديدة على منهجه .

ما دمت أعين المريض على اكتشاف ما فى أحلامه من عناصر مؤثرة، وما دمت أحاول إظهاره على ما فى رموزه من معنى عام ، يظل المريض -مع ذلك- فى حالة طفولية . ويظل يعتمد على أحلامه ، ودائمًا يسائل نفسه إن كان الحلم الجديد خليقًا بأن يمدّه بنور جديد ثم يظل يعتمد على

ما أكوّنه من فِكَر عن أحلامه ، وعلى قدرتى على زيادة تبصيره من خلال معرفتى . وبذلك يظل فى حالة سلبية غير مرغوب فيها ؛ كل شىء فيها لا يبعث على اليقين ، ويقبل الأخذ والرد ؛ فلا أنا ، ولا هو ، نعرف إلى أين ينتهى بنا المطاف . وفى الغالب ، لا يعدو الوضع أن يكون أشبه بمن يتلمس طريقه فى ظلام دامس . وفى هذه الحالة ، ليس لنا أن نأمل بالحصول على نتائج ظاهرة جدًا ، لأن الشك أكبر والغموض أشد من أن يؤمّلانا بشىء . ثم إننا نخاطر بالوقوع فى محذور أن ينحلّ فى الليل ما نحيك خيوطه فى النهار . والخطر ألاّ يحدث شىء ، وألا يحافظ على شكله شىء . فى هذه الظروف ، ليس قليلاً أن يحدث أن يرى المريض أحلامًا ملوّنة أو غريبة فيقول : «هل تعلم . . . لو كنت رسامًا لصنعت منها لوحات . . .» ، أو يحدث أن تتناول أحلامه صورًا فوتوغرافية أو زيتية أو رسومات بالأسود والأبيض أو كتابات يدوية مزيّنة بصور أو أفلامًا فى بعض الأحيان .

نقلت هذه اللوامح إلى الميدان التطبيقى ، ورحت أشجع مرضاى فى مثل هذه الأحوال على رسم ما قد رأوه فى حلم أو تخيل . وكان الأصل أن ألاقى منهم اعتراضًا بالقول : «أنا لست رسامًا . .» ، فكنت أجيبهم إن الرسامين الحديثين ليسوا كذلك أيضًا ، لسبب بسيط هو أن الرسم الحديث لا يتقيد بقاعدة على الإطلاق ، وأن المسألة – على كل حال – ليست مسألة رسم لوحة جميلة ، بل هى أن يكلف نفسه عناء الرسم .

أما مقدار ما كان لطريقتى فى الرسم من علاقة بـ «الفن» فقد رأيته مؤخراً فى حالة رسامة صور آدمية موهوبة ؛ لقد كان عليها أن تعد الرسمة مرة ومرة ومرة ، وأن تبذل جهوداً طفولية يرثى لها - حرفيًا كما لو كانت ما أمسكت قط فرشاة بيدها . أن نرسم ما نراه أمامنا مسألة تختلف عن رسم ما نراه فى داخلنا .

وعندئذ بدأ كثير من مرضاى ممن قطعوا شوطًا بعيدًا على طريق الصحة - بدؤوا يرسمون . أستطيع أن أفهم جيدًا أن يُعدّ هذا نوعًا من الهواية البالغة العقم . غير أنى يجب علىّ أن أذكّر فى هذا المقام أننا لا نتكلم عن أناس لم يزل عليهم أن يبرهنوا على جدواهم الاجتماعية ، بل عمّن عثروا على معنى لحياتهم الفردية ، وهى المسألة الأعمق والأخطر . أن تكون ذرة فى كتلة أمر لا معنى له ولا جاذبية إلا عند من لم يصل بعد إلى هذه المرحلة ؛ أما من اختبر ذلك حتى الإشباع فلا معنى له عنده. قد ينكر أهمية الحياة الفردية «معلم» يعتز بتخريج أناس كالأرقام وسط الجماعة . لكن كل إنسان آخر سوف ينساق ، عاجلاً أو آجلاً ، إلى أن يجد هذا المعنى لنفسه .

رغم أن مرضاى كانوا ينتجون ، بين حين وآخر ، ابداعات جميلة فنيًا يمكن أن نعرضها عن جدارة فى معارض «الفن الحديث» ، إلا أننى كنت أعاملها على أساس ألاّ قيمة لها طبقًا لمعايير الفن الجاد . بل إنه من الأساسى ألا أمنحها مثل هذه القيمة ، وإلاّ توهّم مرضاى أنهم أصبحوا

فنانين ، لأن من شأن هـذا أن يفسد الآثار الطبـية التى أثمـرت عنها هذه الممارسة . فـالمسألة ليست مسـألة فن ، ولا يجب أن تكون كذلك ، بل هى أكثر من ذلك ، وأكـثر من مجرد فن : إنهـا الأثر الحى الذى يتركه فى نفس المريض . إن مـعنى الحـياة الفـردية ، التى لا أهمـية لهـا من المنطلق الاجـتماعى ، تُعـطى هنا أعلى قيـمة لها ، وفـى سبيلهـا يكافح المريض لكى يمنح ما لا يعبر عنه شكلاً ، مـهما كان مبلغ هذا الشكل من السذاجة والصبيانية .

لكن لماذا أشجع مرضاى فى مرحلة معـينة من النمو على التعبير عن أنفـسهم بواسطة الـفراشـة أو القلم أو الريشـة ؟ إن هدفى هنا هو نفس الهدف الذى أسعى إليـه فى تناولى للأحلام : أريد أن أحدث أثرًا . فى الحالة الصبيانية التى وصفتـها فيما تقدم ، يظل المريض سلبيًا ؛ لكنه فى هذه المرحلة يبدأ يلعب دورًا إيجابيًا . فى مبدأ الأمر ، يسجل على الورق ما يخـطر بباله ؛ وبذلك يُضـفى عليه صـفة الفـعل المقصود ؛ لـم يعد يتحـدث عنه وحسب ، وإنما بات «يفعل» شـيئًا يتعلق به . من الناحـية السيكولوجية ، أن يُجرى شخص مع طبيبه حوارًا هامًا مرتين فى الأسبوع شىء - وتكون آثار هذا الحوار معلقة فى الفـضاء - ، وأن يكافح ساعات فى وقت واحد بالريشة العصيّة والألوان لكى ينتج فى نهاية الأمر شيئًا لا قيمة له فى الظـاهر شىء آخر . فلو كان تخيله فى حقيـقة الأمر لا معنى عنده ، لكان الجهد الذى يبـذله فى الرسم حقيقًا بأن يبعثـه على الضجر

حتى ليمتنع عن بذله ثانية . لكن لمّا كان تخيله لايبدو له خاليًا من المعنى بالمرّة ، كان انشغـال نفسه به يزيد من تأثيره فـيه . يضاف إلى ذلك أن الجهد الذى يرمى إلى إعطاء التخيل شكلاً فنيًا يفرض علينا أن ندرسه فى كل أجزائه حتى ليمكننا إجراء الاختبار عليه بهذه الطريقة ، فدرس الرسم يمنح التخيل عنصراً من الواقع ، وبذلك يعيره وزنًا أثقل وقوة دافعة أكبر. ومن الناحية العـملية ، إن الصور الساذجـة تنتج آثاراً لابد لى من التسليم بأن وفى وصفهـا شيئًا من صعوبة . عندمـا يرى بصورة رمزية ، لابد له أن يعود إلى اصطناع هذه الوسـيلة كلما ساءت به الحال . بهـذه الطريقة نكسب شيئًا لا يُقدّر بثمن : زيادة فى الاعتماد على النفس ، وخطوة نحو النضج النفسى . وبهذه الطريقة أيضًا ، يسـتطيع المريض أن يستقل بنفسه استـقلالاً خلاقًا ، إن كان لى أن أعـبر كذلك ؛ فـلا يعود يعتـمد على أحلامه ولا على علوم طبـيبه ، بل يصبح قادراً على منح خـبرته الداخلية شكلاً عندما يقوم برسمها . فالتخيلات التى يرسمها تخيلات فاعلة ؛ هى ما يفعل فـيه ، وما يفعل فيه هو نفـسه ؛ لكن هذه النفس ليست النفس بالمعنى الذى فهـمه خطأ فى السابق عـندما ظن «النفس» أو «الذات» The self أنيّته الشخصية Personal Ego ؛ هى نفـسه بمعنى جـديد ، لأن أنيّته أضحت الآن موضوعًا تفعل فـيه قوى الحياة من الداخل . إنه يسعى الآن إلى أن يمثل مـا يعمل فى داخله بـأوسع ما يمكنه من التـفصـيل فى سلسلة صوره ورسـومه ، لا لشىء إلا ليشكف فى نهاية المطـاف عما هو مجهول وغريب : الأسس الخبيئة من الحياة النفسية .

ولعلنى لا أستطيع تبيان مدى ما يحـدثه هذا الاكتشاف من تغير فى منطلقات المريض وفى قيـمه ، وكيف ينقل مركز الجذب فى شخـصيته . إن الأمر أشبه بما لو كانت الأنيـة هى الأرض ثم تبين له فجأة أن الشمس (النفس أو الذات The self) هى المركز الذى تدور حوله السـيارات ومنها الأرض . لكن أمـاكنا دائمًا نعـلم أن الوضع فى مـجـمله كـان على هذا النحو؟ أنا نفسى أعتقـد أننا كنا دائمًا نعلم ذلك . لكننى قد أعرف شيئًا بعقلى لا يعرفه الإنسان الآخر الذى فى داخلى ، ولعلنى أقضى شطرًا من عمـرى كما لو كنت لا أعـرفه . كـان أكثر مـرضاى يعرفـون الحقيـقة العميقة، لكنهم لم يعيشوها .

لكن ، لماذا لم يعـيشوها ؟ بسـبب الانحراف الذى يجـعلنا جمـيعًا نضع الآنية فى مـركز حـياتنا ، وإنما يأتى هذا الانحـراف من المغالاة فى تقدير قيمة الواعية .

وإنه لمن الأهمية بمكان أن يتولى من هو فى سن الشباب ، ولم يزل غير مـتكيف اجتمـاعيًا ، ولم يحقق بعد شـيئًا - أن يتولى صوغ أنيـته الواعيـة بأقصى فـاعلية ممكنة ، أى أن يتـولى ترويض إراداته . ولعله لا يؤمن بشىء فاعل فى داخل نفسه لا يتفق مع إرادته - اللهم إلا أن يكون عبقـريًا إيجابيًا . ولابد له أن يشعـر بأنه رجل إرادة ، ولعله ينتقص من قيمة كل شىء فى داخله، أو يحسبه خاضعًا لإرادته ، وهو آمن مطمئن ، لأنه بدون أن يتوهم ذلك لا يكون فى مقدوره أن يتكيف اجتماعيًا .

لكن الأمر يختلف عند المريض الذى بلغ منتصف العمر ، ولم يعد بحاجة إلى ترويض إرادته الواعية ، وبات عليه لكى يفهم معنى حياته الفردية أن يتعلم كيف يختبر كينونته الداخلية . فلا يعود مبدأ الإفادة من الجماعة هدفًا يسعى إليه ، رغم أنه لا يجعل من كونه أمرًا مرغوبًا فيه موضوعًا قابلاً للبحث . ورغم أنه على معرفة تامة بضآلة شأن فاعليته الخلاقة فى نظر المجتمع ، يظل يعتبرها طريقًا يحقق به نموه الشخصى ، وبذلك يعود بالنفع على نفسه . كذلك تحرره هذه الفاعلية تدريجيًا من الاتكال على غيره ، وبذلك يكتسب ثباتًا داخليًا وثقة جديدة بنفسه . وهذان الإنجازان الأخيران يفيدان المريض بدورهما فى تنمية كينونته الاجتماعية . لأن من كان سليمًا فى داخله واثقًا من نفسه كان أقدر على القيام بالمهام الاجتماعية ممن لهم يصطلح مع خافيته (لا شعوره) .

لقد تعمدت أن أتجنب دعم هذه المقالة بالنظريات ، وبدونها تظل أشياء كثيرة غامضة وغير مفهومة . لكننا إذا أردنا أن نفهم الصور التى ينتجها المرضى ، فلابد لنا من الإتيان على ذكر نقاط نظرية معينة على الأقل . إن لهذه الصور جميعًا سمات مشتركة فيما بينها هى الرمزية البدئية ، وتتوضح هذه السمات فى الرسم كما تتوضح فى التلوين . والألوان ، عادةً ، وحشية وصارخة ، تتمثل فيها على الأغلب صفة ترجع إلى الإنسان القديم ، وتدلنا هذه الخصائص على القوى الخلاقة التى أنتجت هذه الصور . فى تطور الإنسان تيارات رمزية غير عقلانية بلغت

من قدمها مبلغًا ييسر علينا إجراء مقارنات بينها وبين مظاهر تماثلها مما نجده فى حقلى علم الآثار وعلم مقارنة الأديان . ولذلك يحق لنا أن نذهب إلى أن هذه الصور قد نشأت بصفة رئيسية فى ذلك الحيز من الحياة النفسية الذى أسميته «الخافية العامة» أو «الخافية الجامعة» collective unconscious ، وأريد بهذا الاصطلاح مثول فعالية نفسية فى جميع الكائنات البشرية ليست السبب فى نشوء صورة رمزية فى الوقت الحاضر وحسب ، وإنما كانت هى المصدر لجميع النواتج التى تماثلها فى الماضى . وإن هذه الصور تنبع من حاجة وتقوم بتلبيتها فى نفس الوقت .

وإن الأمر ليبدو كما لو كنا نعطى بواسطة هذه الصور التعبير عن ذلك الجزء من النفس الذى يرقى إلى الماضى البدائى ونعقد المصالحة بينه وبين واعيتنا المعاصرة ، وبذلك نخفف من آثارها المزعجة على هذه الأخيرة .

يجب أن أضيف أن مجرد تنفيذ هذه الصور ليس هو كل المطلوب ، بل من الضرورى أن يستتبع ذلك فهم عقلى وعاطفى لها . يجب أن نجعلها ماثلة فى واعيتنا ، وأن نفهمها ونتمثلها تمثلاً سويًا ، كما يجب أن نخضعها إلى سياق تفسيرى ، لكن ، رغم أننى كثيرًا ما سلكت هذا الطريق مع المرضى من الأفراد ، لم أفلح حتى الآن فى توضيح هذا السياق على دائرة أوسع أو فى صوغه صياغة صالحة للنشر . وما قد تم منه حتى الآن لا يعدو شذرات .

والحق إننا هنا نقف على أرض جديدة كل الجدة ، وإن نضج الخبرة هو أول مطالبنا أفضل تجنب الاستنتاجات التى نتوصل إليها على عجل . فنحن نتعامل مع إقليم من الحياة النفسية يقع خارج نطاق الواعية ، وطريقتنا فى ملاحظته طريقة غير مباشرة ، ولا نعرف حتى الآن ما هى الأعماق التى نريد سبرها . ويبدو لى -كما أشرت إلى ذلك فيما تقدم- أن المسألة نوع من السياق المركزى ، لأن كثيراً من الصور التى يشعر المريض أنها صور حاسمة تدلنا على هذه الوجهة . إن هذا السياق ينشىء مركزًا جديدًا للتوازن ، ويبدو كأن الأنية تتخذ من حوله مدارًا تدور عليه. ولعل هدف هذا السياق يبقى غامضًا فى الدرجة الأولى . وكل ما نستطيع فعله أن نبرز أثره الخطير على الشخصية الواعية . ويجب أن نستنتج من حصول التغيير الذى يعلى من شأن الشعور بالحياة ويستديم دفقها أنه ينطوى على غائية خاصة . ولعلنا أن نسمى هذا وهمًا جديدًا ، ولكن ، ما الوهم ؟ بأى معيار نحكم على شىء أنه وهم ؟ بالنسبة إلى النفس ، هل يوجد شىء يمكن أن نسميه «وهمًا» ؟ إن ما يحلو لنا أن نسميه كذلك ربما يكون - بالنسبة إلى النفس - عاملاً كبيراً من عوامل الحياة ، شيئًا لا غنى لها عنه كما لا غنى للعضويات عن الأوكسجين ، حقيقة نفسية فى الدرجة الأولى من الأهمية . ولعل «النفس» لا تكلف نفسها عناء الاهتمام بما لدينا من مقولات عن الحقيقة ، ولذلك قد يكون من خير الحكمة أن نقول : كل ما «يفعل» فهو «فعلىّ» .

من يسبــر أغوار النفس ، يجب ألا تخـتلط عليه الواعـية بالنفس ، وإلا حجب ناظريه عن الموضوع الذى يريد التـنقيب عنه ، بل يجب عليه لكى يعـرف النفس أن يتعلـم كيف تخـتلف هذه عن الواعيـة . لأن من المحتمل جداً أن ما نسميه وهمًا أن يكون واقعًا بالنسبة إلى النفس ، ولهذا لا يسعنا اعتبار الواقعية النفسية مساوية للواقعية الواعية . لا شىء فى نظر عالم النفس ، أغبى من الموقع الذى يحتلّه مـبشر يحكم على آلهة «الكفار المساكين» بأنها آلهة وهمية . لكننا - لسوء الحظ - مازلنا نرتكب الأخطاء الفادحة على نفس النحو الدجـماطيقى ، كما لو أن ما نسميـه واقعيًا غير حافل بالأوهام أيضًا . فى الحيـاة النفسية ، كما هو الحـال فى كل مجال تطوله خبـرتنا ، كل ما «يفعل» فهـو فعلى ، بغضّ النظر عن التسـميات التى يحلو للإنسان أن يسـميهـا بها . إن ما يهمنا اتصـاف هذه الحوادث بالواقعـية ، لا مـحاولة إعطائها اسـمًا بدلاً من آخر . ومن وجـهة نظر النفس، لا تكون الروح غير روح حتى ولو أسميناها جنسًا .

أعيد أن الاصطلاحات الفنية المختلفـة وما يطرأ عليها من تغييرات لا تمسّ جوهر السياق الذى تقدم وصـفه أبدًا . وهو السياق الذى لا تحيط به مفـاهيم الواعية العـقلية بأكثـر مما تستطيع الإحاطة بالحـياة نفسـها ولعل مرضاى كانوا يتجهون إلى التعبير الرمزى شعورًا منهم بقوة هذه الحقيقة. لعلهم كانوا يجدون فى رسم هذه الرموز وتفسيرها شيئًا أكثر فاعلية وأكثر تلبية لحاجاتهم مما تتيحه لهم التفسيرات العقلية من فاعلية وتلبية حاجة .

الفصل الرابع

النظرية النفسية فى النماذج

الشخصية هى ما يكون عليه الكائن البشرى من شكل فردى ثابت . ولما كان للإنسان شكل جسمـانى وطريقة فى السلوك أو العقل ، كان من مقتضيـات علم الشخصية أن يعلمنا كلاً من السمات الفـيزيائية والسمات النفسية على حد سواء . فعلى وحدة الكائن الحى وما يكتنفها من غموض تترتب نتيـجة لازمة مفـادها أن السمات الجسمـانية ليست مجـرد سمات فيزيـائية ، والسمات العـقلية ليست مجـرد سمات نفسـية . فاستـمرارية الطبيـعة لا تعرف شيـئًا عن هذه التميـيزات المتناقضـة التى يضطر العقل البشرى إلى إقامتها لكى يستعين بها على الفهم .

التمييز بين العقل والجسم تمييـز مصطنع ، وهو يقوم على خصوصية الفهم العقلى أكثر مما يقوم على طبيـعة الأشياء بكثير . والحق أن التمازج بين السمات الجسمانية والسمات النفسية بلغ من العمق حدًا لا نستطيع معه أن نستـخلص نتائج بالغـة الأهمية فـيما يتـعلق بتكون النفس من تكوين

الجسم وحسب ، وإنما نستطيع أيضًا أن نستخلص الحقائق الجسمانية من الخصائص النفسية المطابقة لها . صحيح أن السياق الأخير أكثر صعوبة من الأول لكن ليس هذا لأن للجسم تأثيراً فى العقل أكبر من تأثير العقل فى الجسم ، وإنما بسبب مختلف تمامًا . فإذا نحن انطلقنا من العقل انتقلنا من المجهول نسبيًا إلى المعلوم ، لكننا فى الحالة المضادة نتمتع بميزة الانطلاق من شىء معلوم ، أى من الجسم المرئى . رغم كل ما نحسب أننا قد حزنا عليه اليوم من علم بالنفس ، مازالت النفس أغمض علينا بما لا يحد من سطح الجسم المرئى . . .

النفس بلاد غريبة تكاد أن تكون غير مكتشفة ، وما نعرفه عنها لا يعدو أن يكون معرفة غير مباشرة ، إذ نتوسل إلى معرفتها بواسطة الوظائف الواعية (الشعورية) التى تخضع إلى ما لا يكاد له عدّ من إمكانيات الخداع .

أما وأن الأمر على ما ذكرنا ، فلعل من الأسلم لنا أن ننطلق من العالم الخارجى إلى العالم الداخلى ، ومن المعلوم إلى المجهول ، ومن الجسم إلى العقل ، ولذلك بدأت جميع محاولات علم الشخصية انطلاقًا من العالم الخارجى . وفى الأزمنة القديمة ، اتجه علم التنجيم حتى إلى الفراغ الفلكى لكى يعيّن خطوطًا لها بدايات مبطونة فى الإنسان نفسه ، ويندرج فى هذا الصنف أيضًا علم الكف الذى يعتمد على تفسير العلامات الخارجية ، وكذلك علم أشكال الجمجمة وقسمات الوجه ودراسة الخط فى

عصرنا الحاضر ، وكذلك دراسة علم النماذج الفيزيولوجية التى قام بها «كرتشمر» والمنهج الكلكسوغرافى الذى طلع به «روشارخ» . وهكذا يمكننا أن نرى أن هناك عدداً من الطرق أو المناهج التى تذهب من الخارج إلى الداخل ، أو من الفيزيائى إلى النفسى . وإنه لمن الضرورى أن يسير البحث فى هذا الاتجاه إلى أن نصل إلى يقين تام من بعض الوقائع النفسية الأولية ، حتى إذا رسخت هذه الوقائع وتوطدت ، فعندئذ يصير بوسعنا أن نعكس الاتجاه . وعندئذٍ أيضًا يمكننا أن نطرح هذا السؤال : ما هى العلاقة الجسمانية التى تتناسب مع شرط نفسى معين ؟ لسوء الحظ لم نقطع شوطًا بعيداً فى الجواب عن هذه المسألة ، ولو جوابًا غير دقيق . لأن المطلب الأول الذى يقوم على تأصيل الوقائع الأولية المتعلقة بالحياة النفسية لم يتم تحقيقه حتى الآن . والحق إننا لم نبدأ إلا حديثًا بتجميع مفردات القائمة النفسية ، وما كان التوفيق حليف نتائجنا دائمًا .

إن مجرد تأصيل واقعة تفيد بأن لأناس معينين هذا المظهر أو ذاك لهو أمر لا أهمية له بحد ذاته إن لم يتح لنا الاستدلال على ما يناسبه من النفس . ولا نكون قد تعلمنا شيئًا إلا عندما نستطيع تعيين الصفات العقلية التى تصاحب تكوينًا جسميًا معينًا . فالجسم بلا نفس لا يعنى لنا إلا القليل ، وكذلك النفس بلا جسم ، وعندما نحاول أن نستخلص تلازمًا نفسيًا مع صفة جسمانية ، فإنما ننطلق - كما قد بينا - من المعلوم إلى المجهول .

لســوء الحظ ، لابد لى أن أشدد على هذه الـنقطة ، لأن علم النفس هو أحدث علومنا كلها ، ولذلك كــان أكثرها تأثرًا بسوابق الرأى ، وإن اكتـشافنا لعــلم النفس مؤخـرًا ليظهر لنا بجــلاء أنه اقتــضى منا كل هذا الوقت حتى استطعنا أن نقـيم تمييزًا بينًا بين أنفسنا ومحتــويات عقولنا . وقبل أن يتم لنا ذلك ، كــان من المستحــيل علينا أن ندرس النفس دراسة موضوعية . إن علم النفس ، بما هو علم طبيعى ، لهو بالفعل أحدث ما حـصلنا عليه من مـكتسـبات ، ولقـد كان يتـصف حـتى الآن بالتخـيل والاعتباط مثلما كان يتصف به العلم الطبيعى فى العصور الوسطى . حتى الآن ، ثمــة من يعـتقـد أن بوسع علم النفس الاســتـغناء عن المعطيـات التجـريبية وأنه يمكن خلقــه بمرسوم أو قرار ، وهــذا سابق حكم لم نزل نعمل تحت تأثيره . ومع ذلك فحوادث الحياة النفسية ذات صلة مباشرة بنا أكثر من كل الأشيــاء ، وهى أكثر الأشياء التى نعرفــها بحسب الظاهر . والحق إننا نجد البحث فى النفس أمرًا يبــعث على الضجر والسأم ، لأنها أكثــر من مألوفــة لدينا . وإننا لنســتغــرب ابتذال هذه الأشــياء الشــائعة المستــديمة، وباختصــار نحن واقعون تحت تأثــير صلتهــا المباشرة بحــياتنا النفسية ، ونعــمل كل ما فى وسعنا لكى نتجنب التفكيــر فيها . وبما أن النفس هى «المباشرة» عينها ، وبما أننا نحن أنفسنا «النفس» ، نكاد نحمل حملاً على الافــتراض بأننا نعرفهــا من أقصاها إلى أقصــاها على نحو لا مجال للبحث فيه ، وهذا ما يجعل لكل منا رأيه الخاص فى علم النفس ، بل حتى ليقتنع بأنه يعرف عن هذا العلم أكثر مما يعرفه أى شخص آخر.

ربما كان أطباء الأمراض العقلية أول فريق محترف كان له فضل الكشف عن سابق الحكم الأعمى الذى يحدو كل إنسان على اعتبار نفسه خير مرجع فى الأمور النفسية ، لقد أتاح لهم ذلك اضطرارهم إلى مكافحة عائلات مرضاهم ، ومن يقومون على حراستهم ممن يستمدون معلوماتهم من «الأمثال السائرة» . لكن هذا لا يمنع طبيب الأمراض العقلية من أن يصبح «بتاع كُلُّه . .» لقد ذهب أحدهم إلى حد القول : «ليس فى هذه المدينة إلا اثنان أسوياء - ثانيهما ، البروفسور . ب.» .

وبما أن حالة علم النفس اليوم على ما هى عليه ، لابد لنا من التسليم بأن الأقرب إلينا هو نفس الشىء الذى نعرف عنه الأقل ، رغم ما يبدو لنا أن معرفتنا عنه هى أفضل مما نعرفه عن أى شىء آخر . كذلك لابد لنا من التسليم بأن كل أحد غيرنا قد يفهمنا خيراً مما نفهم أنفسنا . وربما كانت نقطة الانطلاق هذه خير معين لنا على البحث . وكما قلت لتوى ، لقد كان تأخرنا فى اكتشاف علم النفس هذا التأخر الشديد بسبب قرب النفس منا هذا القرب الشديد . وبما أن علم النفس بهذه الصفة لما يزل فى مراحله الأولية ، كان افتقارنا إلى المفاهيم والتعاريف التى نستطيع أن نفهم الوقائع بواسطتها . ولئن كنا نفتقر إلى المفاهيم ، إلا أننا لا نفتقر إلى الوقائع ، بل نحن مطوقون - وحتى نكاد أن نكون مدفونين - بهذه الوقائع . وهذه مفارقة صارخة عن حالة العلوم الأخرى حيث ينبغى فيها الكشف عن الوقائع أولاً . فى هذه العلوم نجد صياغة المفاهيم

الوصفية تنتج عن تصنيف المعطيات الأولية ، المفاهيم الوصفية التى تشتمل على أنظمة أو طبقات معينة ، كما هو الحال مثلاً فى مجموعات العناصر الكيماوية والأجناس النباتية . لكن الأمر يختلف اختلافًا كليًا بالنسبة إلى النفس ، حيث يتركنا المنطلق التجريبى والوصفى تحت رحمة جريان لا يتوقف عن الدفق من خبراتنا الذاتية . ويجعلنا نشعر كلما ظهر نوع من التعميم الشمولى من هذه الفوضى من الانطباعات أنه ليس أكثر من عرض نفسى طارئ ، ذلك أننا نحن أنفسنا «نفوس» ، ويكاد يستحيل علينا أن نطلق العنان للحوادث النفسية بدون أن ندخل فيها عمليًا ، وبذلك نحرم من قدرتنا على معرفة الفروق وعقد المقارنات .

هذه صعوبة واحدة ، أما الصعوبة الأخرى فكامنة فى أننا كلما انصرفنا عن الظاهرات ورحنا نبحث فى النفس اللامكانية ازدادت أمامنا استحالة تحديدنا لأى شىء بالاستناد إلى مقياس دقيق ، بل استحال علينا حتى أمر تشييد الوقائع . فمثلاً ، إذا أردت أن أشدد على لا واقعية شىء، أقول إنما فكرت فيه أكثر ، ثم أقول : «ما كنت لأملك هذه الفكرة لولا أنه حدث كذا وكذا ؟ ثم إننى لا أفكر فى هذه الأشياء على هذا النحو» . إن ملاحظات من هذا النوع عادية تمامًا ، وهى تظهر مقدار سديمية الوقائع النفسية ، بل مقدار فضفاضيتها من الجانب الذاتى - وهى فى الواقع موضوعية ومحددة بمقدار ما فى الحوادث التاريخية من موضوعية وتحديد . والحق إننى فعلاً فكرت هكذا وهكذا ، بقطع النظر عن الأحوال

والشروط التى قد أعلقـها على هذه الواقعة . كـثير من الناس يرون أنهم ينبغى أن يخوضوا صراعًا مع أنفسهم يمكن أن يجعلوا منه تسليمًا صريحًا كاملاً ، وغـالبًا ما يكلفهم هذا جهدًا مـعنويًا عظيمًا ، هذه هى ، إذن ، الصعوبات التى نواجهها عندمـا نريد أن نستخلص نتائج عن حالة النفس من الأشياء التى نلاحظها فى الخارج .

أما أنا فـميدان علمى الأكـثر محـدودية ليس هو التحـديد السريرى للسمات الخارجية ، بل بحث المعطيات النفـسية التى يمكننا أن نستخلصها منها تـصنيف هذه المعطيات . كـانت النتيـجة الأولى لهـذا العمل درس النفس دراسة وصـفية تتيح لنا صـياغة نظريات مـعينة حول بنيتـها . ثم تطور مفهوم النماذج النفسية من التطبيق التجريبى بهذه النظريات .

تقوم الدراسات السريرية على وصف الأعـراض ، والانتقال منها إلى درس النفس دراسة وصفية هو أشبـه بالانتقال من درس الأعراض المرضية دراسة محـضة إلى دراسة علم أمراض الخلية والاسـتقلاب . أى إن درس النفس دراسة وصفـية يتيح لنا رؤية السيـاقات النفسية القـائمة وراء العقل الذى ينتج الأعـراض السريرية . لقـد توصلنا إلى هذا الفـهم عن طريق تطبيق المناهج التحليلية ، وأضحى اليوم فى حوزتـنا معرفة عظيمة الأهمية بهذه السياقـات النفسية التى تنتج الأعراض العصـابية ، بعد أن قطعنا فى دراستنا للنفس دراسة وصفـية شوطًا متقدمًا إلى حد يتـيح لنا تعيين العقد النفسية .

مهـما كان الذى يحـدث فى أقبيـة النفس المظلمة (سوى مـا يرصده تحليلنا) - وتنهض حـول هذا الموضوع آراء مـعروفـة كثيـرة - يظل هناك شيء أكيد واحد هو ، أولاً وقبل كل شيء ، ما يسمى بالعقد (محتويات على درجة عالية من الشحنة العاطفـية ذات قدر معين من الاستقلال) التى تقوم بدور هام فى هذه الأقبيـة . إن تعبير «العقد المستقلة» كـثيراً ما يلقى معارضـة ، وأنا لا أرى ما يبرر هذه المعارضة لأن المحـتويات الفاعلة من الخافيـة (اللاشعور) تتخذ لهـا مسلكًا لا يسعنى أن أصفه خـيراً من كلمة «مستقلة» . ويستعمل هذا الاصطلاح للـدلالة على أن العقد النفسية تقاوم مقاصـد الواعية ، وتغذو وتروح كـما يحلو لها . والعقـد حسب أفضل معلومـاتنا عنها ، عـبارة عن مـحتويات نفـسيـة تقع خارج رقابـة العقل الواعي، انشطارات عن الواعية وشكلت لنفسها وجوداً مستقلاً فى الخافية، وهى مستعدة دائمًا لأن تعوق أو تؤازر مقاصد الواعية .

وإذا نحن مضينا فى دراسـة العقد أبعد قليـلاً ، انتهى بنا الأمر إلى مشكلة نشأتها ، وهى مشكلة قامت بصددها نظريات مختلفة ، وإذا نحن استبعدنا موضوع النظريات ، وجـدنا الخبرة تظهرنا على أن العقد تنطوى دائمًا على شيء أشبـه بالصراع ، فهى إما أن تكون سببًا فى هذا الصراع أو نتيجة له . وعلى كل حال ، إن خصائص الصراع ، من صدمة وهياج وعذاب نفـسى ونزاع داخلى ، كلها تختص بالـعقد النفسـية ، يسمـونها بالفرنسية «البهائم السوداء» ونحن نشير إليها على أنها «هياكل عظمية فى

الخزانة» إنها «نقاط ضـعف» لا نحب أن نتذكرها ، ولا نحب - من باب أولى - أن يذكرنا بهـا أحد ، لكنها غـالبًا ما تعود إلى العـقد بدون أن يطلب منهـا ذلك ، وبطريقـة لا نرغب فيـهـا . وهى تنطوى دائمًا على ذكريات أو رغبات أو مخـاوف أو واجبات أو آراء لم نكن أبدًا على وفاق معها ، ولهذا السبب تدخل دائمًا فى حياتنا الواعية بطريقة مزعجة ومؤذية فى العادة .

واضح أن العقـد النفسية تمثل نوعًا من النقص بأوسع مـا فى الكلمة من معنى - وهذه إبانة يجب على أن أبادر فى الحال إلى وصفها بالقول: إن العقـد لا تدل على وجود نقص بالـضرورة . وإنما تعنى فـقط أن ثمة شيئًا مخالفًا لم يتم تمثله . شيئًا مخاصمًا موجودًا ، قد يكون عقبة ، كما قـد يكون أيضًا حـافزًا على بذل جـهـد أكـبر ، وقـد يكون نافـذة على إمكانيات تحـقيق جـديدة ، وبهذا المعنى تكون العـقد مـجالاً فى بؤرة أو شبكة فى الحـياة النفسيـة ربما لا نريد أن نتخلى عنها . والحق إن العـقد النفسية لما يجب الافتقار إليه ، لأن الفـاعلية النفسية ربما تفضى بنا بدونها إلــى سكونية قاتلة . لكن العقد تظل مـع ذلك تشير إلى وجود مشاكل لم تجد لها حـلاً عند الفرد ، وعلى نقاط مُنى صاحبـها عندها بالفشل ، على الأقل فى الوقت الحاضر ، كمـا تدل على وجود شىء لم يستطع أن يتفاداه أو يتغلب عـليه ، وعلى نقاطه الضعيفة بكل مـا تحمله هذه الكلمة من معنى .

هذه الخصائص التى تتميز بها العقد النفسية إنما تلقى ضوءاً كثيفًا على منشئها . ولقد بات من الواضح أنها تنشأ من الصدام بين مقتضيات التكيف وعدم قدرة الفرد التكوينية على مقابلة التحدى . فإذا نحن رأينا العقدة فى هذا الضوء ، كانت عرضًا يساعدنا على تشخيص استعداد الفرد.

تظهرنا الخبرة على أن العقد متفاوتة ولاحد لتفاوتها ، ومع ذلك تكشف لنا المقارنة الدقيقة عن عدد قليل نسبيًا من النماذج الأولية المثالية ، وكلها يستمد أصله من اختبارات الطفولة الأولى . وينبغى أن يكون الأمر على هذا النحو اضطراراً ، لأن استعداد الفرد هو أحد العوامل التكوينية عند الطفل . ولذلك كانت العقد الوالدية ليست إلا المظهر الأول للصدام بين الواقع وعجز الفرد التكوينى عن تلبية المستلزمات المطلوبة منه . وعلى هذا لا يمكن أن يكون الشكل الأول من العقدة إلا العقدة الوالدية ، لأن الوالدين هما أول واقع يدخل عالم الطفل فى نزاعه معه .

ولذلك لا ينبئنا وجود العقد الوالدية إلا بالشىء القليل ، أو هو لا ينبئنا بشىء على الإطلاق ، عن التكوين الخاص بالفرد . والخبرة العملية سرعان ما تعلمنا أن ملاك الأمر ليس فى وجود العقد الوالدية ، بل فى الطريقة الخاصة التى تعبر بها العقدة عن نفسها فى حياة الفرد . وفيما يتعلق بهذه الطريقة نلاحظ أكثر أنواع التفاوت ظهوراً ، ولا نلاحظ سوى عدد يسير جداً مما يمكن رده إلى السمات الخاصة بتأثير الوالدين . غالبًا ما

نجد عدة أطفال قد تعـرضوا لنفس التأثير ، ومع ذلك كل منهم يرد على هذا التأثير ردًا مختلفًا .

لقد وجهت انتباهى إلى هذه الاختلافـات نفسها ، لاعتقادى أنى من خلال هذه الاختلافات أستطيع التعرف على ما لدى الأفراد من استعدادات على وجه التخصيص . لماذا ، مثلاً ، يرد أحد الأولاد فى عائلة معصوبة ردًا يتصف بالهـيستيـريا ، وآخر بالعصاب القـهرى ، وثالث بالجنون ، ورابع بلا شىء ظاهريًا ؟ هذه المشكلة من «اختيار العـصاب» وقد واجهها «فرويد» أيضـا ، تسلب العقـدة الوالدية كل مـعنى اثيـولوجى ، وتنقل ميدان البحث إلى ردّ الفرد واستعداده الخاص .

رغم أن محاولات «فرويد» لحل هذه المكلة تجعلنى غير راض تمامًا ، فأنا نفسى غيـر قادر على الإجابة عن هذه المسألة . والحق إننى أذهب إلى أن الوقت لما يحن بعد لإثارة هذه المسألـة المتعلقة باختيار العـصاب . قبل التصـدى لحل هذه المشكلة المستـعصيـة ، ينبغى لنا التـعرف على الشىء الكثير من الطريقة التى يعتمدها الأفراد فى الرد . السؤال هو : كيف يرد الشخص على عقبة تصادفه ؟ مثلاً ، يصادفنا جدول ماء ليس عليه جسر ، والجدول أعـرض من أن نقطعـه بخطوة واحدة ، إذن ، يجب أن نقطـعه قفزًا ، ولكى نسـتطيع ذلك ، ينبغى أن يكون تحت تصرفنا جـهاز وظيفى معقد ، أى جهاز محرك نفـسى . هذا الجهاز متطور تمامًا ولا يحتاج شيئًا سوى تشغيله . لكن قبل أن يحدث هذا ، يحـدث شىء ذو طبيعة نفسية

صرفـة ، أريد بذلك القرار الذى نتخـذه حول ما ينبغـى علينا فعله . ثم يلى هذا القـرار فـاعليات تسـوى المســألة على نحـو من الأنحناء ، وهذه الفاعلية تختلف بين فرد وآخر لكننا ، وهذا له أهمية كبيرة قلما نعترف - هذا إذا اعترفنا - أن لهذه الحوادث صفة الخصوصية ، لأننا فى الأصل لا نستطيع أن نرى أنفسنا أبدًا ، أو لا نراها إلا فى النهاية . وهذا معناه كما أن جهاز المحـرك النفسى موضوع تلقائيًا تحت تصـرفنا ، كذلك لا يوجد إلا جهاز نفسى معدّ للاستـعمال فى اتخاذ القرارات يعمل هو أيضًا بحكم العادة بصورة خافية (لا شعورية) .

تختلف الآراء كثيرًا حول مـاهية هذا الجهاز . لكن الشىء الأكيد هو أن لكل فرد طريقة اعتادها فى مواجهة القرارات ومعالجة الصعاب . يقول أحدهم إنه قطع الجدول بغـية إدخال البهجة على نفـسه ، ويقول آخر إنه قطع الجدول لأنه لم يكن يملك خـيارًا ، أما الثالث فيـقول إنه قطعه لأن الجدول عقبـة اعترضته ، وكل عقــبة تعترضه إنما تتحـداه لكى يقهرها ، وأما الرابع فلم يقطع الجدول قفزًا لأنه لا يحب أن يبذل جهدًا ليس وراءه طائل ، وأما الخامس فقد أحجم عن القفز لأنه لم ير ضرورة ملحة تحمله على العبور إلى الضفة الأخرى .

لقد تعمدت اختيار هذا المثـال العادى لكى أبين مقدار ما للحوافز من قلة اتصال من حيث تبدو لنا عديمة الجـدوى حتى أننا لندفع بها إلى جهة واحدة وفينا ميل إلى الاستعاضــة عنها بتفسير آخر . ومع ذلك تظل هذه

الرجوعات (ردود الفعل) المختلفة تمدنا بنظرة نافـذة قيمة إلى أجهزة الفرد المتعلقة بالتكيف النفسى . لأن الشخص الذى قطع الجدول بدافع الابتهاج لو لاحظناه فى أوضاعه الأخرى من الحياة لوجدنا القسم الأعظم مما يعمله أو يهمله يمكن تفسيره بدافع اللذة أو البـهجة . كـذلك نجد من لا يرى وسيلة سوى العبور يمضى فى حياتـه ملتزمًا جانب الحذر ولا يتخذ قراراته إلاّ على كره منه . فى جمـيع هذه الحالات نجد أجهزة نفسـية خاصة على استعداد دائمًا لتنفيذ القرارات ارتجالاً . ويمكننا فى يسر أن نتصور أن عدد هذه المواقف لا يقع تحت حصـر ، وأن الفروقات الخصوصـية لا تعد ولا تحصى ، وهى أشـبه بفروقـات الكرستال التى يمكـننا التعرف عليـها من حيث انتماؤها إلى هذه الفئة أو تلك ، على رغم هذه الفروقات ، ولكن، كما أن الكرسـتال يبين عن تماثل أساسى بسيط نسـبيًا ، كذلك تبين هذه المواقف الشخـصية عن سـمات أساسـية معـينة تتيح لنا أن ندرجـها فى مجموعة محددة .

جرت منذ أقـدم الأزمنة محاولات كـثيرة لتـصنيف الأفراد فى نماذج معينة بـغية إضفاء النظام عـلى ما هو اختلاط الفوضـى . وكان أقدم هذه المحاولات المعـروفة لدينا مـا قام به المنجـمون الشرقـيون الذين وضـعوا تصميم ما يسمى بمثلثات العناصر الأربعة : الهواء والماء والتراب والنار . فمثلث الهواء يبدو فى «خريطة السـماء» مؤلفًا من ثلاث علامات «هوائية» من دائرة الفلك هى الدلو والجوزاء والميزان ، ومثلث النار مؤلفًا من الحمل

والأسد والقـوس . بحسب هذه النظرية القـديمة ، كل من يولد فى هذين المثلثين فله نصيبه من طبيعتهـما الهوائية أو النارية ويكشف عن استعداد ومصير مطابقين لهما .

ويعتـبر هذا الجـدول الكوزمولوجى الأصل الذى تحـدرت منه نظرية النماذج الفيزيولـوجية التى عرفت فى العصور القديمة ، وبمـوجبها تتطابق الاستـعدادات الأربعة مع الأمـزجة الجسـمانية الأربـعة ، فمـا كانت تمثله علامات قبة الفلك فى مبدأ الأمر صـار يعبر عنه فيما بعد بالاصطلاحات الفيـزيولوجية المعروفـة فى الطب الإغريقى وكان منه تصـنيف اللمـفاوى والدموى والغضبى والسوداوى . وهى اصطلاحات لا تفيد إلا فى الدلالة على الأمزجـة الجسمانية المـفترضة . ولقد دام هذا الـتصيف قرابة سـبعة عشر قرنًا . أما نظرية النمـاذج البروجية . يا لدهشة المنوّرين - فلم يزل معمولاً بها إلى اليوم ، بل إنها لتحظى برواج جديد .

لعل هـــذه اللمـحة التـاريخية تجعلنا نطمئن إلى أن جهـودنا الحديثة الراميـة إلى صيـاغة نظرية فى النمـاذج ليست بالجهـود الجديدة أو غـير المسبـوقة ، حى ولو كان وجـداننا العلمى لم يعد يسـمح لنا بالعودة إلى الأساليب القديمة المبنية على الحـدس فى معالجة المسألة . ولذلك لم يكن أمامنا بد من التماس جواب خـاص بنا عن هذه المسألة يأتى ملبيًا لمتطلبات العلم .

وهنا نواجه العقبة الكؤود فى مشكلة النماذج ؛ أعنى بها المقاييس أو المعايير . فالمعيار البروجى معيار بسيط ، وقد جاءت به مجموعة النجوم الثابتة . أما كيف أمكن نسبة عناصر الشخصية الإنسانية إلى علامات الفلك والكواكب ، فهذه مسألة ترجع إلى ضباب ما قبل التاريخ وتظل مسألة بلا جواب . وأما التصنيف الإغريقى المبنى على الاستعدادات الأربعة فقد اتخذ مظهر الفرد ومسلكه معياراً له ، تماماً كما هو حاصل اليوم بالنسبة إلى النماذج الفيزيولوجية الحديثة . لكن أين نلتمس المعيار فى نظرية النماذج السيكولوجية ؟ لنعد إلى مثالنا الذى تقدم ذكره المتعلق بالأفراد المختلفين الذين قطعوا الجدول المائى . كيف ، ومن أى منطلق ، ينبغى علينا أن نصنف حوافزهم المعتادة ؟ قلنا إن أحدهم فعل ذلك ابتغاء المتعة والبهجة ، والآخر لأن الامتناع عن اجتيازه يجلب له المقت والإزعاج، والثالث لا يقطعه لأن لديه أفكاراً أخرى ، وهكذا تبدو قائمة الإمكانيات لا نهاية لها ، ولا فائدة منها فى أغراض التصنيف .

لا أدرى كيف يتصدى الآخرون لأداء هذه المهمة . لذلك لا يسعنى إلا أن أبين كيف تصديت أنا لمعالجة هذا الموضوع ، ولابد لى أن أصبح غرضاً للملامة لأن طريقتى فى حل هذه المشكلة جاءت نتيجة لسابق حكم فردى من جانبى . والحق إن هذا الاعتراض صحيح صحة تامة تجعلنى لا أعرف كيف أواجهه . وربما عللت نفسى بكولومبس الذى استطاع أن يكتشف أمريكا رغم اعتماده على مسلّمات ذاتية وفرضيات خاطئة وسلوكه

طريقًا هجرته الملاحة الحديثة . مهما كان الشيء الذى ننظر إليه ، وكيفما نظرنا إليـه ، فإننا لا نرى إلا بأعـيننا ، ولذلك لم يصنع العلم إنـسان واحد ، بل أناس كثيرون . كل ما يفعله الفرد هو أن يعرض مساهمته ، وبهذا المعنى فقط تجرأت فتكلمت عن طريقتى فى رؤية الأشياء .

تفرض علىّ طبيعة عملى دائمًا أن آخذ خصائص الأفراد بعين الاعتبار . وهذا ما حدانى إلى تشييد حـقائق معينة تقوم على «المعدل الوسطى» ؛ يضاف إلى ذلك أن اضطرارى إلى معالجة عدد لا حصر له من «الأزواج» على مدى كثير من السنين قد فرض علىّ مهـمة التصدى لصياغة منطلقات واضحة تنطبق على كل من الزوج والزوجة . فـمثلاً ، كم مرة لم اضطر فيها إلى القول : «انتبه ! زوجـتك ذات طبيعة فاعلة ، ولا يتوقع منها أن تصب كل وجـودها عـاكـفـة على تدبيـر المنزل» . هذه بـداية نظرية فى النموذج ، أى نوع من الحـقيقـة الإحصائيـة : ثمة طبائع فـاعلة وطبائع منفعلة . لكن هذه الحقيقة التى أكل الزمـان عليها وشرب ما كانت لتنال رضائى . لذلك حاولت فيما بعـد أن أقول إن ثمة أشخاصًا لديهم ملكة التفكـير وآخرين لا يفكرون ، لأنـى كنت لاحظت أن أصحاب الـطبائع المنفعلة ظاهريًا لم يكونوا منفعلين فى حقيـقة الأمر بقدر ما كانوا يوازنون فيما بين الأمور ويتدبرونهـا من جميع الأوجه ، يدرسون الوضع أولاً ثم يتصـرفون ؛ ولأنهم يفعلون هذا بحكم العـادة ، يضيعون على أنفـسهم فرصًا تتطلب منهم العمل بدون تدبر ولا موازنة .

وهذا ما يدمغهم بصفة الانفعـالية . أما الذين لا يفكرون فيبدون ليّ دومًا وكأنـهم متـورّطون في وضع من الأوضاع بدون مـوزانة ولا تدبر ، لكنهم مـا يلبثـون حـتى يتبين لهم في وقـت لاحق أنهم قد غطسـوا في مستنقع . وعلى هذا يمكن اعـتبارهم «غير فكريين» ؛ ولعل هذه التـسمية أنسب لهم من تسميـة «فاعلين» . فالتدبر والروية ، في أحـوال معينة ، شكل هام جدًا من «الفـاعلية» ، كما هو سـياق فعل معقـول بالمقارنة مع شخص يهب بلا روية إلى العـمل ، مهما كان الثمـن . لكنني ما لبثت حـتى اكتـشـفت أن تردد الواحـد لم يكن ناشـئًا دائمًا عن روية ، وأن مسارعة الآخر إلى الفعل ليست ناشـئة بالضرورة عن قلة روية . فغالبًا ما يكون تردد الأول ناشـئًا عن تهيّب قـد اعتـاده ؛ أو على الأقل عن شيء أشبـه بالانكفاء إلى الخلف كلما واجـه مهمـة أثقل من أن يؤديها ؛ على حين أن الفاعلية الفـورية من الثاني كثيـرًا ما تتاح له بسبب رجحـان ثقته بنفسه حيال الموضوع . وقد حدتني هذه الملاحظة على صياغة هذه الفوارق النموذجيـة على النحو التالي : ثمة فـريق من الناس ، عند رد فعله على وضع معين ، ينكفئ قليلاً إلى الوراء في شيء من الرفض غير المنطوق ، ثم لا يظهر منه رجع عليه إلا بعد ذلك ؛ فريق آخر ، في نفس الوضع ، يهجم على الموضوع برجع فوري ، واثقًا من صحـة مسلكه ثقة واضحة . الفريق الأول يتميـز بعلاقة سلبية معينة حيـال الموضوع ، والفريق الثاني يتميز بعلاقة إيجابيـة . وغني عن البيان أن موقف الفريق الأول يتفق مع

الموقف الانطوائى ، وموقف الفريق الثانى مع الموقف الانبساطى . ولكن هذين الاصطلاحين لا يفيداننا شيئًا فى حد ذاتهما إلا بمقدار ما يفيدنا اكتشاف «البورجوازى النبيل» فى مسرحية موليير أنه إنما يتكلم نثراً فى العادة . ولا يكون لهذا التمييز قيمة أو معنى إلا إذا تحققنا أن جميع الصفات الأخرى تتماشى مع النموذج . ولا يمكن أن يكون المرء انطوائيًا أو انبساطيًا إلا أن يكون كذلك فى كل شىء .

ونعنى باصطلاح «انطوائى» أن كل الحوادث النفسية إنما تحدث على نحو يصدق على الانطوائيين جميعًا . كذلك إن وصفنا لفرد معين بأنه انبساطى لا يعنى شيئًا إلا بمقدار ما يعنى أن طوله ست أقدام أو أن شعره بنّى اللون أو أنه عريض الرأس . فهذه الإبانات لا تفيدنا إلا قليلاً زيادة على الحقيقة المجردة التى تعبر عنها . لكن اصطلاح «الانبساطى» يدعى أنه له معنى أكثر من ذلك . فهو يبين ، عندما يكون الشخص انبساطيًا عن أن لواعيته ، وكذا لخافيته ، صفات محددة ؛ وأن مسلكه العام وعلاقته بالناس - بل وحتى مجرى حياته ، كل ذلك يبين عن خصائص نموذجية بعينها .

الانطواء والانبساط - وهما موقفان نموذجيان - كل منهما يعنى ميلاً أساسيًا يحكم السياق النفسى بكامله ، ويرسّخ الرجوعات المعتادة ؛ ولذلك هو لا يعين نموذج السلوك وحسب ، وإنما طبيعة الخبرة الشخصية أو الذاتية . ليس هذا وحسب ، وإنما يدلنا أيضًا على نوع فاعلية التعويض التى تقوم بها الخافية التى نريد أن نكشف عنها .

وعندما نحدد الرجوعات المعتادة ، نستطيع أن نوقن بأننا قد أصبنا الغرض ، لأن هذه الرجوعات تتحكم بالسلوك الخارجى من جهة ، وتصوغ أو تقولب الخبرة الخصوصية من ناحية ثانية . إن نوعًا معينًا من السلوك يحدث نتائج متوافقة معه ، وفهمنا الشخصي لهذه النتائج ينشيء اختبارات تؤثر بدورها فى السلوك ، وبذلك تنغلق دائرة مصير الفرد .

رغم أننا لا نشك فى أننا نضع أيدينا على قضية حاسمة بواسطة الرجوعات المعتادة ، إلا أن مسألة دقيقة تظل مع ذلك قائمة وأعنى بها ما إذا كنا وصفنا خصائصها بشكل يبعث على الرضا . حول هذا الموضوع قد نجد اختلافًا حقيقيًا حتى فيما بين من يتساوون فى معرفة هذا الحقل الخاص معرفة عميقة . فى كتابى عن «النماذج» جمعت كل ما استطعت جمعه دعمًا لمفهومى ، لكننى بينت بجلاء أننى لا أعتبر نظريتى النظرية الصحيحة الوحيدة ، أو النظرية الممكنة الوحيدة ، فى النماذج . فنظريتى هذه بسيطة للغاية ، بما هى مؤلفة من التضاد بين الانطواء والانبساط ؛ لكن الصيغ البسيطة - لسوء الحظ - هى أكثر الصيغ عرضة للشك ؛ إذ ما أيسر ما تُغطى على التعقيدات الفعلية فتخدعنا عن حقيقتها . وإنى لأتكلم هنا اعتمادًا على خبرتى الشخصية ، لأنى ما كدت أنشر الصياغة الأولى لهذه المعايير حتى تبين لى - ويا لذعرى الشديد - أننى قد أخذت بها على نحو أو آخر . كان شيء ما خارجًا عن جرن الحركة . لقد

حاولت تفسير الكثير بأيسر سـبيل . كما يحدث غالبًا عند الفرحة الأولى بالاكتشاف .

لقد استوقفتنى حقـيقة لا مراء فيها وهى أننا فى الوقت الذى نصنف فيه الناس إلى انطوائيين وانبساطيين ، فـإن هذا التصنيف لا يشمل جميع الفوارق بين الأفراد الذين قـد يندرجون فى هذا الصنف أوذاك . والحق إن هذه الفوارق بلغت من العظم حدًا اضطررت معـه إلى الشك فيما إذا كان ما قد لاحظته صحيحًا فى المكان الأول . وقد اقتضانى تبديد هذا الشك ما يقرب من عشر سنوات من الملاحظة والمقارنة .

لقد أوقعتنى مسألة الاختـلاف الكبير فيما بين من يندرجون تحت كل صنف فى مصاعب جمّة لم تكن فى الحسبان ظللت مدة طويلة لم أستطع لها تذلـيلاً . فمـا كانت الملاحظات أو تعـيين الاختـلافات لتـسبب لى إزعاجًا كبيرًا ، لأن أصل المصاعب كـان ، حتى ذلك الحين كما كان من قبل ، إنما هـو مشكلة المعـايير . كيف أجـد الاصطلاحات الصـحيـحة للفروقات الخصوصية ؟ هنا أدركت ، لأول مرة ، مدى حداثة علم النفس فى الواقع. فهـذا العلم لا يعدو أن يكون أكـثر قليلاً من عـماء من الآراء الاستبـدادية خيرها ما نتج فى قـاعة الدرس أو فى غرفة الاسـتشارات عن ولادة عـفوية ولدتهـا عـقول العـلماء المنعـزلة ؛ وهى - بالتـالى - آراد استبدادية .

ليست بى رغبة فى أن أكون وقحًا ، ولكننى لا أستطيع الامتناع عن مواجهة أستاذ علم النفس بعقلية النساء والصينيين وزنوج استراليا . ينبغى لعلم النفس أن يحيط بالحياة كلها ، وإلا بقينا محصورين فى القرون الوسطى . لقد اتضح لى أنه لا يمكن أن يوجد معايير صحيحة فى عماء علم النفس المعاصر ؛ بل لابد لنا من أن نضعها ، لا دفعة واحدة بطبيعة الحال ، بل على أساس من العمل التحضيرى الذى لا يقدر بثمن يتولاه أناس كثيرون لا يسع تاريخ علم النفس أن يمر على أسمائهم مرور الكرام .

ربما لا أستطيع ، فى هذه العجالة ، أن آتى على ذكر جميع الملاحظات المتفرقة التى أوصلتنى إلى اختيار وظائف نفسية معينة واتخاذها معايير لتعيين الفوارق موضوع البحث ، وإنما أرغب فى تبيان كيف ظهرت لى على قدر ما استطعت فهمها . يجب أن نعلم أن الانطوائى ليس من يتردد أمام الموضوع وحسب ، وإنما هو من يفعل ذلك على نحو بالغ التحديد . زد على ذلك أنه لا يتصرف كما يتصرف كل انطوائى آخر من جميع النواحى ، بل يتصرف على نحو معين . فكما يضرب الأسد عدوه أو فريسته بمخالبه الأمامية حيث تكمن قوته ولا يضرب بذيله كما يفعل التمساح ، هكذا تتميز رجوعاتنا المعتادة باستخدام الوظيفة التى نثق بها أكثر من غيرها ، وتفعل أكثر من غيرها ، وهى الوظيفة التى تعبّر عن قوتنا . لكن هذا لا يمنع من أن تأتى رجوعاتنا عرضًا بطريقة تكشف

عن مكمن ضعفنا . إن الرجحان الوظيفى يقودنا إلى تشييد أوضاع معينة أو إلى الكشف عنها ، فى وقت نتجنب فيه أوضاعًا أخرى ، وبالتالى نختبر اختبارات خاصة بنا تختلف عن اختبارات غيرنا من الناس . فالذكى يكيف نفسه مع العالم بذكائه ، لا كما يفعل ملاكم من الدرجة السادسة ، حتى ولو اقتضاه الأمر ، حينًا بعد آخر ، أن يستخدم قبضته فى نوبة غضب . فى صراع الوجود والتكيف ، يستخدم كل منا أكثر وظائفه نماءً بصورة غريزية ، وبذلك تصبح معيار رجوعاتنا المعتادة .

هنا تصبح المسألة بالصيغة التالية : كيف يمكننا أن ندرج جميع هذه الوظائف فى مفاهيم عامة تتيح لنا أن نميزها من فوضى الحوادث الممكنة ؟ منذ وقت طويل جرى فى الحياة الاجتماعية تصنيف غير دقيق من هذا النوع، بنتيجته صرنا نعرف نماذج الفلاح والعامل والفنان والمحارب ، وهكذا تمضى القائمة حتى تشمل جميع أصحاب الحرف . لكن هذا التصنيف ليس له إلا علاقة ضئيلة بعلم النفس ، لأنه - كما قال أحد مشاهير العلماء بخبث - يوجد علماء ليسوا أكثر من «حمّالين فكريين» .

كل نظرية فى النماذج يجب أن تتوفر فيها الدقة . فلا يكفى مثلاً أن نتكلم عن الذكاء لأنه مفهوم مسرف فى عموميته وسعته . إذ يكاد كل سلوك أن يتصف بالذكاء إذا جرى رخوًا رهوًا ، سريعًا وافيًا بالغرض . الذكاء ، كالغباء ، ليس وظيفة بل أسلوب ؛ وهذا الاصطلاح لا يعلمنا شيئًا أكثر من الكيفية التى تؤدى بها الوظيفة عملها . ونفس الشىء يصح

على المعايير الأخلاقية الجمالية . يجب أن يكون فى وسعنا تعيين ما الذى يعمل بصورة ظاهرة فى الطريق التى اعتادها المرء فى رجوعاته . وبذلك نضطر إلى اللجوء إلى ما يشبه لأول وهلة ، وعلى نحو يثير الفزع ، علم النفس الذى كان معروفًا فى القرن التاسع عشر ؛ غير أننا فى حقيقة الأمر ، لا نفعل شيئًا غير أن نعود إلى الأفكار الدارجة فى كلامنا اليومى ، الذى بمقدور كل إنسان أن يتناوله وأن يفهمه . فمثلاً ، عندما أتكلم عن «الفكر» ، الفيلسوف وحده هو الذى لا يفهم ما أعنيه ؛ لكن الرجل العادى لا يجده غير مفهوم ؛ لأنه يستخدم هذه الكلمة كل يوم ، وفى نفس المعنى العام دائمًا ، رغم أنه سوف يرتبك قليلاً لو طلبنا منه فجأة أن يعطينا للكلمة تحديداً لا لبس فيه .

ونفس الشىء يصح على «الذاكرة» أو «الشعور» . مهما كان تحديد مثل هذه المفاهيم صعبًا من الناحية العلمية التى تريد أن تجعل منها مفاهيم سيكولوجية ، فما أيسرها على الفهم فى الكلام الدارج . الكلام مخزن للصور القائمة على الخبرة ، لذلك كانت المفاهيم البالغة التجريد لا تضرب جذورها فيه بسهولة ؛ أو هى سرعان ما تنقرض لافتقارها إلى الاتصال بالواقع . لكن الفكر والشعور أمران واقعيان فى الدرجة الأولى حتى أن كل لغة تجاوزت المستوى البدائى قد وضعت لهما تعبيريهما اللذين لا يخطئان أبدًا . ولذلك يمكننا أن نطمئن إلى أن هذين التعبيرين يتفقان مع وقائع نفسية محددة تمامًا ، كائنًا ما كان التعريف العلمى لهذه الوقائع المحددة.

فمـثلاً ، كلنا يعلم ما هى الواعـية ، وما من أحد يشك فى شـمول هذا المفهوم لحالة نفـسية محددة ، مهما كـان تعريفنا العلمى لها لا يبعث على الرضا .

وهكذا اتفق لى أن قـمت بصياغـة مفاهيـمى عن الوظائف النفسـية مسـتمدةً من المفـاهيم التى تعبر عنهـا اللغة الدارجة ، واتخـذتها معـايير للحكم على الفـروقات فـيما بين الأشـخاص الذين ينضـوون تحت نفس نموذج الموقف ، أو الموقف النموذجى . فـمثلاً ، اعتبرت الـفكر مثلما هو معتبر عمومًا ؛ لأن ما ستـوقفنى هو أن كثيراً من الأشخاص يفكرون عادة أكثر من غيـرهم ، وتبعًا لذلك يعطون الرجحان للتفكيـر عندما يتخذون القرارات الهامة ، ويستخدمون تفكيرهم فى محاولة فهم أنفسهم وتكييفها مع العالم ؛ وكل ما يحدث لهم فـإنما يخضع عندهم للنظر والتدبر ، أو على الأقل يتوافـقون مع مـبدأ يؤيده التفكيـر . وهناك أشخـاص آخرون يهملون التفكـير لصالح عوامل عاطفـية ، أى لصالح الشعور ؛ يتـبعون بصورة ثابتة «سياسة» يمليهـا عليهم شعورهم ، ولا يحملون أنفسهم على التـفكيـر إلا إذا حَزَبهم أمر خـارق للعـادة . هـؤلاء يشكلون ضـداً بينًا للأولين . ويظهـر هذا الفرق ظهـوراً واضحًا إذا كان أحـد هذين النوعين شـريكًا لآخر مـن النوع الثانـى فى تجارة أو زوج. وقـد يعطى الإنسـان الأفـضلية للتـفكيـر ، إن كان انبـساطيًا أو انـطوائيًا ، لكنه لا يفكر إلا بالطريقة التى يتميز بها موقفه النموذجى .

غير أن رجحان إحدى هذه الوظائف أو الأخرى لا يفسر لنا جميع الفروقات التى ينبغى لنا الكشف عنها . إن ما أسميه النماذج الفكرية أو الشعورية إنما يحيط بمجموعتين أو فئتين تشتركان أيضًا فيما أستطيع تسميته بالجانب العقلى . ما من أحد يمارى فى أن الفكر شأن عقلى بصفة أساسية ؛ لكن عندما نأتى إلى الشعور تنهض اعتراضات معينة لا أريد الرد عليها ببساطة ؛ وإنما أسلّم بأن هذه المشكلة الشعورية كانت إحدى المشاكل التى استأثرت بتفكيرى زمنًا طويلاً . ومع ذلك ، ومن دون إرهاق هذا المقال بمختلف تعريفات هذا المفهوم ، فسأقتصر هنا على عرض وجهة نظرى حول هذا الموضوع . إن الصعوبة الرئيسية تكمن فى أن كلمة «شعور» قابلة للتطبيق على جميع أنواع الطرائق المختلفة وهذا يصح ، بصفة خاصة ، على اللغة الألمانية ؛ ولكننا نلاحظه أيضًا ، وإلى حدّ ما، فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية . لذلك يتوجب علينا ، أولاً وقبل كل شىء ، أن نميّز تمييزًا دقيقًا بين مفهوم الشعور والإحساس ، لأن هذا الأخير يستعمل لكى يشتمل على السياقات الحسية . ثم يتوجب علينا ثانيًا أن نبيّن بأن شعور الأسف مثلاً يختلف كل الاختلاف عن «الشعور» بأن الطقس سوف يتغير ، أو أن أسعار أسهم «الألومنيوم» سوف ترتفع. ولذلك رأيت أن أستعمل كلمة «شعور» على النحو الذى جاءت به فى المثال الأول ، وأن أهملها - كلما كان الأمر متعلقًا بالاصطلاح السيكولوجى - على النحو الذى جاءت به فى المثالين الأخيرين . وهنا

يجدر بنا أن نتكلم عن «الإحساس» عندما يتعلق الأمر بأعضاء الحواس ، وعن «الحدس» إن كنا نتعامل مع نوع الإدراك الذى لا يمكن إرجاعه إلى الخبرة الحسية الواعية . ولذلك عرّفت الإحساس بأنه إدراك يحدث من خلال سياقات الحس الواعية ، والحدس بأنه إدراك يتم بواسطة المحتويات والروابط الخافيّة (= اللا شعورية) .

من الواضح أننا نستطيع أن نتجادل إلى يوم القيامة حول صلاحية هذه التعريفات ، لكن الجدل يظل يدور فى نهاية الأمر على مسألة الاصطلاحات ليس أكثر . إذ لا يعدو أن يكون الأمر كما لو كنا نتناقش حول تسمية حيوان ما «بوما Puma» أو «أسد الجبل» ، فى وقت يكون كل ما نحتاج إليه هو أن نعرف ما نريد تعيينه بصورة معينة . إن علم النفس ميدان درس لم يجر التنقيب عنه ، ولذا كان لابد من تحديد مصطلحات خاصة به . من المعروف أن درجات الحرارة يمكننا قياسها على طريقة «ريومير» و «لكسيوس» و «فارنهايت» ، لكن يجب علينا أن نبيّن النظام الذى نريد السير عليه .

واضح ، إذن ، إننى أجعل الشعور وظيفة بحد ذاتها وأميزه من الإحساس والحدس . وكل من يخلط هاتين الوظيفتين بالشعور بمعناه الضيق ، فواضح أنه لا يستطيع أن يعترف بما للشعور من صفة عقلية . لكننا حين نفصلهما عن الشعور ، يتضح لدينا أن القيم الشعورية والأحكام الشعورية - أى : مشاعرنا - ليست عقلية وحسب ، وإنما هى

تمييزية ومتماسكة* أيضًا فى مثل تمييز الفكر ومنطقه وتماسكه . تبدو هذه الإبانة غريبة بالنسبة لإنسان من النموذج الفكرى ، لكننا نستطيع أنفهمها عندما يتضح لنا أن الشخص الذى يتمتع بوظيفة فكرية متميزة ، تكون فيه الوظيفة الشعورية أقل نمواً ، وأكثر بدائية ، وبالتالى موبوءة بوظائف أخرى غير عقلية ولا منطقية ولا تقويمية ، وهى الإحساس والحدس .

هاتان الوظيفتان الأخيرتان (وهما الحدس والإحساس) تتعارضان بطبيعتهما مع الوظائف العقلية . فعندما نفكر ، فلكى نحكم على شيء أو لكى نصل إلى نتيجة ، وعندما نشعر فلكى نضفى قيمة خاصة على شيء ؛ أما الإحساس والحدس فوظيفتان إدراكيتان ، لأ لأنهم تعرّفاننا بما يجرى ، من دون تفسير أو تقويم لما يجرى . وهما لا تعملان انتقائيًا وفقًا لمبادىء ، وإنما تتلقيان ما يجرى ليس أكثر . لكن «ما يجرى» إن هو إلا الطبيعة ، والطبيعة شأن غير عقلى بصفة أساسية . فليس هناك طريقة استنتاج يمكننا بواسطتها أن نثبت وجود عدد من الكواكب أو عدد من أنواع الحيوانات ذات الدم الدافىء من هذه الفئة أو تلك . ويعتبر الافتقار إلى العقل نقصًا عندما تدعو الحاجة إلى التفكير والشعور ، مثلما يعتبر العقل نقصًا عندما تدعو الحاجة إلى الاعتماد على الإحساس والحدس .

هناك كثير من الأشخاص لا تتصف رجوعاتهم المعتادة بصفة العقلية ، لأنها تقوم بصفة أساسية على الإحساس والحدس ؛ لكنها لا تقوم عليهما

معًا فى وقت واحـد ، لأن الإحســاس يناقض الحدس كمـا يناقض الفكر الشعور . فـعندما أحاول أن أستـيقن بعقلى وأذنى مما يجـرى فعلاً ، لا أستطيع فى الوقت نفـسه أن أستسلم للأحـلام والتخيلات بخـصوص ما يقبع فى الزاوية . ولما كـان هذا هو ما ينبغى للنموذج الحـدسى أن يفعله لكى يطلق العنان للخافـية أو للموضوع ، كـان من السهل علينا أن نرى النموذج الحسى يقف فى القطب المضـاد للنموذج الحدسى . لسوء الحظ ، لا يسعنى هنا أن أتناول التنوعات الهامة التى ينتجها الموقف الانبساطى أو الانطوائى فى النماذج غير العقلية .

بدلاً من ذلك ، أفضل أن أضيف كلمة واحدة عن الآثار التى تحدث للوظائف الأخرى بإطراد عندما نعطى الأفـضلية لإحداها . نحن نعلم أن الإنســان لا يمكنه أن يكون كل شىء فى وقت واحـد ؛ فهـو دائمًا ينمّى صفات معينة على حساب غيرها ؛ الكليّة لا يمكن تحقيقها أبدًا . لكن ماذا يحدث للوظائف التى لم تنمّها الممارسة ولم ندعُها إلى الاستعمال اليومى بصورة واعية ؟ هذه الوظائف تبقى على حالة قريبة من البدائية والطفولية، وهى الوظائف غـير الناميـة نسبيًا تـشكل نوعًا من النقص يتمـيز به كل نموذج ، وتشكل جزءًا لا يتجزأ من مجمل الشخـصية . التوكيد الأحادى على التـفكير يـكون مصـحوبًا دائمًا بنقـص فى الشعـور ، والإحســاس والحدس المتمايزان مضر أحـدهما بالآخر . ويمكننا أن نعرف ما إن كانت وظيفة ما متمايزة أم لا من قوتها ورسوخها وديمومتها ومصداقيتها وخدمتها

للتكيف. لكـن النقص الوظيـفى لا يوصف أو لا يمكن التـعـرف عليـه بسهولة فى الغـالب . المعيار الأساسى هو افتقاره إلى الكـفاية الذاتية وما يترتب على ذلك من اعـتماد على الآخـرين وعلى الظروف ، يضاف إلى ذلك أنه يعرّضنا إلى نوبـات انفعال وحسـاسيات وحـساسيات فى غـير وقتها، وكذلك فـقدانه للمصداقية فضلاً عن غـموضه وجنوحه بنا إلى أن يجعلنا قابلين للإيحـاء . نحن دائمًا عاجزون عن استخدام الوظيـفة الدنيا لأننا لا نستطيع توجيهها ؛ إنما نحن ضحايا فى حقيقة الأمر .

وبما أننى مضطر هنا إلـى صياغة خطوط عـريضة للأفكار الأساسـية لنظرية سـيكولوجـيـة فى النمـاذج ، رأيت - آسفًا - أن أغـفل وصـفًا تفصيليًا للقسمات والأفعال الفردية فى ضوء هذه النظرية . وكانت النتيجة الإجماليـة لعملى فى هذا الميدان حتى الوقت الحـاضر هى تقويم نموذجين عامين يشملان الموقفين اللذين سمّيـتهما الانبساط والانطواء . إلى جانب ذلك ، قمت بصياغة تصنيف رباعى يتـطابق مع وظائف التفكير والشعور والإحـسـاس والحدس . وكل مـن هذه الوظائف يخـتلف فى أدائه تبـعًا لاختلاف الموقف العام ، فينتج لدينا من ذلك أربع تفـريعات . وكثيراً ما كان يُعترض علىّ بالسـؤال لماذا أتكلم على أربع وظائف لا أكثر من ذلك ولا أقل . أما أن يكون هناك أربع وظائف بالضبـط فهذه مسألة حقـيقية تجريبيـة ، والحق إن هذه الـوظائف الأربع تتيح لنا بلوغ نوع من الـكمال كما يدلّنا على ذلك الاعتبار التالى :

فالإحساس يرسخ فى أذهاننا ما يصل إلينا عن طريقه ، والفكر يتيح لنا التعرف بمعناه ، والشعور ينبئنا بقيمته ، والحدس يومىء ، لنا بإمكانيات المصدر والوجهة لما هو كامن فى الوقائع المباشرة بهذه الطريقة ، يمكننا أن نوجه أنفسنا تجاه العالم المباشر بصورة كاملة كما لو كنا نعين موقعًا جغرافيًا بواسطة خطوط الطول والعرض . تشبه الوظائف الأربع جهات البوصلة الأربع من بعض الوجوه ، فهى مثلها اعتباطًا ، وهى مثلها ضرورة . لا شىء يمنعنا من نقل الجهات الأصلية عددًا من الدرجات على حسب ما يحلو لنا إلى هذه الجهة أو تلك ، كذلك لا شىء يمنعنا من أن نعطيها أسماء مختلفة . فالمسألة مسألة اتفاق وقابلية للفهم ليس أكثر .

لكن لابد لى من الاعتراف بأننى لا أريد التخلى عن هذه البوصلة فى رحلات اكتشافاتى السيكولوجية ، مهما كان الثمن . ليس لمجرد ذلك السبب البيّن المسرف فى بشريته ، وهو حبّنا لأفكارنا ، وإنما لأننى أقوّم نظرية النماذج انطلاقًا من سبب موضوعى هو ما تقدمه لنا من نظام للمقارنة والتوجيه يجعل فى الإمكان شيئًا طالما افتقرنا إليه ألا وهو : السيكولوجيا النقدية .

الفصل الخامس

مراحل الحياة

يعتبـر البحث فى المشاكل المتعلقة بالمراحـل التى يمر بها الإنسان فى نموّه من أصعب المهام وأعقدها ؛ لأن ما تعنيه لا يقل عن نشر ما انطوت عليه صورة الحياة النفسية فى كليّتها من المهد إلى اللحد . وفى هذا النطاق الضيق من هذا المقال ، لا يمكننا القيام بهذه المهمة إلا بالخطوط العريضة، وينبغى أن يكون مفهومًا تمامًا أننا لن نحـاول وصف الحوادث النفسية فى مختلف المـراحل ؛ بل سنقتصر على مـعالجة مشاكل بعـينها ؛ أى على الأشياء الصـعبة التى تبعث على الـشك وتتسم بالغموض ؛ باخـتصار ، على المسائل التى تسـمح لنا بأكثر من جواب ؛ بل تسـمح لنا بأجوبة هى عرضـة للشك على الدوام . ولهذا سوف يكون لدينا الكثـير مما يجب أن نضيف إليه علامة اسـتفهام فى أذهاننا . ولعل الأدهى من ذلك أن يكون لدينا أشيـاء ينبغى لنا التـسليم بها عن إيمان ، بينما ينبـغى لنا أن نطلق لأفكارنا العنان حينًا بعد آخر .

لو كانت الحياة النفسية مؤلفة من حوادث ظاهرة للعيان فقط - وهو الذى لم يزل عليه الحال فى المستوى الابتدائى - إذن لاكتفينا باعتماد المنهج التجريبى اعتماداً لا هوادة فيه . لكن الحياة النفسية عند الإنسان المتمدن باتت حافلة بالمشاكل إلى حد أننا لم نعد نستطيع التفكير إلا فى صيغة المشاكل ، ثم إن سياقاتنا النفسية باتت مكوّنة من أفكار وشكوك وتجارب تكاد أن تكون جميعها غريبة تمامًا عن الإنسان البدائى وعقله الفطرى الخافى (= اللا شعورى) . إن نشوء الواعية هو ما ينبغى أن نرد إليه وجود المشاكل ؛ فالواعية هبة مريبة وهبتنا إياها المدنية . وما خلق الواعية فى الإنسان سوى ابتعاده عن الفطرة ، ومعارضته فطرته بنفسه . فالفطرة هى الطبيعة ، وهى تسعى إلى تأبيدها واستدامتها . أما الواعية فلا تنشد إلا الثقافة أو التنكر للطبيعة . وحتى حين نرجع إلى الطبيعة ، بتأثير من حنين جان جاك روسو ، فإنما «نثقف» الطبيعة . وما دمنا غارقين فى الطبيعة فنحن غير واعين ونعيش فى أمان الفطرة التى لا تعرف المشاكل . كل شىء فينا ، مما لم يزل من الطبيعة ، ينفر من المشاكل ، لأنه تثير فينا من الشكوك ما لو استحكم لانعدم بإزالة اليقين ونهض احتمال لتفرق السبل . وحيثما تفرقت بنا السبل أو تعددت ، ابتعدنا على هَدْى الفطرة ويقينها ، وأسلمنا أنفسنا إلى الخوف . وعندئذٍ تصبح الواعية مدعوة إلى القيام بما كانت تقوم به الطبيعة دائمًا حيال أبنائها - أى لتعطينا القرار اليقين الذى لا يتطرق إليه شك أو التباس - وهو الغزو البروميثى - وتحل محل الطبيعة فى القيام بخدمتنا فى نهاية الأمر .

وهكذا تجذبنا المشـاكل إلى حالة من اليتم والعزلة حـيث تتخلى عنا الطبيعة وتقودنا إلى الوعى . ليس أمامنا باب مفتوح آخر ؛ وعندئذ نجدنا مضطرين إلى إتخاذ القرارات واعـتماد الحلول على حين كنا من قبل نكل أنفسنا إلى الحوادث الطبيعية . ولذلك كانت كل مشكلة تعترضنا تتيح لنا إمكانية اتساع الواعية . لكنها تـضطرنا أيضًا إلى وداع خافية الطفولة وما كان يترتب عليها من اعـتماد على الطبيعة . هذا الاضطرار حقيـقة نفسية لها من الأهميـة ما جعل منها أحـد التعاليم الأساسيـة الرمزية فى الديانة المسيحية ؛ وهى التضحية بالإنسان الطبيعى الصرف ، أى بالكائن الساذج غيـر الواعى الذى بدأ حياته المأسـاوية بأكل التفاحـة من الفردوس . إن سقوط الإنســان الذى ترويه التوراة يظهر انبثاق فـجر الوعى على أنه لعنة والحق إننا فى هذا الضوء ننظر إلى كل مشكلة تجبرنا على مزيد من الوعى وتبعدنا عن فردوس الطفولة غير الواعية . من منا من لا يحلو له التهرب من مـشاكله ؛ ولو أمكنه الامـتناع عن ذكـرها لامتنع ، بل لأنكر حـتى وجودها . بودنا لو نجـعل حياتنا بسيطة ، أكـيدة ناعمة - ولهـذا السبب عدت المشاكل من المحرمـات (= تابو) . وإننا نتخيّر اليقين على الشك ، والنتـائج على التـجارب ، حـتى بدون أن نرى أن اليـقين لا ينشـأ من الشك، والنتـائج إلا من التجـارب. والحق إن التنكر للمـشكلة لا يورثنا القناعة ؛ وإنما تتطلب منا وعيًا أكبر وأعلى يمنحنا اليقين والوضوح اللذين نحتاج إليهما .

هذه المقدمة ، على طولها ، ضرورية لكى نبين طبيعة الموضوع الذى نتناوله ، وعندما يتعين علينا أن نعالج المشاكل ، نجدنا مضطرين بالغريزة إلى رفض تجربة الطريق الذى يفضى بنا إلى الظلام والغموض . لا نريد أن نسمع إلا النتائج التى لا يشوبها التباس ، ونريد أن ننسى تمامًا أن هذه النتائج لا يمكن حصولها إلا إذا أدلجنا فى الظلام ثم خرجنا منه . ولكى ندلج فى الظلام لابد لنا من أن نستجمع جميع قوى النور التى تتيحها لنا الواعية ؛ أى نطلق العنان لتأملاتنا ، كما سبق أن قلت . ذلك أننا فى معالجتنا لمشاكل الحياة النفسية نقع دائمًا على مسائل مبدأ ، تعود إلى الميادين الخاصة بأكثر فروع المعرفة اختلافًا ، فنزعج رجل اللاهوت ونغضبه بما لا يقل عن إزعاجنا للفيلسوف وإغضابه ، والطبيب بما لا يقل عن المعلم ، بل إننا نتلمس لنا طريقًا فى ميدان العالم البيولوجى والمؤرخ. هذا المسلك المسرف لا ينبغى لنا أن نرده إلى غطرستنا ، بل إلى كون النفس البشرية مركبًا فريدًا من عوامل تشكل بدورها موضوعات خاصة ذات خطوط من البحث بعيدة المدى . ذلك أن الإنسان ينتج علومه من نفسه ومن تكوينه المميز . فهى أعراض من نفسه .

ولذلك لو سألنا أنفسنا السؤال الذى لا مفر لنا منه «لماذا كان للإنسان مشاكل من دون الحيوان ؟» ، لدخلنا فى شبكة لا انفكاك منها من الأفكار التى تفتقت عنها أذهان الآلاف من أصحاب المواهب العالية على مر القرون . لن أقوم بأعمال «سيزيف» حيال هذه المربكة ؛ وإنما

سأحـاول أن أدلى بدلوى فى جـملة محـاولات الإنسان الإجـابة عن هذا السؤال الأساسى .

لا مشكـلة بلا وعى . ولذلك ينبغى لنا أن نصـوغ السؤال بطـريقة أخرى : كيف ينشأ الوعى ؟ ما من أحد يستطيع أن يجيب الجواب اليقين عن هذا السؤال ؛ وإنما بوسـعنا ملاحظة الأطفال الصغـار وهم فى سياق اكتسابهم للوعى . بوسع كل من الوالدين أن يرى ذلك لو أعاره انتباهًا. وهذا ما نستطيع مـلاحظته : عندما «يعرف» الولد شخصًا أو شـيئًا نشعر أن قـد صـار عنده وعى . ولا شك أن هذا يفـسـر لنا لماذا حـملت إلينا شجرة المعرفة فى الفردوس مثل هذه الثمرة المشؤومة .

لكن ما هى المعرفة بهذا المعنى ؟ نقول إننا «نعرف» شيئًا عندما نوفّق إلى ربط مفهوم جديد بسياق قـائم من قبل بطريقة تجعلنا نضع فى واعيتنا لا المفهوم الجـديد وحده ، بل سياقه أيضًا . ولذلك تقـوم «المعرفة» على رابطة واعيـة فيما بين المحتـويات النفسيـة . لا معرفة بلا ربط فـيما بين المحتويات ، لأننا يمتنع علينا عندئذٍ أن نعيها . أول طور من أطوار الوعى يمكننا ملاحظتـه يتألف من مجرد الربط بين مـحتويين نفسـيين أو أكثر . وعند هذا المستوى ، تكون الواعية شيئًا متفرقًا ليس أكثر ، باعتبار أنها لا تمثل إلا بضع روابط ؛ وأمـا المحتـوى فـلا نستـذكره بعـد ذلك . ومن الحقـائق المقررة أن الذاكـرة المتصلة لا وجود لهـا فى السنوات الأولى من الحيـاة ؛ وفى أفضل الأحوال ، لا يوجـد إلا جزر من الواعـية أشبـه ما

تكون بمصابيح منفردة ، أو أشياء مضيئة ، فى أعماق الظلام . لكن هذه الجزر من الذاكرة ليست هى نفس الروابط الأولية فيما بين المحتويات النفسية ؛ إنها تحتوى على شىء أكثر وشىء أجدّ . هذا الشىء هو هذه السلسلة البالغة الأهمية من المحتويات النفسية التى تشكل ما ندعوه «الأنا» أو «الأنيّة» . والأنيّة - شأنها كشأن سلسلة المحتويات الأولية تمامًا - إنما هى موضوع فى الواعية ، ولهذا السبب يتحدث الطفل عن نفسه فى بادئ الأمر بصورة موضوعية ، بصيغة الغائب .. ولا ينشأ الشعور بالذاتية إلا فى وقت متأخر ، بعد أن تكون المحتويات الأنيّة قد شحنت بطاقة خاصة بها (ويحتمل جدًا أن يكون هذا نتيجة للدُربه والمران) . ولا شك أن هذه هى اللحظة التى يبدأ فيها الطفل بالتحدث عن نفسه بصيغة المتكلم . عند هذا المستوى تتشكل بداية الذاكرة المتصلة . ولذلك هى استمرار للذكريات الآنيّة بصفة أساسية .

فى المرحلة الطفولية من الوعى ليس ثمة من مشكلة ؛ لا شىء يتوقف على الذات ، لأن الطفل نفسه يظل يعتمد كليًا على أبويه . فكأنه لم يولد بعد تمامًا ، بل يظل محاطًا بجو أبويه النفسى . إنما تحدث الولادة النفسية ، ومعها الشعور بتميّز الآنيّة عن الأبوين ، فى مجرى الأشياء الطبيعى ، فى سن المراهقة وما يرافقها من انفجار فى الحياة الجنسية . فالتغير الفيزيولوجى يصاحبه تغير نفسى (ثورة نفسية) . ذلك أن مختلف الظواهر الجسمانية تمنح الأنيّة نوعًا من التوكيد يجعلها تؤكد نفسها بدون حدّ ولا قيد . وهذا ما يسمى أحيانًا بـ «السن التى لا تطاق» .

حتى بلوغ هذا الطور تظل حياة الفرد النفسية محكومة بنوازع الغريزة ولا تصادف من المشاكل إلا أقلها ، أو هى لا تصادف مشاكل على الإطلاق . وحتى حين تعترض القيود الخارجية سبل النوازع الذاتية ، لا تجعله هذه القيود فى نزاع مع نفسه . إنه حتى الآن لا يعرف حالة التوتر الداخلى الذى تجلبه المشكلة . ولا تنشأ هذه الحالة من التوتر إلا عندما يصبح القيد الخارجى عقبة داخلية ؛ أى عندما يتعارض مع نازع آخر . وباعتماد المصطلح السيكولوجى : الحالة التى تثيرها المشكلة - حالة أن يكون المرء فى نزاع مع نفسه - إنما تنشأ عندما تظهر إلي الوجود ، إلى جانب سلسلة المحتويات الأنيّة ، سلسلة ثانية تساويها فى الشدة . لهذه السلسلة الثانية ، بما تشتمل عليه من طاقة ، أهمية وظيفية تساوى أهمية العقدة الأنيّة ، حتى ليمكننا أن ندعوها «أنيّة ثانية» ، إذ تستطيع فى حالة معينة أن تنتزع القيادة من الأولى . إن من شأن هذا أن يُحدِث ابتعاداً عن النفس ؛ وهو الحالة التى تنذر بوقوع المشكلة .

نوجز ما تقدم بما يلى : الطور الأول من الوعى يتكون من التعرف أو المعرفة هو حالة من الفوضى أو العماء . والطور الثانى ، وهو طور نشوء العقدة الأنيّة ، هو طور الأحادية ، أما الطور الثالث فهو خطوة أخرى نحو الوعى ، ويتكون من معرفة المرء نفسه بحالته المنقسمة ، وهو طور الثنائية أو الازدواجية .

وهنا نبدأ موضوع بحثنا ، وأعنى به مسألة مراحل الحياة وأطوارها . قبل كل شىء ، ينبغى لنا أن نتناول مرحلة الشباب . وتمتد هذه المرحلة بصورة تقريبية ابتداء من السنوات التى تعقب سنىّ المراهقة مباشرة حتى منتصف العمر ، الذى يمتد بدوره بين سن الخامسة والثلاثين وسن الأربعين .

ورب سائل يقول لماذا اخترت البدء بالمرحلة الثانية من الوجود البشرى . أليس فى سن الطفولة مسائل صعبة ؟ والحق إن حياة الطفل النفسية المعقدة مشكلة فى الدرجة الأولى من الأهمية فى نظر الآباء والمعلمين والأطباء . لكن الطفل إن كان سوياً فليس عنده مشاكل حقيقية خاصة به . إنما تنشأ المشاكل عندما يشب الكائن البشرى عن الطوق وتخامره الشكوك حول نفسه ويغدو فى نزاع معها .

نحن جميعًا نعرف حق المعرفة من أين تنشأ المشاكل فى مرحلة الشباب . فمطاليب الحياة بصورة عامة تضع حدًا لأحلام الطفولة لدى غالبية الناس ، فإن كان الفرد قد أعد إعدادًا كافيًا ، كان انتقاله إلى الحياة المهنية انتقالاً هادئًا . أما إذا كان متعلقًا بأوهام تتناقض مع الواقع ، فلا مفر عندئذ من وقوع المشاكل . ما من أحد يخطو خطوة فى هذه الحياة إلا وعنده مسلّمات معينة - وقد تكون هذه المسّلمات خاطئة أحيانًا ؛ أى ربما كانت لا تتناسب مع الظروف التى يجد المرء فيها ؛ وهى غالبًا ما تكون تمنيات أو آمالاً بولغ فيها ، أو مصاعب قللنا من أنها ، أو تفاؤلاً ليس له

ما يسوّغه ؛ أو قد تكون موقفًا سلبيًا . وبإمكاننا إعداد قائمة بالمسلمات التى كانت سببًا فى أولى مشاكل الوعى .

لكن المشاكل لا تنشأ دائمًا عن التضارب بين المسلمات الذاتية والوقائع الخارجية وحسب ، وإنما قد ينشأ أيضًا عن اضطرابات داخلية ، مثلما هو عليه الحال فى الغالب . فقد تنشأ حتى حين تجرى الأمور فى العالم الخارجى بصورة طبيعية تمامًا . إذ غالبًا ما تنشأ المشاكل عن اختلال فى التوازن النفسى سببه الدافع الجنسى ؛ وربما يساوى الدافعَ الجنسى الشعورُ بالنقص الذى ينبع من حساسية مفرطة .

وقد توجد هذه الصعوبات الداخلية حتى يكون التكيف مع العالم الخارجى قد تحقق بدون جديد ظاهر ؛ بل وحتى حين يبدو الشباب الذين اضطروا إلى خوض كفاح مرير فى سبيل الوجود لا يعانون من مشاكل داخلية ، على حين أن الذين كان تكيفهم ، لهذا السبب أو ذاك ، قد جرى رخوًا رهوًا ، يعانون من مشاكل جنسية أو من نزاعات نشأت عن شعورهم بالنقص .

ومن الناس من لهم أمزجة خاصة تخلق لهم المشاكل ؛ وهؤلاء ، فى الغالب ، أناس معصوبون (= مصابون بالعصاب) . لكن من سوء الفهم الخطير خلط هذه المشاكل بالعُصاب . فثمة فرق كبير بين الاثنين : المعصوب مريض لأنه يجهل مشاكله ولا يعرف بها ، بينما صاحب المزاج يعانى من مشاكل يعرفها ويشعر بها ، لكن دون أن يكون مريضًا .

ولو نحن ذهبنا نحاول استخلاص العوامل الأساسية التى تتفرع عنها المشاكل التى نجدها فى طور الشباب ، لوجدنا فى جميع الحالات سمة خصوصية : تعلقًا متفاوت الظهور بالمستوى الطفولى من الوعى ، وتمردًا علي القوى الحاسمة فينا وفيما حولنا ، التى تميل إلى زجّنا فى العالم . إن شيئًا فينا يريد أن يظل طفلاً ، أو غير واعٍ ، أو واعيًا - فى أبعد الأحوال - على الأنيّة فقط ؛ هذا الشىء لا يريد منا أن ننفعل شيئًا أن ننغمس فى شهوتنا إلى اللذة أو السلطة . نلاحظ فى هذا الميل شيئًا أشبه ما يكون بعطالة المادة ، وهو أن نبقى على حالة ، ما زالت موجودة حتى الآن ، ذات مستوى من الوعى أصغر من الوعى فى طور الثنائية أو أضيق أو أكثر أنيّة منه . ذلك أن الإنسان فى هذا الطور مضطر لأن يعترف ويقبل ما هو مختلف وغريب عنه وأن يعتبره جزءًا من حياته بالذات ، نوعًا من «وأنا - أيضًا» أو من «وأنا - كمان» ! .

إن اتساع أفق الحياة هو السمة الأساسية فى طور الثنائية الذى نتصدى له بالمقارمة . ومن الثابت أن هذا الاتساع يبتدىء قبل زمن هذه المرحلة ؛ فهو يبتدىء عند الولادة ، فى اللحظة التى يغادر فيها الجنين رحم أمه الضيقة ، ثم يأخذ فى الاتساع شيئًا فشيئًا حتى يبلغ نقطة حرجة من تلك المرحلة عندئذٍ يبدأ بمقاومته بعد أن تحدق به المشاكل من كل جانب .

ماذا يحدث لو تغير هذا الإنسان وزصبح تلك «الأنيّة الأخرى» الغريبة ، بعد أن تكون «الأنيّة الأولى» قد تلاشت فى غيابة الماضى ؟

ولعلنا نحسب هذا الأمـر قابلاً للحدوث . والحق إن الهدف الحـقيقى من التعليم الدينى ، بدءًا من الحض على التخلص من «آدم القديم» ، رجوعًا فى الزمان إلى طقوس الولادة الجديدة لدى الأقوام البدائية ، إنما هو تحويل الكائن البشرى إلى إنسان مستقـبلى جديد ، وتهيئة فرص الانقراض أمام أشكال الحياة القديمة .

يعلمنا علم النفس أنه ،بمعنى ما ، لا يوجـد فى النفس شىء قديم، وفى نفس الوقت لا شىء يتلاشى نهائيًا فى الواقع . حتى القديس بولس لم يُترك بدون شـوكة فى الجـسد . ومن يقِ نفـسه من الجديـد والغريب وينكفىء إلى الماضى ، يقع فى نفس الحـالة العُصابية التى يقع فيـها من يتواحد مع الجديد ويهرب من الماضى . والفرق الوحيد بينهما أن أحدهما انفصل عن الماضى ، والآخـر انفصل عن المسـتقبل . من حـيث المبدأ ، كلاهما يفعل نفس الشىء ؛ كلاهما ينقذ حالة ضيقة من الوعى . والخيار هو كسر هذه الحالة بواسطة التوتر الكامن فى اصطراع الأضداد – فى طور الثنائية – وعندئذٍ تنشأ حالة من الوعى أوسع وأرقى .

لو أمكن الوصول إلى هذه النتيجة فـى المرحلة الثانية من الحياة لكان الأمر مثاليًا – لكن هنا المشكلة ، لسبب واحد هو أن الطبيعة لا تهتم أبدًا بمستـوى أعلى من الوعى ؛ إنما الأمـر عندها هو على العكس من ذلك . ثم إن المجتمع لا يقدر تقديرًا عاليًا هذه المآثر التى تجرى فى داخل النفس،

فهـو يمنح جوائزه دائمًا للأعـمال لا للأشخـاص - هؤلاء يُكافؤون ، فى القـسم الأعظم ، بـعـد الموت . وإن كـان الأمـر كـذلك ، كـان الحل المخصـوص لهذه المشكلة أمرًا اضطـراريًا : نحن مضطرون إلى الاقتـصار على ما هو فى متناولنا وإظهار استعدادات مخصوصة ، لأننا بهذه الطريقة نستطيع اكتشاف وجودنا الاجتماعى .

العـمل والمنفعـة وما أشـبـه ذلك هـى المثل العليـا التى يبدو أنهـا تنتشلنا من اختلاط المشاكل المتـزاحمة ؛ وربما تكون هى نجمنا القطبى فى مغامرة امتداد وجودنا النفـسى وتصليب عوده ، ولعلها تعيننا على ضرب جذورنا فى العالم ؛ لكنها لا تستطيع أن تفضى بنا إلى تنمية واعيتنا التى أعطيناها اسم الثقـافة . على أى حال ، إن هذا هو المجرى الطبـيعى فى طور الشـباب ، وهو فى جمـيع الظروف خيـر من التخـبط فى مُضطَرَب المشاكل .

ولذلك يتم حل المشـكلة على الوجـه التـالى : كل مـا يعطينا إياه الماضى يتكيف تبعًا لإمكانيات المسـتقبل ومتطلباته ، فنقتـصر على ما هو فى متناولنا ؛ وهذا يعنى أننا نستبعد جميع الإمكانيات الأخرى : فإنسان يفقد جـزءًا قيّمًا من ماضيه ، وآخـر جزءًا قيّمًا من مستـقبله . وما منا لا يتذكـر أصدقاء له أو زمـلاء دراسة كانوا يبـشرون بمسـتقبل مـثالى حين يصيرون فى سن الشـباب ، ولكن عندما التقينا بهم فـيما تلا من السنين

وجدناهم قد يبس عودهم وانحسروا فى قالب ضيق . هؤلاء أمثلة على الحل الذى أشرنا إليه .

غير أن المشاكل الخطيرة فى الحياة لا تنحل بصورة نهائية أبدًا ، وإذا بدت لنا أنها كذلك ، كان معنى ذلك أننا أضعنا شيئًا . إن معنى المشكلة وتصميمها لا يكمن فى حلها ، وإنما فى العمل الدائب على حلها، وهذا وحده يحفظنا من السخف والتحجر . وهذا ينطبق أيضًا على حل المشاكل المتعلقة بطور الشباب ، وهو الحل الذى ينهض على الاقتصار على ما هو فى متناولنا ؛ لكن مفعوله غير دائم ولا يسرى إلا مؤقتًا بمعنى أعمق . طبعًا ، أن نحتل مكانة فى المجتمع ، وأن نغير من طباعنا تغييرًا يتلاءم كثيرًا أو قليلاً مع هذا الوجود ، لهو عمل بالغ الأهمية فى كل الأحوال . إنه صراع نخوضه مع أنفسنا كما نخوضه مع العالم الخارجى، وهو أشبه ما يكون بصراع الطفل دفاعًا عن أنيّته . ويجب أن نسلم بأن هذا الصراع غير ملحوظ ف معظمه لأنه يحدث فى الظلام ؛ غير أننا عندما نرى أوهام الطفولة وسوابق أفكارها وعاداتها الأنانية كيف تظل تتشبث عنيدةً فيما يليها من السنين – عندئذ ندرك مدى الجهد الذى بذلته فى تكوينها . ثم إن هذا ينطبق أيضًا على المثل العليا والمعتقدات والأفكار التى ترشدنا وعلى المواقف التى نخرج بها إلى الحياة – التى فى سبيلها نقاتل وفى سبيلها نتألم ونحرز الانتصارات : إنها تنمو بنمونا ، حتى إنها لتصير إيّانًا ظاهريًا ، لذلك نؤبّدها مسرورين ونعدها من الأمور

البديهية ، تمامًا مثلما يؤكد الطفل أنيّته فى وجه لعالم رغم أنفه - وأحيانًا على رغم أنف نفسه ! .

كلما دنونـا من منتصف العمـر ، وأفلحنا فى تحصين أنـفسنا داخل منطلقاتنا الشخصية ومركزنا الاجـتماعى ، بدا الأمر لنا كما لو أننا عرفنا الطريق الصحيح والمثل العليـا ومبادىء السلوك القويم ، فنحسبـها صالحة للأبد ، ونجعل من التـمسك بها إحدى فضـائلنا . نحن نغضى كلياً عن الحقيـقة الأساسية ، وهى أن المآثر التى يكافـئنا عليها المجتـمع إنما نجنيها على حسـاب الانتقاص من شخـصيتنا . إن جـوانب كثيرة من الحـياة ، وكان ينبغى لنـا أن نختبرها ، تظل قابعـة فى بيت المؤونة بين الذكريات التى تراكم عليها الغـبار . حتى إنها لتكون فى أكثر الأحـيان نارًا موقدة تحت الرماد .

تظهـرنا الجـداول الإحصـائيـة على زيادة تكرار حـالات الكآبة عند الرجال الذين بلغـوا سن الأربعين أو دَنَوا منها . أما النساء فـتبدأ عندهن المتاعب العصابية بوجه عام فى سن مبكرة بعض الشىء . فى هذه المرحلة من الحياة - بين الخـامسة والثلاثين والأربعين - نرى فى النـفس البشرية تغيرًا كبـيرًا يجرى إعداده . فى أوله ، لا يكون التغيـر شعوريًا ظاهرًا ، بل علامـات غير مبـاشرة على تغير يبـدو أنه يصعد من الخافـية (= اللا شعور) . وفى الغالب يكون أشبه بتغـير بطىء فى شخصية الفرد ، وفى حالات أخرى ربما تعود إلى الظهور ملامح بعـينها كانت اختفت منذ سن

الطفولة ؛ أو تبدأ تضعف بعض الميول والاهتمامات ، لكى تنهض ميول واهتمامات أخرى تحل محلها . كذلك كثيرًا ما يحدث أن تتصل المعتقدات والمبادىء التى سلمنا بها حتى ذلك الحين وتقسو إلى حد تصل معه إلى التعب وعدم التسامح ؛ وهذا يحدث عند نقطة ونحن ندلف إلى الخمسين . عندئذٍ يبدو الأمر لنا كما لو أن وجود هذه المبادىء قد تعرّض للخطر ، فيصبح من الضرورى تثبيتها وتقويتها .

نبيذ الشباب لا يظل صافيًا مع تقدم السن ، بل غالبًا ما يتكدّر صفوه. وبوسعنا أن نرى جميع المظاهر التى ذكرناها لتوّنا تطفو إلى الأعلى عاجلاً أحيانًا وآجلاً أحيانًا أخرى ، وهى على أوضح ما تكون عند الأحاديين . وعندى أن تأخر ظهورها غالبًا ما يرجع إلى بقاء الأبوين على قيد الحياة . وعندئذٍ تكون الحال كما لو أن فترة الشباب قد استمرت على خلاف الأصول . لقد عانيت هذا بصورة خاصة فى حالات أناس عمر آباؤهم طويلاً ، حتى إذا مات الأب كان لموته فعل النضج السابق لأوانه الذى كاد أن يكون أمرًا مفجًا .

أعرف رجلاً تقيًا كان يعمل راعى كنيسة ؛ لما جاوز الأربعين أخذ يبدى تشددًا لا يطاق فى أمور الأخلاق والدين ، وصار فى نفس الوقت حادّ المزاج بشكل ظاهر ؛ ثم أمسى ليس أكثر من «عمود الكنيسة» المنخفض القابع فى الظلام . وظل ماضيًا على هذا المنوال حتى بلغ الخامسة والخمسين حين استيقظ فجأة فى إحدى الليالى وقال لامرأته :

«الآن عرفت أخيرًا . . ما أنا فى الحقيقة إلا وغد !» لكن هذه المعرفة الذاتية لم تبق بدون آثار . لقد أنفق سنىّ عمره الأخيرة فى حياة صاخبة بدّد فيها شطرًا كبيرًا من ثروته . من الواضح أنه شخص ظريف جدًا ، قادر على الاستقصاء فى كلا الاتجاهين .

إن لتكرار الاضطرابات العُصابية هذه السمة العامة كلما تقدم العمر بالإنسان : تفضح محاولة نقل الميول النفسية الشبابية إلى ما وراء وصيد سن التمييز ، مَن منا لا يعرف أولئك الشيوخ الظرفاء الذين ألزموا أنفسهم دائمًا بتسخين طبق أيام الدراسة وإيقاد شعلة الحياة فى ذكريات بطولة أيام الشباب ويلتزمون جهالةً ميؤوسًا منها فيما تبقى لهم من العمر؟ هؤلاء ليسوا بمعصوبين ، بل ثقيلون متجمدون . لأن المعصوب شخص لا يتسطيع أبدًا أن تكون له الأشياء كما يريد أن تكون فى الحاضر، فهو بالتالى لا يستطيع أن يستمتع بالماضى أبدًا .

والمعصوب كما أنه لم يستطع أن يتهرب من الطفولة فيما مضى ، كذلك هو الآن لا يستطيع أن يتخلى عن الشباب ؛ إنه يخاف من الأفكار الرمادية التى تشعره بتقدم سنّه ؛ وهو إذ يشعر بأن المستقبل أمامه أمر لا يُحتمل . نجده يجهد دومًا لأن ينظر إلى الخلف . وكما أن الشخص الطفولى يخشى من المجهول فى العالم وفى الوجود البشرى ، كذلك يخشى من تقدمت به السن النصف الثانى من الحياة ؛ إذ يبدو له الأمر كما لو أن مهمات مجهولة تحف بها المخاطر مطلوب منه أن يقوم بها ، أو

كما لو أن حياته تبدو له حتى الآن حياة جميلة غالية لا يمكنه الاستغناء عنها .

ألعله - فى العمق - خوف من الموت ؟ إن هذا لا يبدو لى أمراً محتملاً جداً ؛ لأن الموت لم يزل بعيداً ؛ ولذلك لا ينظر إليه إلا فى ضوء مفهوم تجريدى . تُظهرنا الخبرة على أن الأساس والسبب فى جميع صعوبات هذه النقلة إنما يكمنان فى تغير عميق ومميز يحدث فى داخل النفس . ولكى أصف هذا التغير أشبهه بمجرى حركة الشمس اليومية - لكنها شمس لها مشاعر الإنسان وواعيته المحدودة . فى الصباح ، تشرق الشمس من قلب بحر الليل ، بحر الخافية (اللاشعور) ، وتطل على العالم المتألق الذى يمتد أمامها على مسافة تتسع باطّراد كلما علت فى كبد السماء . وهى ، إذ توسّع ميدان فعلها كلما علت ، تدرك أهميتها وترى أن هدفها هو الوصول إلى أعلى ارتفاع ممكن حتى تُشيع بركاتها على أوسع نطاق . بهذا الإيمان تواصل سيرها غير المؤمل حتى تصل إلى السمت ؛ وهو سير غير مؤمّل لأن سرعته وحيدة فريدة ، ولا يمكن احتساب أعلى نقطة فيه مقدّمًا . حتى إذا كان الظهر بدأت بالنزول . والنزول معناه عكس الأهداف والقيم التى كانت عزيزة غالية عند الصباح؛ وعندئذٍ تقع الشمس فى تناقض مع نفسها ، حتى ليُمسى الأمر كما لو أن عليها أن تسحب أشعتها إلى الداخل بدلاً من إصدارها ، فلم يلبث النور والدفء حى يخفتا وينطفئا فى نهاية المطاف .

كل تشبيه أعرج ؛ وهذا التشبيه لا يقل عرجًا عن غيره . ثمة حكمة فرنسية توجز لنا ذلك فى نوع من الإذعان الساخر : ليت الشباب يدرى، وليت الشيخوخة تقدر ! .

لحسن الحظ ، نحن البشر لسنا شموسًا تطلع وتغيب ، وإلا لكُنّا رحلنا بعيدًا عن قيمنا الثقافية . إلا أن فينا شيئًا يشبه الشمس ؛ فالكلام عن الصباح والربيع ، وعن المساء والخريف ، ليس مجرد رطانة عاطفية . فنحن بهذا لا نعبر عن حقيقة سيكولوجية وحسب ، وإنما عن حقيقة فيزيولوجية أيضًا ؛ ذلك لأن الانقلاب عند الظهيرة يغير حتى من صفاتنا الجسمانية . ويمكننا أن نلاحظ عند شعوب الجنوب بصفة خاصة أن المرأة العجوز يخشن ويعمق صوتها ويطرّ شاربها وتقسو ملامح وجهها وتتسم بغير ذلك من سمات الذكورة . كما نلاحظ ، من ناحية ثانية ، أن الطبيعة المذكرة عندهم تخفف منها ملامح أنثوية كالسمنة ونعومة قسمات الوجه .

فى الأدب الأثنولوجى حكاية تروى عن قائد حرب هندى لما بلغ منتصفِ العمر ظهر عليه «الروح الأعظم» فى المنام وطلب منه منذ ذلك الحين فصاعدًا أن يجلس بين النساء والأطفال ، وأن يرتدى ملابسهن ويأكل من طعامهن ؛ فامتثل للأمر بدون أن يفقد شيئًا من هيبته . إن هذه الرؤيا تعبر تعبيرًا صادقًا عن الانقلاب النفسى الذى يحدث للإنسان فى ظهيرة الحياة ، أوعند بداية انحدارها . فقيم الإنسان ، بل وحتى جسمه ، كل ذلك يميل إلى الخضوع للانقلاب نحو النقيض .

يمكننا تشبيه الذكورة والأنوثة ومكوناتهما النفسية بمخزن استنفدت منه في النصف الأول من الحياة مقادير غير متساوية. فالرجل يستنفد مخزونًا ضخمًا من مادة الذكورة، ويتعين عليه الآن أن يستعمل القليل الباقي من مادة الأنوثة. وما يجري مع المرأة هو العكس تماما، فهي تتيح لمخزونها المهمل من مادة الذكورة أن ينشط في أواخر أيامها.

وترجح كفة هذا التحل في مجال النفس بأكثر من رجحانها في مجال الفيزياء. فكثيرا ما يصادفنا امرؤ في الأربعين أو الخمسين يترك عمله وتقوم امرأته بارتداء البنطلون وتفتح حانوتًا صغيرًا تؤدي فيه أعمالاً تتطلب منها مهارة يدوية في بعض الأحيان. ومن النساء من لا يكترثن بالمسؤولية الاجتماعية ولا يستيقظ فيهن الوعي الاجتماعي إلا بعد سن الأربعين. ولقد بات من الشائع جدًا في الحياة العملية الحديثة - ولاسيما في الولايات المتحدة أن يحدث للناس انهيار عصبي في سن الأربعين أو بعده. ونحن لو درسنا ضحايا هذا الانهيار عن كثب لوجدنا أن الشئ الذي انهار إنما هو الأسلوب المذكر في الحياة الذي ظل يحتل الساحة حتي الآن؛ وأما الباقي فرجل مؤنث. وفي الاتجاه المعاكس يمكننا ملاحظة النساء في نفس هذه المجالات من العمل وقد نمين في الصف الثاني من الحياة ذكورة غير شاسعة وصرامة تلقي المشاعر والقلب علي قارعة الطريق. وما أكثر ما يكون هذا الانقلاب مصحوبًا بجميع أنواع الكوارث الزوجية؛

إذ ليس من الصعب أن نتصور ما يحدث عندما يكتشف الزوج مشاعره الرقيقة ، والزوجة ذكاءها الحاد .

ولعل أسوأ من هذا كله أن تكون هذه الميول عند أناس مثقفين وأذكياء لكنهم لا يعرفون شيئًا حتى عن إمكانية حصول مثل هذه التحولات ، فنجدهم يخضون غمار النصف الثانى من الحياة وهم عزّل من السلاح تمامًا ، أو لعله يوجد كليات لمن هم فى سن الأربعين تعدهم لما تبقى لديهم من العمر ومتطلباته مثلما تقوم الكليات العادية بإعداد الشباب لمعرفة العالم والحياة ؟ كلا ، لا يوجد ولا واحدة . فنحن نخطو خطواتنا فى «عصر» الحياة ونحن عزّل تمامًا . وشرٌ من ذلك أننا نتخذ هذه الخطوات ومعنا سوابق افتراضات خاطئة بأن حقائقنا ومثلنا العليا سوف تظل تخدمنا كما خدمتنا حتى الآن . لكننا لا نستطيع أن نعيش «عصر» الحياة طبقًا لبرنامج «صبح» الحياة ؛ لأن الذى كان كبيرًا عند الصباح أمسى صغيرًا عند المساء ، وما كان صدقًا صباحًا أمسى كذبًا مساءً . لقد بلغ من توليت معالجتهم ونقبت فى حجرات نفوسهم السخية ، ممن كانوا فى سن متقدمة ، من الكثرة حدًا يمنعنى من ألا أتأثر بهذه الحقيقة الأساسية .

على من تقدمت به السن أن يعلم أن حياته غير سائرة صُعُدًا ، ولا هى ماضية فى التفتح ؛ إنما عليه أن يعلم أن ثمة سياقًا داخليًا عنيدًا يفرض على الحياة أن تتقلص . فالشاب يكاد أن يأثم ، لا بل من الخطر

عليه ، إذا هو أسرف فى الإنشغال بنفسه ، بينما الكهل من واجبه بل من الضرورى له أن يمنح نفسه اهتمامًا جادًا . فالشمس ، بعد أن تكون قد أرقت ضياءها سخيّة على العالم . تعود فتلملم أشعتها لكى تضىء نفسها. كثير من الشيوخ ، بدلاً من أن يفعلوا ذلك ، يفضلون الاهتمام بصحتهم حتى الوسوسة ، أو هم يصابون بداء البخل ، أو يصبحون نظريين غير عمليين ، أو مهللين للماضى ، أو مراهقين إلى الأبد - كل هذه تعويضات يرثى لها عن إنارة نفوسهم ؛ لكنها آثار لابد منها تنتج عن التوهم بأن النصف الثانى من الحياة يجب أن تحكمه مبادىء النصف الأول .

قلت لتوّى إن لدينا مدارس لمن بلغوا سن الأربعين ، لكن هذا القول غير صحيح تمامًا . فأدياننا كانت على الدوام هى هذه المدارس فيما مضى؛ لكن كم منّا من يعتبرها اليوم كذلك ؟ كم منا نحن ، الطاعنين فى السن، مَن تربّى وتَنَشّأ فى هذه المدارس ، وتم إعداده من أجل النصف الثانى من الحياة ، ومن أجل الشيخوخة ، ومن أجل الخلود ؟

إن الكائن البشرى ما كان ليبلغ سن السبعين أو الثمانين لو لم يكن لهذا العمر الطويل معنى بالنسبة إلى النوع الذى ينتسب إليه . إن «عصر» الحياة البشرية أيضًا يجب أن يكون له معنى خاص به ، ولا يمكن القبول به هدفًا عندما يكون الوجود بالغ الشقاء إلى حد يطيب لنا معه أن نضع له نهاية . أو عندما نكون مقتنعين بأن الشمس تسعى إلى غروبها - ،

لكى تنير أقوامًا بعيدين - ، بنفس العزيمة التى تبديها وهى ترتفع فى كبد السمـاء . لكن الإيمان اليوم قد أضـحى فنًا بالغ الصعوبة حـتى لقد بات الناس معه ، ولا سيما المثـقفين ، لا يكادون يجدون طريقهم إليه . لقد أدمنوا عادة التـفكير أن المسائل المتعلقـة بالخلود ، الآراء متضاربة بشـأنها وليس عليها براهين مقنعة . وحين أصبح «العلم» هو الشعار الذى يحمل وزن القناعة فى عالمنا المعاصر ، رحنا نطالب ببـراهين علمية لكن المثقفين القادرين على التـفكير يعلمون أن البرهان على شيء من هذا القـبيل ليس له محل الإطلاق ، لأننا لا نعرف عنه شيئًا .

بودى أن أشير هنا إلى أننا ، لنفس السـبب ، لا نستطيع أن نعرف إن كان يحدث شيء لشخص بعـد موته . لا نستطيع الجواب لا سلبًا ولا إيجابًا . كل ما فى الأمر أننا لا نملك عليه براهين علمية محددة على نحو أو آخر ؛ ولـذلك نجدنا فى نفس الموقع عندمـا نتسـاءل إن كان كـوكب المريخ آهلاً بالسكان أم لا . وسكان المريخ ، إن وجدوا ، لا يـعبؤون إن كنا نثـبت أو ننفى وجودهم . فـقد يكونون موجـودين أو لا يكونون . وهذا هو موقفنا من مسألة الحياة بعد الموت - وهى مسألة يمكننا أن نصرف النظر عنها .

لكن هنا يسـتـيقظ فىّ وجـدان الطبـيب ويحملنـى على قول كلمـة جوهرية فى هذه المسـألة . لقد لاحظت أن الحياة الهـادفة هى بعامـة خير للمرء أن يواكب الزمن فى جريانه من أن يسـير بعكسه إلى الخلف . فى

نظر الطبيب ، الرجل العـجوز الذى لا يستطيع توديع الحيـاة يبدو هزيلاً ومعتلاً فى مثل الهزال والاعـتلال الذى يبدو على الشاب الذى لا يستطيع أن يعانق الحـياة . والحق إن المسـألة فى أكثـر الحالات هى مسـألة نفس الشهوة الصبيانية ونفس الخـوف ونفس العناد والرغبة الطاغية عند أحدهما كمـا هى عند الآخر . وإنى ، وأنا الطبيـب ، لعلى قناعة بأن اكتـشاف هدف فى الموت بوسع المرء أن يسعى إليه لهـو أمر صحى إن كان لى أن أستعمل هذه الكلمة - ، وأن الانصراف عنه أمر مناف للصحة ، وإنه أمر غير طبـيعى ، من شأنه أن يسلب الغاية من النصف الثـانى من الحياة . ولذلك أعتبر التعليم الدينى المتعلق بالحياة بعد الموت موافقًا لمنطلق الصحة النفسيـة . أنا إن سكنت بيتًا وأنا عالم بأنه سوف ينـهدّ على رأسى بعد أسبوعين ، تصـبح جميع وظائفى الحيوية مـسكونة بهذه الفكرة ؛ أما لو شعرت بأننى فى مأمن ؛ فإن بإمكانى السكن فيه وأنا مطمئن ناعم البال. كذلك من الأمـور المرغوب فيهـا فى العلاج النفسى أن نعتـبر الموت نقلة ليس أكثر - جزءاً من سياق حياة ذات مدى ومدة لا تطالها معرفتنا .

رغم أن معظم الناس لا يعرفون لماذا تحتاج أجسامهم إلى الملح ، إلا أن كلاً منهم يطلبه لكى يلبى به حاجة غريزية . نفس الشىء ينطبق على أشيـاء النفس . منذ الأزمنة الغابـرة والسواد الأعظم من الناس يشـعرون بحاجة إلى الإيمان بديمومة الحياة . ولذلك تفـرض علينا مقتضيات العلاج ألا نسلك فى طرقـات فـرعيـة ، بل فى منتـصف الطريق الذى سلكتـه

البشرية ، وبذلك يكون تفكيرنا صحيحًا تمامًا فيما يتعلق بمعنى الحياة ، حتى وإن لم نفهم ما نحن نفكر فيه .

هل لنا أن نفهم ما نحن نفكر فيه ؟ إن التفكير الذى نفهمه عبارة عن معادلة : ما يخرج منه ليس سوى ما يدخل فيه . هذا هو عمل العقل لكن ما وراءه تفكير فى الصور البدئية ، فى الرموز الأقدم من الإنسان التاريخى ، المركوزة فيه منذ أقدم الأزمنة ؟ هذه الصور أو الرموز حية أبدًا على تعاقب الأجيال ، ومازالت تكون الأساس فى بنية النفس البشرية ، ولا يمكننا أن نحيا حياتنا كاملةً ما لم ننسجم مع هذه الرموز ، وإنه لمن الحكمة أن نعود إليها . فالمسألة ليست مسألة إيمان ، ولا مسألة عرفان ، بل هى موافقة تفكير مع الصور البدئية الخافية (= اللا شعورية) . إنها مصدر جميع الأفكار الخافية ؛ ومن هذه الأفكار البدئية فكرة الحياة بعد الموت . العلم وهذه الرموز لا يتكافآن . إنها الشروط التى لابد منها للخيال ؛ إنها المعلومات الأولية - المواد التى ليس يسع العلم أن ينكر ملاءمتها وصحة وجودها ارتجالاً . إذ ليس له أن يعاملها إلا على أساس أنها معطيات واقعية ، تمامًا مثلما يفعل عندما يكتشف وظيفة كوظيفة الغدّة الدرقية مثلاً . قبل القرن التاسع عشر ، كانت تعتبر الغدة الدرقية عضوًا لا معنى له ، لا شيء إلا لأنها لم تكن مفهومة . كذلك إن من قصر النظر أن نقول اليوم إن الصور البدئية لا معنى لها . وعندى إن هذه الصور أشبه شيء بأعضاء نفسية ، وإنى أعاملها بأقصى العناية ، يحدث

أحيانًا أن يملى علـى واجبى أن أقول لمريض متقـدم فى السن : «صورتك عن الله أو فكرتك عن الخلود ، ضـامرة ؛ وبالتالى اسـتقلابـك النفسى عاطل عن العـمل» . إن علاج الخلود القديم أكـثر عمقًا وأبعـد معنى مما يخيل إلينا .

وهنا أعود لحظة إلى تشـبيه الشمس . إن الدرجات المـائة والثمانين من قوس الحـياة يمكن تقسـيمهـا إلى أربعة أقـسام . الربع الأول ، وهو الواقع إلى الشرق ، طفولة ، وهى الحالة التى نخلق فيها المشاكل لغيرنا، دون أن نكون على وعى بمشكلاتنا الخـاصة . لأن المشكلات التى نعيـها هى التى تملأ الربعين الثانى والثـالث ؛ على حين أننا فى الربع الأخير ، فى نهاية الشيخوخة ، نعود فننحـدر إلى مستوى خلق المشكلات لغيرنا ، حين لا نكون فيها مبالين بحالة الوعى . الطفولة ونهاية الشيخوخة طوران مخلفان كل الاختـلاف ، لكن يجمعهما عنصر مشـترك : الانغماس فى الحوادث النفسية الخافية (= اللا شعورية) . ولما كان عقل الطفل ينشأ عن الخافيـة (= اللاشعور) ، كان سـياقاته النفسيـة - وإن كانت لا تفُهم فى يسر - ليـس من الصعب تبيّنـها مثلمـا هو من الصعب تبـيّن السيـاقات النفسيـة لدى الطاعن فى السن الذى عاد ثانية فغاص فى الخـافية ، وأخذ يتلاشـى فـيـها تدريجيًا . الطفولة والشـيخوخة طوران من أطـوار الحياة ليس فيـهما مـشكلات واعية ، ولهـذا السبب لم أتطرق إليهـما فى هذا البحث .

الفصل السادس

موازنة بين فرويد ويونج

حقيق بمن يريد أن يتـولى بحث الفرق بين مذهب «فرويد» ومذهبى أنا أن يكون طرفًا ثالثًا يقف خـارج دائرة تأثيـر الأفكار التى تندرج تحت اسم كل منها . هل يمكن إيلائى الثقة بأن أكـون حياديًا إلى درجة أرتفع معـها فوق أفكارى ؟ وهل بوسع إنســان أن يفعل ذلك ؟ إنى لأشك فى الأمـر . ولو قيل لى إن شـخـصًا استـطاع أن يبذ «البـارون منشهاوزن» بتحقيقه هذه المأثرة ، لأيقنت أن أفكاره مستعارة .

صحـيح أن الأفكار ذات الانتـشار الواسع ليـست ملكًا لمن نزعم أنه صاحبها ، بل العكس هو الصحيح ، إنه هو مسترق لأفكاره . إن الأفكار التى نهلل لها بما هى حقائق إنما تتمتع بشىء خاص بها من حيث ذاتها . هذه الأفكار ، رغم أنها تظهر إلى الوجود فى وقت معين ، إلا أنها أفكار غير زمانية على الإطلاق . فهى تطلع من مجـال الحياة النفسية ذات الصفة التكاثرية التى يثبت منها العقل الزائل (الوقـتى) فى الإنسـان الفرد ، مثلما

ينبت النبـات ويزهر ويحمل الثـمر والبـزر ، ثم يذوى ويموت . الأفكار تنبع من ينبوع لا يحيط به حياة شخـصية واحدة لإنسان واحد . نحن لا نخلقهـا ، بل هى تخلقنا . والحق إننا عندما نتـعامل مع الأفكار لابد لنا أن ندلى باعـتـراف ، لأنها تنقل إلـى رائعة النهـار ليس خـيـر ما فـينا وحسب، وإنما أقبح ما فينا من نقـائص وعيوب أيضًا . وإن هذا ليحدث فى الأفكار المتعلقة بعلم النفس بصـفة خاصة . من أين تأتى هذه الأفكار إن لم يكن أكثـر جوانب الحياة الذاتيـة ؟» أليست كل خبرة تفـسيراً ذاتيًا إلى حد كـبير ، حتى فى أحـسن الظروف ؟ ثم أليست الذات هى أيضًا حقيقـة موضوعية بما هى جزء من العالم ؟ ومـا يصدر عنها إنما يأتى من التربة العـالمية ، تمامًا مثلما تقـيم الأرض التى نقتسمـها جميـعنا معًا أود الكائن العـضوى الأندر والأغرب وتمده بالغـذاء . تحديدًا ، أكـثر الأفكار الذاتية ، بما هى أقرب إلى الطبيـعة وإلى الكائن الحى ، هى التى تستحق أن تكون الأكثر صحة . لكن ما هو الصحيح أو ما هى الحقيقة ؟

لأغراض تتـعلق بعلم النفس ، أعـتقد أنه خـير لنا أن نتـخلى عن مفهوم يقـول إننا اليوم فى وضع يسمح لنا بأن نطلق إبانات «حقـيقية» أو «صحيحـة» عن طبيعة النفس . إن خير ما نسـتطيع أن نفعله هو أن نعبر عنها التعبير الصحيح . وأريد بالتـعبير الصحيح إقراراً صريحًا ، وعرضًا مفصلاً لكل ما قد لوحظ ملاحظة ذاتية . فشخص يولى اهتمامًا للأشكال أو الصيغ التى يمـكن أن تتشكل فيـها هذه المادة ويعـتقد أنه قـد صنع ما

يجده فى نفسه ، وآخر يزن بميزان أثقل قيامه بدور المراقب ، ويشعر بموقفه المتلقى أو السلبى ، مصراً على أن مادته الذاتية إنما تقدم نفسها له . الحقيقة تقع بين الاثنين إذن ، التعبير الصحيح هو إعطاء الشكل أو الصيغة لما قد لاحظناه فعلاً .

وعالم النفس الحديث مهما كانت آماله مطلقة غير مقيدة ، لا يستطيع الإدعاء أنه حقق أكثر من ذلك النوع من التلقى الصحيح والتعبير المكافىء المعقول . وعالم النفس الذى بحوزتنا اليوم عبارة عن شهادات أفراد قلائل ، منبثين هنا وهناك ، على ما قد وجدوه فى أنفسهم . والقالب الذى صبوا فيه هذه الشهادات مكافىء أحيانًا ، وغير مكافىء أحيانًا أخر . وبما أن كل فرد يتطابق ، فى شىء من التفاوت ، مع نموذج خاص به ، تأتى شهادة عالم النفس مقبولة بما هى وصف صحيح لما عند عدد كبير من الناس . لكن بما أن أناسًا آخرين يتطابقون مع نماذج أخرى، ومع ذلك يظلون ينتسبون إلي النوع البشرى ، يحق لنا أن نستنتج أن الوصف ينطبق عليهم أيضًا ، لكن انطباقًا غير تام . ما قد تعين على «فرويد» أن يقوله عن الجنس ، ولذة الطفولة ، ، وتنازعهما مع «مبدأ الواقع» ، كذلك ما قد تعين عليه أن يقوله عن «الزنا بالقرابة القريبة» وما أشبه ، يمكن اعتباره أصح تعبير عن تكوينه النفسى الخاص به. لقد أعطى «فرويد» إنما قصور نظره ونظر لتلاميذه قد عرف بى فى هذا الضوء . لا يستطيع الممارس الخبير بالعلاج النفسى أن ينكر أنه قد صادف

- على الأقل - عشـرات الحالات تجيب على أوصاف «فرويـد» فى جميع جوانبها الأساسية . إن «فرويد» باقـراره بما قد وجده فى نفسه ، قد ساعد على ولادة حقيقة عظيمة عن الإنسان . لقد محض حياته وجهده فى سبيل تشييد علم نفس جاء صياغة لكينونته الخاصة به .

إن طريقتنا فى النظر إلى الأشـياء محكومـة بما نحن عليه . وبما أن الناس الآخـرين قد تكونوا بصـورة مخـتلفـة عنا ، اختلفت رؤيتـهم إلى الأشياء واختلفت طريقـتهم فى التعبير عن أنفـسهم . فهذا «ادلر» - وهو أقدم تلاميـذ «فرويد» - يمثل حالة يجـدر الإشارة إليها . فقـد عمل على نفس المادة التـجريبيـة التى عمل عليـها «فرويد» لكنه فـهمهـا من منطلق يختلف اخـتلافًا كليًا . وطريقته فى النظر إلى الأشـياء لا تقل إقناعًا عن طريقـة «فرويد» لأن «ادلر» يمثل نموذجًا مـشهوراً . وإنى لأعلـم أن أتباع كلتا المدرسـتين يؤكدون أننى على خطأ ، لكن عزائى أن التاريـخ وجميع أصحاب العقول المنصفة سوف ينصفوننى . بحسب طريقتى فى التفكير ، كلتا المدرستين تستحق اللوم على إفـراطها فى التوكيد على الجانب المرضى من الحيـاة ، وعلي تفسيـر الإنسان تفـسيرًا حـصريًا على ضوء عـيوبه ، والمثال الذى يقنـعنا فى هذا الصدد عجـز «فرويد» مـثلاً عن فهم الخـبرة الدينية ، كمـا يظهر ذلك واحًا فى كتابه «مستـقبل وهم» . من جانبى ، أفضـل أن أنظر إلى الإنسان فى ضـوء ما فـيه من صـحى وسليم ، وأن أحرر المريض من وجهة النظر التى تصبغ كل صفحة كتبها «فرويد» . إن

تعليم «فرويد» أحادى على نحو محدد . من حيث إنه يستمد تعميمه من وقائع لا علاقة لها إلا بحالات العقل المعصوب ، وإن صحة تعميمه لتقتصر فى الواقع على هذه الحالات . فى نطاق هذه الحالات يصح تعليم «فرويد» حتى عندما يكون على خطأ ، لأن الخطأ أيضًا يعود إلى الصورة وينقل حقيقة إقرار صحيح . على كل حال ، إن سيكولوجية «فرويد» ليست سيكولوجية العقل المتمتع بالصحة .

العرض المرضى فى سيكولوجية «فرويد» هو كما يلى : «إنه يقوم على نظرة إلى العالم لم تنتقد أو حتى غير واعية ، وهذ خليق بأن يضيق ساحة الاختبار والفهم البشريين إلى حد كبير . لقد كان خطأ فادحًا من جانب «فرويد» أن يدير ظهره إلى الفلسفة . فهو لم ينتقد ، ولا مرة واحدة ، اطروحاته ولا حتى فرضياته التى تنطوى عليها نظرته الشخصية. ومع ذلك فقد كان هذا النقد ضروريًا ، كما يمكننا أن نستدل على ذلك مما قلته فيما تقدم ، فلو أنه فحص فرضياته فحصًا دقيقًا ، لما كان عرض على الأنظار استعداه العقلى الغريب على ذلك النحو الساذج الذى عرضه فى «تفسير الأحلام» ، ولكان ذاق من المصاعب ما ذقته ، فى جميع الأحوال . أنا لم أرفض أبدًا تناول شراب النقد الفلسفى وما فيه من حلو ومر ، لكننى تعاطيته فى حذر ، جرعة صغيرة فى كل مرة . خصومى يقولون إن ما تعاطيه منه قليل جدًا ، وشعورى يقول لى إنى كدت أفرط فى تعاطيه ، ما أيسر ما يسمم النقد الذاتى سذاجة المرء ، تلك الحوزة

التى لا ثمن لها ، أو بالأحرى تلك الهبـة التى لا غنى عنها لكل إنسان مبدع . على كل حال .

لقد ساعدنى النقد الفلسفى على أن أرى لكل سـيكولوجية - بما فيها سيكولوجيـتى الخاصة - صفة الاعـتراف الذاتى . ومع ذلك كان على أن أمنع قواى النقدية أن تدمر قدرتى الإبداعية ، وإنى لأعرف حق المعرفة أن كل كلمة أتفوه بهـا تحمل معها شـيئًا من نفسى ، من نفسى الخصـوصية والفريدة . بتـاريخهـا الخاص وعالمهـا الخاص . وحتى حـين أتعامل مع معطياتى التـجريبية ، إنما أتكلم عن نفـسى اضطرارًا . لكننى لا أستطيع أن أخدم قضية معرفـة الإنسان للإنسان إلا أن أسلم بذلك . تلك القضية التى أراد «فرويد» أن يخدمـها هو أيضًا ، ولقد خدمهـا بالفعل ، بالرغم من كل شىء . فـالمعرفـة لا تنهض على الحق وحده . بل على البـاطل أيضًا .

ولربما كـان هنا ، حـيـث تنهض مـسـألة التـسليم بأن كـل تعليم سيكولوجى من عمل إنسـان فهو مصطبغ بذاتيـته ، يرتسم الخط الفاصل بين «فرويد» وبينى على أقصى ما يكون من الوضوح :

وهناك فرق آخر يبـدو لى أنه يتكون مما يلى : إننى أحاول أن أحرر نفسى من الافتراضات الخافية (اللا شـعورية) ، وبالتالى غير المفحوصة ، فيما يـتعلق بالعالم عامة . أقول «أحـاول» لأنه ما من أحد على يقين أنه قد حرر نفسه من جميع افـتراضاته الخافية . لكنى ، على الأقل ، أحاول

أن أخلص نفسى من أغلظ سوابق الحكم ، ولذلك أميل إلى الاعتراف بجميع طرائق الآلهة ، لكن على شرط واحد هو أن تكون خلاقة فى النفس البشرية . أنا لا أشك فى أن الغرائز ، أو السوائق ، هى قوى دافعة فى حياة الإنسان ، سواء أسميناها جنسًا أم حب سيطرة ، ولكننى أيضًا لا أشك فى أن هذه الغرائز تتصادم مع الروح ، لأن هذه الغرائز لا تنفك تصطدم بشىء ماض ، فلماذا لا يكون هذا الشىء روحًا ؟ أنا لا أعرف ما هى الروح فى ذاتها ، كذلك لا أعرف ما هى الغرائز . إن أحداهما غامضة بمقدار غموض الأخرى ، ومع ذلك فأنا غير قادر على صرف النظر عن الواحدة بتفسيرها فى صيغة الأخرى . لأن معنى هذا أننا نعاملها على أنها سوء فهم ليس أكثر . أن يكون للأرض قمر واحد، إن هذا ليس بسوء فهم . ليس فى الطبيعة سوء فهم . إن سوء الفهم لا وجود له إلا فى المجالات التى يدعوها الإنسان «فهمًا» ويقينى أن الغريزة والروح كلتيهما تقعان فوق متناول فهمى . إن هما إلا اصطلاحان سمحنا لهما أن يرمزا إلى قوى مسيطرة لا نعرف عن طبيعتها شيئًا .

كما يمكننا أن نرى ، إنى أولى جميع الأديان قيمة إيجابية . ففى رمزيتها أتعرف بتلك الأشياء أو الصور التى صادفتها فى أحلام مرضاى وفى تخيلاتهم . فى تعاليمها الأخلاقية أرى نفس الجهود التى يبذلها مرضاى عندما يسعون إلى سلوك الطريق المستقيم فى تعاملهم مع قوى الحياة الداخلية ، تحت إرشاد بصائرهم وإلهاماتهم . ثم إن الطقوس

والشعائر ومـراسم تسليم الأسرار ورياضات الزهد ، فى جمـيع أشكالها وتنوعاتها ، تثير فى اهتمامًا عميقًا ، كمـا تثير اهتمامى كثير من التقنيات التى ترمى إلى إيجـاد علاقة خـاصة بهـذه القوى . كـذلك أولى قيـمة إيجابية لعلم الحيـاة ·البيولوجيا) وتجريبية العلم الطبـيعى عمومًا ، وأرى فيها محاولة جبارة لفـهم النفس الإنسانية إذ تقربها من العالم الخارجى . كذلك أعتبر الأديان العرفانية تؤدى مهمة تساويها فى الجبروت من الطرف المضـاد : محـاولة ترمى إلى استـمداد مـعرفـة الكون من الداخل . فى صورتى للعالم ، يوجد عالم رحب فى الخـارج كما يوجد عالم رحب فى الداخل ، وبين هذين العـالمين يقف الإنسان ، تارة يواجـه الأول ، وتارة يواجه الثانى ، وحسب استـعداده أو مزاجه يعتبر أحدهما الحـقيقة المطلقة حين ينكر الآخر أو يضحى به .

إن هذه صورة افتراضية ، بطبيعة الحال ، لكنها بالغة القيمة إلى حد لا يسعنى أن أتخلى عنها أبـدًا ، فأنا أعتبرها فرضـية متحققـة من ناحية إثارتها للاهتمـام ، ومن الناحية التجريبية أيـضًا ، وما هو أكثر من ذلك أنها مـؤيدة بإجماع الناس عليـها . وقد جـاءتنى هذه الفرضيـة من صدر داخلى ، رغم أنه يحق لى أن أتخيل أن الاكتشافات التـجريبية قد أفضت إلى الكشف عنهـا . ومن هذه الفـرضـيـة جـادت نظريتى فى النمـاذج Types، وكذلك توفيقى بين مذاهب تختلف عن مذهبى كاختلاف مذهب «فرويد» عن مذهبى .

إنى أرى فى كل ما يحدث صراعًا بين الأضداد ، وقد استقيت من هذا المفهوم فكرتى عن الطاقة النفسية . فأنا أعتقد أن الطاقة النفسية تنطوى على صراع بين الأضداد بنفس الطريقة التى تنطوى فيها الطاقة الفيزيائية على تفاوت فى القوة مما يعنى وجود أضداد كالدافئ والبارد ، والعالى والواطى . لقد بدأ «فرويد» باعتباره السائق الجنسى الطاقة النفسية الوحيدة ، ولم يسلم بأنه حالة يتساوى فيها مع الفاعليات النفسية الأخرى إلا بعد انفصالى عنه . من جانبى ، أعتبر مختلف السوائق أو القوى النفسية تندرج فى مفهوم الطاقة تفاديًا لاعتباطية علم نفسى لا يتعامل إلا مع السوائق أو الدوافع . ولذلك لا تجدنى أتكلم عن سوائق أو قوى منفصلة ، بل عن «كثافة القيمة أو شدتها» بما قلته لتوى لا أريد أن أنكر ما للجنس من أهمية فى الحياة النفسية ، رغم أن «فرويد» يصر عنيدًا على أنى أنكرها . إن ما أسعى إليه لهو وضع حدود لمصطلحات الجنس التى تهدد بإفراغ كل بحث فى نفس الإنسان ، إن ما أرغب فيه لهو أن أضع الجنس فى مكانه الصحيح . إن البداهة تعيدنا دائمًا إلى القول بأن الجنس ما هو إلا واحدة من غرائز الحياة ، واحدة من الوظائف النفسية - الفيزيولوجية ليس أكثر ، وهى مع ذلك وظيفة بعيدة مدى الأهمية .

لا مراء فى أنه يوجد اليوم اضطراب ظاهر فى الحياة الجنسية . ومن المعلوم أيضًا أننا عندما نشكو من وجع ضرس لا يمكننا أن نفكر إلا فيه .

والجنس الذى يصفه «فرويد» إنما هو ذلك الهاجس الجنسى الذى يظهر كلما وصل المريض إلى نقطة يحتاج فيها مضطراً للخروج من موقف أو وضع خاطىء . هو دافع جنسى مفرط يتراكم خلف سد ، ثم ينكفىء فوراً إلى نِسَبِهِ الطبيعية ما إن ينفتح الطريق إلى النمو . وهو ما نعثر عليه فى غيظنا القديم من الوالدين والأقارب ، وفى المنازعات العاطفية أو الانفعالية المضجرة التى تحدث فى العائلة التى كثيراً ما تقيم سداً يقف فى وجه طاقات الحياة . وهذا التوقف هو الذى يظهر دائمًا فى ذلك النوع من الجنس الذى يسمى «طفوليًا» وهو فى الحقيقة ، ليس جنسًا بالمعنى الصحيح ، بل تفريغ غير طبيعى لشحنات من التوتر ترتد إلى منطقة أخرى من مناطق الحياة . أما وإن الحال كذلك ، فما الفائدة من التجذيف فى هذه البلاد التى يغمرها الفيضان ؟ وإنى لعلى يقين بأن التفكير المستقيم ليسلم بأن فتح أقنية تصريف لهو أكثر الأشياء أهمية . يجب علينا ، من خلال تغيير الموقف أو من خلال طرائق جيدة من الحياة ، أن نجد ذلك الفرق فى القوة الكامنة الذى تتطلبه الطاقة الحبيسة . وإذا لم يتحقق هذا ، أقيمت حلقة مفرغة ، وهذا هو الخطر الذى تعرضه سيكولوجية «فرويد» . فهى لا تدلنا على طريق ليمضى بنا إلى تجاوز هذه الدورة المنيعة من الحوادث البيولوجية . إن من شأن هذه الحالة الميؤوس منها أن تحملنا أن نصيح كما صاح بولس : «إن كنت إنساناً حقيراً ، فمن ينقذنى من جسد هذا الموت ؟» أما رجل الفكر فيتقدم هازاً برأسه ويقول مع «فاوست» : «إنك لا تشعر إلا بشهوة واحدة ، بأغلال

الجسد الذى يعيـدك إلى الوراء إلى حيث الأب والأم ، أو يقذف بك إلى الأمام حـيث الأولاد الذين نبعـوا من جسـدنا «زنا بالقرابة القـريبة «فى الماضى» وزنا بالقرابة القريبة» فى المستقـبل ، الخطيئة الأصلية المترتبة على ديمومة الوضع العائلى . لا شىء يحررنا من هذه الأغـلال إلا شهوة الحياة المضادة ، الروح . ليس أبناء الجسد مـن يعرفون الحرية ، بل «أبناء الله» فى رواية «أرنست برلاخ» المأساوية عن حياة العائلة ، Der tote Tag ، تقول الشـيطانة - الأم فى النهاية : «الشىء الغريب أن الإنسـان لا يتعلم بأن الله أبوه» . هذا ما لم يتعلمه «فرويد» ولا كل من يشاركه نظرته على الأقل ، إنهم لا يجدون أبدًا المفتاح إلى هذه المعرفة . اللاهوتى لا يساعد الذين يبـحثـون عن المفتـاح ، لأن اللاهوت يتطلب الإيمان ، والإيمان لا يصنع : إنه ، فى مـعناه الحقيـقى ، هبة لطف «نعمـة» نحن ، أبناء هذا العصر ، تواجهنا ضرورة اكتشـاف حياة الروح ثانية ، يجب أن نختبرها بأنفسنا من جديد . إنهـا الطريقة الوحيدة التى نستـطيع بواسطتها تحطيم القوة التى تقيدنا إلى دورة الحوادث البيولوجية .

إن موقـفى من هذه المسـألة يشكل النقطة الثالـثة من الاختـلاف بين «فرويد» وبينى . وبسببهـا يتهموننى بالمستطيقا (التـصوف) . غير أنى لا أعتبـر نفسى مسئـولاً عن تطوير الإنسان ، دائمًا وفى كل مكان ، تطويرًا عفـويًا لصيغ دينيـة من التعـبير ، وعن انـقذاف النفس الإنسانـية ، منذ الأزمنة السحيقة ، فى قلب المشـاعر والأفكار الدينية . ومن لا يستطيع أن

يرى هذا الجانب من النفس الإنسانية فهـو أعمى ، ومن يأخذ على عاتقه مهمة دحضهـا أو إثباتها ، فليس عنده حس بالواقع . .أو هل يتعين علينا أن نرى فى العقـدة الأبوية التى تظهر عند جمـيع الأعضاء المنتـسبين إلى مدرسة «فرويد» وعند مـؤسـسهـا بالذات ، دليـلاً مـقنعًا على إمكانيـة الانفـلات من سور الوضع الـعائلى المنيع ؟ إن العـقـدة الأبوية هذه التى يدافعون عنها فى تعصب وعناد وحساسية مفرطة إن هى إلا جلباب التدين مفهومًا بشكل خاطىء ، إنها مستطيقًا عبروا عنها بلغة البيولوجيا والعلاقة العائلية . أما فـيما يتعلق بفكرة «فرويد» عن «الأنية العليا» فـهى محاولة مخـتلفة لتـهريب صورة «يهـوه» الذى حظى بالتمـجيد فى زمـانه (زمان «فرويد») متنكرًا بلباس نظـرية سيكولوجية . وعندما يفـعل الإنسان مثل هذه الأشيـاء ، حرى به أن يقـولها صـراحةً ، من جانـبى ، أفضل أن أسمى الأشياء بأسمائها التى عرفت بها دائمًا . إن عجلة التاريخ يجب ألا تعود إلى الوراء ، كذلك يجب ألا نجحد تقدم الإنسان نحو حياة روحية ، كانت بدأت منذ طقوس تسليـم الأسرار الأولى . من حق العلم أن يقسم ميدان بحثه وأن يضع فرضـيات محددة ، لأن العلم يجب أن يعمل بهذه الطرقة لكن الـنفس الإنسانية لا يجـوز أن تقطع مزقًا . النفس الإنسـانية كينونة كلية تحـتضن الواعية ، بل أم الواعيـة . والتفكير العلمى ، بما هو وظيفة واحدة من وضـائفها ، لا يستطيع أبدًا أن يستنفد جـميع إمكانيات الحياة . والطبيب النفسى يجب ألا يسمح لرؤيته أن تصطبغ بصبغة منظار علم الأمراض ، يجب ألا يسمح لنفسه أن ينسى أن العقل العليل هو عقل

بشرى ، وأنه ، بسبب جميع ما فيه من علل ، يشترك فى حياة الإنسان النفسية فى كلّيتها . ويجب عليه أن يكون قادرًا حتى على التسليم بأن الأنية معتلة لمجرد انفصالها عن الكل ، الأمر الذى ينم عنه فقدان صلتها بالبشرية مثلما فقدت صلتها بالروح . صحيح أن الأنيّة هى «مكان الخوف» كما يقول «فرويد» فى كتابه «الأنية والهوية»[1] ، لكنها تظل كذلك ما دامت بعيدة عن «أبيها» و «أمها»[2] . إن «فرويد» يحطم سؤال «نيقوديموس» : «هل بوسع الإنسان أن يدخل رحم أمه مرة ثانية ويولد مرة ثانية ؟» ، نقول هذا لكى نقارن الأشياء الصغيرة بالأشياء العظيمة ، ولعل من حقنا هنا أن نقول إن التاريخ يعيد نفسه ، ذلك لأن السؤال يعود اليوم كرة أخرى لكى يحتل الواجهة ، لكن فى صورة قتال أهلى ميدانه علم النفس الحديث .

ظلت طقوس تسليم الأسرار على مدى الاف السنين وهى تعلم الولادة الثانية الروحية ، ومع ذلك ، وهذا ما يبعث على الاستغراب الشديد ، ينسى الإنسان مرة بعد مرة معنى الولادة الإلهية . وهذا لا شك يدل على حياة روحية غير قوية ، رغم أن العقاب على سوء الفهم عقاب شديد ، لأنه ليس أقل دمارًا من دمار الأعصاب والشعور بالمرارة والضمور والعقم. من السهل جدًا أن نطرد الروح من الباب ، لكننا عندما نفعل ذلك يغدو

(١) The Ego and the Id - المترجم - .

(٢) الروح والطبيعة . مترجم النص إلى الإنكليزية .

ملحًا لحياة ذا طعم تفه لا نكهة فيه ، لكن لحسن الحظ ، فى حوزتنا دليل على أن الروح تجدد قواها دائمًا مِـن خلال ما نتوارثه جيـلاً بعد جيل من تعليم مـركزى لطقـوس تسليم الأسـرار القديمة . بين حين وآخـر تنهض كـائنات بشرية تفـهم المقصـود من أبوّة الله للإنســان ، فلا يضـيع على الإنسان ميزان التساوى بين الجسد والنفس .

الفرق بين «فرويد» وبينى يرتد إلى فروقات جوهرية فى مسلماتنا أو فرضياتنا . وبما أن المسلمـات شىء لا يمكن الاستغناء عنه ، إن من الخطأ الادعـاء أننا لا نضع مسلـمات . وهذا هو السـبب فى أننى تعـاملت مع مسائل أساسية ، فإذا أخذنا هذه المسائل واعتبرناها نقطة انطلاق بالإضافة إلى المسلمات ، استطعنـا أن نفهم الفروقات الكثيـرة والمفصلة التى تفرق بين «فرويد» وبينى فهمًا أفضل .

الفصل السابع

الإنسان القديم

تعنى كلمة archaic (قديم) : الأولى أو الأصلى . والحـديث الجاد عن الإنسان المتـمدين ، إنسان عالمنا المعـاصر ، مهمة من أصـعب المهام وأقلّها قحـمَدَةً ، فى حين أننا نجدُنا فى وضع أفضل عندمـا نريد التحدث عن الإنسان القديم . فى الحالة الأولى ، نحـاول الوصول إلى وجهة نظر تمكننا من السيطرة على الموضوع ، لكننا ما نلبث أن نقع فى نفس سوابق الرأى ، وتنسدل على أعيننا نفس حجب الأهواء ، التى يعانى منها نفس الذين نريد أن نتـحـدث عنهم . أمـا فى حالة الإنسـان القـديم ، فنحن بعيدون عن عالمه فى الزمان ، وقدراتنا العقلية أضحت متمايزة لدينا بأكثر مما هى متمايزة لديه . ولذلك فإن بوسعـنا أن نحتل موقعًا أفضل نستطيع منه أن نطل على عالمه وعلى المعنى الذى كوّنه عنه .

تحدد لنا هذه الجملةُ الموضوعَ الذى سوف يـشتمل عليه البحث . وأنا إن لم أقتصـر على الجانب النفسى من حياة الإنسـان القديم ، لم أستطع

أن أرسم له صورة فى هذا الحيّز الضيّق . ولـذلك سوف أقصر همّى على أن تأتى هذه الصورة شـاملة إلى الحد الذى يفى بالغرض ، غيـر آخذ فى اعتـبارى معطيات علم الأنـتروبولوجيا المتـعلق بالأقوام البدائيـة . عندما نتكلم على الإنسان بصفة عامة ، لا نأخذ فى اعـتبارنا جانبه التشريحى - شكل جمـجمتـه أو لون بشرته - ، بل عـالمه النفسى ، ودرجة وعـيه ، ونمط حياته . وبما أن هذا كله يتـصل بموضوع علم النفس ، لذلك سوف نتناول ههنا العقليةَ البدائية أو القديمة ، بصورة رئيسية . وبالرغم من أننا قد حددنا الموضوع على هذا النحو ، لسوف يتضح أننا قد وسّعنا من نطاق البحث ؛ ذلك لأن الإنسـان البدائى ليس هو وحده الذى يمتلك سـياقات نفسـية قديمة ، وإنما إنسـان عالم اليوم المتـمدن هو أيضًا يكشف عن هذه السياقات النفسية القـديمة ، دون أن تكون هذه السياقات مجرد «ارتدادات» متفرقة أتت على الإنسان الحديث من صعيـد حياته الاجتماعية . إن الأمر على العكس من ذلك تمامًا ، كل إنسان مـتمدن ، مهمـا بلغت درجة نموّ وعيه ، لم يزل إنسانًا قديمًا فى الطبقات السـفلى من كيانه النفسى . وكما أن الجسم البـشرى يوصلنا بالثدييـات ، ويكشف لنا عن بقايا كثـيرة من مراحل تطور أوليـة ترجع إلى عصر الزواحف ، فكذلك النفس البـشرية نتاج تطور إن تأثّرنا أصوله تكشف لنا عن عـدد لا حصر له من السّمات القديمة .

إذا قابلنا بدائيين لأول مـرة ، أو قرأنا شيـئًا عن العقلية البـدائية فى الأعمال العلمية ، يتملكنا العـجب من غرابة أطوار الإنسان القديم . فهذا

ليفى بروهل - وهو حجّة فى علم نفس المجتمعات البدائية - ما ينفك يشدد على الفارق الكبير الذى يفصل حالة العقل «ما قبل المنطقية» عن نظرتنا الواعية . وقد بدا له ، وهو الإنسان المتمدن ، أن من الأمور المستغربة أن يضرب البدائى صفحًا عن الدروس التى يتعلمها من خبرته ، وأن يظل متمسكًا بصحة «الأفكار الجامعة» ، بدلاً من أن يعمد إلى تفسير الأشياء على أنها من طوارىء الحظ أو المصادفة ، أو يبحث لها عن أسس ترضى العقل والمنطق . ويريد ليفى بروهل بـ «الأفكار الجامعة» تلك الأفكار التى تشيع فيما بين الناس على النطاق الأوسع ، ويسلّمون بصحتها تسليمًا قاطعًا ، كالأفكار البدائية المتعلقة بالسحر وتأثير الطقوس وما أشبه . فنحن - على سبيل المثال - نعرف جيدًا أن الناس يموتون إن تقدم بهم عمر ، أو نزل بهم مرض ؛ بينما يختلف الأمر عند البدائى ، فعنده أن الطاعنين فى السن إن ماتوا بموتهم ليس لتقدمهم فى العمر ، بدعوى أن هناك من هم أكبر سنًا ولم يموتوا . وكذلك ما من أحد يموت من المرض ، لأن أناسًا آخرين شُفُوا من نفس المرض ، أو لم تصل إليهم عدواه أبدًا (وماتوا مع ذلك) . وعنده إن التفسير الصحيح لكل ذلك إنما هو السحر دائمًا ؛ فإما أن يكون روح قد قتل الرجل أو سحر قد بيتوه له . على أن أقوامًا بدائية تقر بأن الموت فى ساحة القتال هو الموت الطبيعى الوحيد ، بينما ينكر آخرون أن يكون هذا أمرًا طبيعيًا ، بادّعاء

أن العدو الذى جلب لهم الموت إمـا ساحرٌ أو ذو سلاح به سـحر . وقد تتخـذ هذه الفكرة الغـريبة شكلاً أظهـر وأبين . من ذلك مثـلاً ، وجد خلخـالان فى جـوف تمسـاح قـتله أوروبى . عـرف الأهلون أن هذين الخلخالين يخصّان امرأتين كان قد ابتلعهما تمساح فى وقت سابق وسرعان ما أطلقوا تهمة السحر على هذه الحادثة الطبيعية ، التى ما كانت تثير لدى الأوروبى أى نوع من أنواع الارتيـاب ، وأعطوها تفسيـرًا لا يخطر على البال، بَنوهُ على واحـد من سوابق الرأى التى يسـميـها ليفى بروهل بـ «الأفكار الجامـعة» . قال الأهلون أن ساحـرًا مجهـولاً استدعى التمـساح وكلّفه الاتيـان بالامرأتين ، فـقام التـمسـاح بأداء المهمة . لكـن ماذا عن الخلخالين فى جوف التـمساح ؟ أكد الأهلون أن التـمساح لا يأكل الآدمى إلا أن يؤمر بذلك . والتمساح إنما تلقّى الخـلخالين من الساحر مكافأة له على الخدمة التى قام بها .

تعتبـر هذه الحكاية مثالاً نموذجيًا على الطريقـة الاعتباطية فى تفـسير الأشيـاء ، وعلامـة على حالة العقل «قـبل المنطقيـة» وقد دعـوناها «قبل المنطقية» لأن هذا التفسير يجافى المنطق مجافاة تامة . غير أن هذه الطريقة تصدمنا لأننا ننطلق من أسس تختلف اختلافًا كليًا عن الأسس التى ينطلق منها الإنسـان البدائى . لكن لو كنا نؤمن ، كـإيمانه ، بالسحـر والقوى الخفية ، بدلاً من الإيمان بالأسباب أو العلل الطبـيعية ، لرأينا استنتاجاته مـعقـولة تمامًا . والحق إن الإنسـان البدائى ليـس أكثـر منطقًا ، أو أقل

منطقًا، منا . وما يجعله يختلف عنا أن سوابق رأيه ليست كسوابق رأينا، وأن تفكيره ومسلكه ينهضان على أسس تغاير الأسس التى ينهض عليها تفكيرنا ومسلكنا . فكل شىء يخرق العادة ويورثه القلق والدهش إنما يعزوه إلى مصدر غيبى . وعنده أن هذه الأشياء ليست أشياء غيبية ، وإنما هى من صميم عالم خبرته . نحن نشعر أننا إنما نعبر عن التعاقب الطبيعى للحوادث عندما نقول : هذا المنزل احترق وانهدم لأن صاعقة قد انقضت عليه . والإنسان البدائى يشعر بالتعاقب الطبيعى عندما يقول : إن ساحرًا قد سخر الصاعقة لإحراق هذا المنزل بالذات . لا شىء فى خبرة الإنسان البدائى - شرط أن يكون خارقًا للعادة ومثارًا للدهشة - لا يجد تفسيرًا له بالاستناد إلى مثل هذه الأسس . وهو ، إذ يفسر الأشياء على هذا النحو ، إنما يشبهنا تمام الشبه : لا يفحص فرضياته . وعنده أن يكون هذا المرض ، أو العلل الأخرى ، قد ورثتها الأرواح ، أو نجمت عن السحر ، حقيقة لا مراء فيها ، تمامًا مثلما نعتبر أن يكون للمرض سبب طبيعى أمرًا مفروغًا منه . ولذلك فهو لا يختلف عنا اختلافًا أساسيًا فى نشاطه العقلى ، وما يفصله عنا هو فرضياته وحسب .

كثيرًا ما نحسب أن للإنسان البدائى مشاعر غير مشاعرنا ، ونظرة أخلاقية مغايرة لنظرتنا - وإن حالة العقل «قبل المنطقية» عنده تختلف عن حالتنا العقلية فى هذه النواحى أيضًا . لا ريب أن له قيمًا أخلاقية مختلفة عن قيمنا . من ذلك مثلاً ما أجاب به شيخ قبيلة زنجية لما سئل عن الخير

والشر ، قال : «لو أنى سَبَيتُ أزواج عدوى لكان ذلك خيرًا ، أما أن يسبى هو أزواجى فهذا شر» . فى كثير من الأقاليم يعد إهانة كبيرة أن تدوس على ظل شخص ، وفى أقاليم أخرى خطيئة لا تغتفر أن تسلخ فقمة بسكين من حديد بدلاً من صوان . لكن ، لماذا لا نكون صريحين : ألسنا نعتقد أن من الحرام أو العيب أن نأكل السمك بسكين فولاذية ، أو نظل نعتمر قبعاتنا ونحن فى غرفة ، أو أن نسلم على سيدة والسيكار فى فمنا ؟ إن هذه الأشياء عندنا ، كما عند البدائى ، أمور لا علاقة لها بالأخلاق . فهناك من يصطادون الرؤوس ويلتزمون فضيلة الصدق ، ومن يمارسون طقوسًا وحشية ويتمسكون بالتقوى والوجدان الحى ، ومن يرتكبون جريمة القتل عن إيمان صحيح . والبدائى لا يقل استعدادًا عنا لتقويم موقف ما من الناحية الأخلاقية ، فالخير عنده كالخير عندنا تمامًا ، والشر عنده كالشر عندنا تمامًا ، لا فرق إلا فى الشكل الذى يظهر فيه الخير والشر ، أم سياق الحكم الأخلاقى فهو نفسه .

كذلك نحسب البدائى مرهف الحواس أكثر منا ، أو أن حواسه تختلف عن حواسنا . والحق إن حاسة تعيين الجهة أو حاسة السمع أو البصر ، التى بلغت عنده درجة عالية من الرهف ، مسألة ناشئة عن طبيعة اهتماماته ومشاغله ، فلو يواجه أوضاعًا غريبة عن خبرته لكان بطيئًا وبليدًا إلى حد يذهلنا . أطلعت مرة أحد الصيادين من الأهلين ، وكان حاد البصر كالصقر ، على صور فى مجلة يمكن أى ولد من أولادنا

أن يعرف لتوه أنها وجوه بشرية . لكن الصيادين راحوا يقلبون الصور مرة ومرة إلى أن صاح أحدهم ، وهو يتتبع القسمات بأصابعه : «هؤلاء رجال بيض» ! وهلل الجميع لهذا الاكتشاف العظيم .

أما حاسة تعيين الجهة البالغة الدقة عندهم ، ويتمتع بها كثير من الأهلين ، فمسألة دربة ومران . لأنه من الضرورة القصوى أن يكونوا قادرين على معرفة طريقهم وسط الغابات والأدغال . حتى الأوروبى ، بعد أن يقضى فترة وجيزة من العيش فى أفريقيا . يبدأ بملاحظة أشياء ما كان ليحلم بملاحظتها من قبل ، إنه يفعل ذلك لكيلا يضل الطريق فيقنط من نجاته برغم البوصلة .

لا شيء يدل على أن الإنسان البدائى يفكر أو يشعر أو يدرك بطريقة تختلف اختلافًا أساسيًا عن طريقتنا فى التفكير أو الشعور أو الإدراك . فأداؤه النفسى هو ، جوهريًا ، نفس أدائنا - ولا يختلف عنا إلا فى مسلماته الأولية . وفى مقابل هذا نجد من الأمور التى لا أهمية لها نسبيًا أن يكون له ، أو يبدو أن يكون له ، مساحة من الوعى أضيق مما عندنا، وأنه عاجز جدًا ، أو عاجز تمامًا ، عن القيام بنشاط عقلى مركز . فعلى سبيل المثال ، لم أستطع أبدًا أن أعقد محادثة تدوم أكثر من ساعتين ، لأن الأهين كانوا عندئذ يعلنون دائمًا أنهم قد حل بهم تعب . كانوا يقولون إن الحديث كان صعبًا عليهم ، رغم أن أسئلتى كانت فى غاية السهولة ولم تكن ذات هدف محدد . لكن هؤلاء أنفسهم كانوا يبدون من

التركيز والقدرة على الاحتمال ما يبعث على الإعجاب عندما يكونون في صيد أو سفر . فمثلاً كان باستطاعة الساعي ، الذي يتولى نقل رسائلي ، أن يعدو مسافة خمسة وسبعين ميلاً بدون توقف . وشاهدت امرأة ، حاملاً في شهرها السادس ، وتحمل طفلاً على ظهرها ، وتدخن أنبوبًا طويلاً من التبغ - شاهدتها ترقص طوال الليل حول نار ملتهبة ، في درجة حرارة ٩٥ ، بدون أن تسقط من الإعياء . لا مراء في أن البدائيين قادرون على التركيز على الأشياء تهمهم . ونحن عندما نحاول الانتباه إلى أمور لا تهمنا ، سرعان ما نلحظ مبلغ ضعف قوانًا على التركيز . نحن أنفسنا، كما هو الحال بالنسبة إليهم ، نعتمد على التيارات العاطفية التي تجرنا من الداخل .

صحيح أن البدائي أكثر بساطة وطفولية ، في الخير وفي الشر على السواء ، وليس في هذا بحد ذاته ما يبعث على الاستغراب . ومع ذلك ما إن نقترب من عالمه حتى يتكون لدينا إحساس بأن فيه شيئًا غريبًا يحملنا على الذهول . وإذا صح تحليلي لهذا الإحساس ، فإنه متأتٍ بصورة رئيسية عن اختلاف مسلماته الأولية عن مسلماتنا اختلافًا أساسيًا - إنه يعيش في عالم مختلف ، إن صح التعبير . فهو في نظرنا أحجية صعبة الحل ما لم نتعرف إلى سوابق رأيه ، وعندئذٍ يصبح كل شيء بسيطًا نسبيًا . كذلك يمكننا القول إن البدائي لا يبقى أحجية في نظرنا إذا عرفنا نحن ما هي سوابق أفكارنا .

من سوابق الفكر العـقلانية عندنا أن لكل شىء سـببًا طبيـعيًا يطاله الإدراك ، ونحن مقتنعون بهـذا غاية الاقتناع . والسببية ، كمـا نفهمها ، هى من أقدس الدغمـاطيقيات عندنا ، فليس فى عالمنا مكان مـشروع لغير المرئى أو للاستبدادى الآتـى مـن قوى الغيب - اللهم إلا أن نجرى وراء عالم الفـيزياء المعاصر منكبّاً على فـحص عالم الذرة البالغ الدقـة والخفاء حيث تحدث فيه أشياء غريـبة . غير أن هذا العالم يظل بعيدًا عن الطريق المطروق . نحن ننفر كل النفور من فكرة القوى غيـر المرئية الاستبدادية ، لأنه لم يمض زمن طويل عـلى خلاصـنا من عالـم الأحلام والخـرافـات المخيفة ، وتشييدنا على أثره صورة للكون جديرة بواعيتنا العقلانية ، التى هى أحدث ما حقـقه الإنسان وأعظمه . لقد أصبـحنا الآن يحيط بنا عالم مطيع للقوانين العـقلانية . صحيح أننا لا نعـرف أسباب كل شىء ، إلا أننا سـوف نكتـشف هذه الأسـبـاب مع الزمن ، ولســوف تأتى هذه الاكتـشافـات مطابقة لتـوقعـاتنا . هذا ما عقـدنا عليه الرجـاء ، ونحن حريصـون عليه باعتـباره أمرًا مسـلمًا به تمامًا مثلما يحـرص البدائى على مسلماته ويتـمسك بها . وهناك أيضًا - وهذا أمر أكيد - طـوارىء ساقها الحظ أو المصادفة ، لكنهـا أمور عرضية وقد أضـفينا عليها سببـية خاصة بها. فالعـقل الذى يحب النظام يشمئز مـن طوارىء الحظ والمصادفات ، لأن لها طريقة فى قطع مجرى الأحداث التى تنبـأنا بها تثير فينا الضحك والغيظ جميعًا . إننا نشمئـز من فكرة طوارىء الحظ بمقدار ما نشمئز من

القوى غير المرئية ، لأنها تذكرنا بأكثر مما يلزم العفاريت الشيطانية أو بنزوات «الإله الطالع من المكنة» إنها ألد أعداء حساباتنا الدقيقة ، وتهديد دائم لمشروعاتنا . وبما أنها مضادة للعقل بداهة ، لذلك فهى تستحق منا الاحتقار ، وعليه يجب ألا نغفل عن إعطائها ما تستحق . والعربى يوليها احترامًا أكثر مما نفعل حين يكتب على كل رسالة يبعث بها عبارة «إن شاء الله» وعندئذ فقط تصل الرسالة . لكن رغم رفضنا التسليم للحظ ، ورغم جريان الحوادث على وفق القوانين العامة ، رغم كل هذا لا يمكننا نكران أننا عرضة للحوادث غير المحسوبة فى كل زمان ومكان . وأى شىء أغمض وأكثر استبدادًا من الحظ ؟ بل أى شىء أكثر منه حتمية وإزعاجًا ؟ .

لو أمعنا النظر مليًا فى الأمر لأمكننا القول إن علاقة السببية التى تربط الحوادث وفق القوانين العامة تصح عند منتصف الطريق ، أما سائره فيتكفل به شيطان الحظ . ولطوارىء الحظ أيضًا قوانينها الطبيعية ، وفى أغلب الأحيان تضطرنا آسفين إلى أن نتبين أنها فى منتهى الابتذال . وليس ما يضايقنا فيها جهلنا لأسبابها ، بل إن ما يغيظنا فيها أنها تنزل بنا حينًا بعد آخر بطريقة استبدادية ظاهرة . هذا ما يصدمنا فيها على الأقل . وهى تسبب الغيظ لنا ، حتى إنها لتحمل أكثر الناس عقلانية على لعنها وشتمها . وكيفما كان تفسيرنا لحادث الطارىء ، فإننا لا نستطيع أن نغير من حقيقة قوة تأثيره فينا . وكلما أخضعنا شروط

وجودنا للتنظيم ، استبعدنا الحظ من حساباتنا وقلت حاجتنا إلى الوقاية منه . لكن برغم ذلك ، كلنا يحسب لاحتمالات الحظ حسابًا ، أو يعتمد عليها ، حتى حين لا يؤيد «المعتقد الرسمى» هذا الإيمان .

وإنها لفرضية من فرضياتنا التى تصل بنا إلى حد القناعة الإيجابية أن يكون لكل شىء أسباب نطلق عليها اسم «الأسباب الطبيعية» ونحسب أن بمقدور إدراكنا أن يطالها . والإنسان البدائى ، من الناحية الأخرى يفترض أن كل شىء هو من فعل القوى غير المرئية الاستبدادية - بعبارة أخرى ، كل شىء هو من فعل الحظ والمصادفة ، إلا أنه لا يسميه حظًا بل قصدًا .

أما السببية الطبيعية فشىء ظاهرى ولا يستحق الذكر . فإن ذهبت ثلاث نسوة يمتحن الماء من النهر ، وأمسك تمساح بوسطاهن وجرها إلى تحت ، فإن نظرتنا إلى الأشياء تقضى بنا إلى القول بأن المصادفة هى التى جعلت التمساح يمسك هذه المرأة بالذات . ويبدو لنا الأمر طبيعيًا للغاية أن يمسك التمساح بهذه المرأة ، لأن هذا الحيوان قد يأكل الآدمى أحيانًا . أما البدائى فعنده أن هذا التفسير إنما يطمس الحقائق ، ولا يفسر ولا جانبًا من الحكاية . وهو على حق فى اعتبار نظرتنا للموضوع سطحية بل سخيفة حتى ، ذلك أنه كان ممكنًا ألا تحدث هذه الحادثة ويظل التفسير مع ذلك مناسبًا للموضوع . إن انسياق الأوروبى مع أهوائه وسوابق رأيه لا يسمح له أن يرى مبلغ ما فى تفسيره للأشياء على هذا النحو من ضآلة .

الإنسان البدائى يتطلع إلى ما هو أكثر من التفسير . فما نسميه نحن حظًا أو مصادفة هو عنده قوة استبدادية . ولذلك فقد كان قصد التمساح - كما استطاع كل منا أن يلاحظ ذلك - أن يمسك بالمرأة الواقفة بين المرأتين الأخريين . إذ لو كان قصده غيـر ذلك لكان أخذ غيرها . لكن لماذا كان قصد التمســاح كذلك ؟ إن هذا الحيوان ليس من عادته أن يأكل الآدمى ، وهذه حقيقـة صحيحة - تمامًا كما نقـول : لا مطر فى الصحراء . والحق إن التمساح حـيوان جبان ، ويمكن تخويفه بســهولة . ولو فكرنا فى عدد أفراد نوعـه لعجبنا من أنه لم يقـتل إلا بضعة قليلة من الناس ؟ فـإذا قام بالتهام إنســان كان ذلك حدثًا مفاجـئًا ومنافيًا للطبيعـة . ولذلك يقتضى تعليل هذه الحادثة ، لأن التمساح ما كـان ليقدم على قتل إنسان من تلقاء نفسه . إذن ، من ذا الذى طلب منه أن يفعل ذلك ؟ .

الإنســان البدائى يبنى أحكامـه على أســاس الوقائع التى تحـدث فى العالم الذى يحيط به ، فـإن حدث فيه ما لم يتوقـعه ينتابه دهش - وهو محـق فى هذا - ويروح يفتش عن الأســباب . وهو ، عند هـذا الحد ، يتصرف كما نتصرف نحن تمامًا ، لكنه يذهب أبعد مما نذهب ؟ لأن لديه نظرية واحدة أو أكثـر حول طوارئ الحظ والمصادفة ومـا تنطوى عليه من قوة استبداد . نحن نقول " لا شىء إلا الحظ أو المصادفة . أما هو فيقول : قصد بحساب ، إنه يولى أهمية خاصة لما فى سلسلة السببية من ثغرات هى فى نفس الوقت حائرة ومحـيرة ، وهى الطوارئ التى لم تفلح فى أن

تكشف لنا عن العلاقة السببية التى يتوقعها العلم ، وهذا ما يكون النصف الثانى من الحوادث على وجه العموم . لقد كيّف البدائى نفسه مع الطبيعة منذ زمن طويل على أساس جريانها وفقًا للسنن العامة ، ولذلك فإن أخشى ما يخشاه هو المصادفة التى لم يتنبأ بها وما فيها من قوة اعتباطية تحمله على أن يرى فيها عاملاً تحكميًا لا يمكن التحسب له . وهو هنا أيضًا على حق ، لأننا نفهم تمامًا أن كل ما يخرق العادة يجب أن يورثه الخوف . يعيش آكل النمل بكثرة لا بأس بها فى الأقاليم الواقعة إلى الجنوب من «جبل أيلكون» حيث أقمت بعض الوقت . وآكل النمل حيوان ليلى خجول قلما تقع العين عليه . فإذا اتفق أن شوهد فى النهار ، عد ذلك حدثًا خارقًا غير طبيعى من أشنه أن يثير دهشة الأهلين بمثل ما يثير دهشتنا وكانت هى الأخيرة . «تكرار الحوادث» شىء نتندّر به فى عياداتنا ، لكنه من حقائق العلم البدائى المقررة منذ أزمان سحيقة . وقد جازف أحد الباحثين الحديثين بالقول : «السحر علم الأدغال» ولا ريب فى أنه يمكننا أيضًا أن نسمى التنجيم وقراءة الغيب علم الأزمنة القديمة .

إن ما يحدث بانتظام مطرد تسهل ملاحظته علينا لأننا مهيؤون له . أما عندما نكون أمام أوضاع ينقطع فيها مجرى الأحداث بصوة اعتباطية ، يصعب علينا معرفة كنهها ، فإننا نحتاج إلى المعرفة والمهارة . بعامة ، إن من يعهد إليهِ بمراقبة الأحداث يجب أن يكون أذكى رجال القبيلة وأدهاهم ، وأن يبلغ من العلم مبلغًا يمكنه من تفسير جميع الحوادث

الخـارقـة ، ومن الفن مـبلغًا يمكنه من التـصـدى لهـا . فـهـو العـالم والاختـصاصى والخـبيـر بطوارئ الحظ والمصادفـات . وفى نفس الوقت الأمين على تراث القـبيلة وعلومـها التقليـدية . تحيطه القـبيلة بالاحـترام والمهابة ، ويتمتع فيها بسلطة كبيرة ، إلا أنها ليست كبيرة جداً لأن أفراد القبيلة يعتقدون فى سرهم بأن لدى جيرانهم ساحراً أقوى من ساحرهم . فأنجع الدواء لا يكون أبداً فى متناول اليد ، بل يستجلب من مكان بعيد . أقمت زمنًا عند قبيلة يكنون لعرافهم العـجوز رهبة عظيمة ، ومع ذلك ما كانوا يرجعون إليـه إلا فى الأمراض الخفيفة تصـيب الماشية والناس . أما فى الأمراض الخطيرة فكانوا يلجؤون إلـى مرجع أجنبى يؤتى به لقاء أجر باهظ من أوغندا - تمامًا كما هو الحال عندنا .

طوارئ الحظ أو المصادفات تأتى فى الغالب متسلسلة أو جماعات . ومن القواعـد القديمة المجربة فـيما يتـعلق بالأحوال الجوية أن السـماء إذا أمطرت على مـدى عـدة أيام فهى سـوف تمطر فى اليـوم التـالى . ومن الأمثال الشائعـة : «النكبات لا تأتى فُرادى» و «السماء لا تمطر بل تصب الماء صبًا» . هذه الحكم المسـبوكة فى صيـغة الأمثـال هى ما يشكل العلم البدائى . والنـاس يؤمنون بها ويقدسـونها فى حين يبـتسم منهـا الإنسان المثقف إلا أن يحدث له حـادث خارق . سأقرأ عليكم حكاية مـزعجة : أعرف امرأة استـيقظت ذات صباح على نقرة غـريبة على طاولة السرير ، وبعد أن تلفـتت حواليـها برهة عـرفت السبب : انقصـفت حافـة القدح

وتشكلت منها حلقة عرضها ربع بوصة تقريبًا . بدا لها أن ما حدث شيء غريب ، فأمرت بإحضار قدح آخر ، وما هى إلا دقائق خمس حتى سمعت نفس النقرة وانقصفت القدح أيضًا . اشتد قلقها هذه المرة ، ثم جيء لها بقدح ثالث . وما هى إلا عشرون دقيقة أخرى حين انقصفت حافة القدح الثالث محدثة نفس الصوت . لقد تعاقبت هذه المصادفات الثلاث تعاقبًا فوريًا كان فوق ما تطيق فكفرت لتوها بالأسباب الطبيعية وأحلت محلها «الأفكار الجامعة» ، القائلة بأن قوة استبدادية تقف وراء الحوادث . مثل هذه الحادثة تحدث لكثيرين من المعاصرين - شريطة ألا يكونوا من ذوى الرؤوس اليابسة جدًا - عندما يجدون أنفسهم وجهًا لوجه أمام حوادث لا تفلح السببية الطبيعية فى تعليلها ، ونحن ، بطبيعة الحال، نفضل إنكار مثل هذه الحوادث لأنها حوادث مقيتة بما تقطع علينا مجرى سير عالمنا الدائر بانتظام ، وتجعل كل شيء ممكنًا ، وتأثيرها علينا يظهرنا على أن العقل البدائى لما يمت فينا بعد .

ولا نحسبن إيمان البدائى بالقوة الاستبدادية منبعثًا من فقاعة هواء كما كنا نحسب دائمًا ، إن إيمانه بها مستند إلى خبرته . ما كنا نحسبه خرافة يسوغه اجتماع المصادفات ، فثمة مقياس حقيقى لاحتمال تزامن الحوادث فى الزمان وتوافقها فى المكان . ويجب ألا ننسى أن خبرتنا لا يصح الركون إليها تمامًا من هذه الناحية ، فملاحظاتنا غير مكافئة لأنها تقودنا إلى إغفال هذه الأمور من اعتبارنا . فمثلاً ، لا يخطر لنا ببال أبدًا ،

ونحن فى وضع جدى ، أن نعقد صلة فيما بين هذه الحوادث : فى الصباح يطير الطائر فى حجرتك ، وبعد ساعة تشاهد حادثة فى الشارع . وعند العصر يموت قريب لك . وفى المساء يقلب طاهيك وعاء الحساء . وحين تعود إلى بيتك فى وقت متأخر من الليل تكتشف أنك ضيعت المفتاح . أما البدائى فلا يغفل عن واحدة من سلسلة هذه الحوادث ، لأن كل حلقة منها تعطيه جوابًا على توقعاته ، وإنه لعلى حق ، لأنه أقرب إلى الصواب مما نريد أن نعرف له به ، ولأن لتوقعاته القلقة ما يسوغها من حيث إنها تؤدى له غرضًا يبتغيه ، فهو يعتقد أن هذا اليوم يوم نحس لا ينبغى له أن يقوم فيه بعمل . فى عالمنا يعتبر هذا الاعتقاد خرافة تستوجب اللوم ، لكنه فى عالم البدائى دهاء وحكمة .

فى عالم البدائى يتعرض الإنسان للحوادث الطارئة بأكثر مما نتعرض لها نحن الذين نعيش فى عالم بالغ التنظيم يقينا شر مثل هذه الحوادث . فإن كنت فى صحراء قاحلة ، لم تجرؤ على الإفراط فى المجازفة . والأوروبى سرعان ما يدرك هذا .

البوابلو الهندى ، إذا أحس أنه فى وضع لا يبعث على الاطمئنان يعتزل بعيدًا عن مجلس القوم . والرومانى القديم ، إذا تعثر على عتبة بابه وهو يهم بمغادرة المنزل ، كان يمتنع عن القيام بما كان ينوى القيام به فى يومه . إن هذا فى نظرنا لغو لا معنى له ، لكن فى ظروف الحياة البدائية مثل هذا الفأل غير الحسن يميل بالمرء إلى إلتزام جانب الحذر على

الأقل . وإن أنا لم أكن فى حالة تامة من ضبط النفس ، خضعت حركات جسمى لنوع من الإرتباك ، وزاغت نظراتى ، وصرت على شىء من شرود الذهن . وينتج عن ذلك أننى إما أن اصطدم بشىء ، أو أتعثر فى خطاى ، أو أدع شيئًا يسقط ، أو أنسى شيئًا من الأشياء . فى ظروف العالم المتمدن ، تعتبر هذه أشياء تافهة ليس إلا ؟ أما فى الغابة البكر فخطر مميت . وإنه لأمر مميت أن تنقل خطوك فى غير موضعه وأنت تجتز جذع شجرة بلله المطر ، يستعمل جسرًا عاليًا فوق نهر يعجّ بالتماسيح . هب أننى ضيّعت بوصلتى بين الأعشاب ، أو نسيت تعبئة بندقيتى ومشيت فى طريق اعتاده كركدن الأدغال . فإن كنت شارد الذهن عما حولى فقد أدوس على أربد (= الأفعى النافخة) . حدث مرة عند هبوط الظلام أننى نسيت أن أحتذى حذاء البعوض فى الوقت المناسب ، وكان من جراء ذلك بعد أحد عشرًا يومًا أن كدت أموت من وافدة الملاريا الاستوائية . ومَن ينسَ إغلاق فمه وهو يسبح يتعرّض لزُحار قاتل . وعندنا أن السبب الطبيعى لمثل هذه الحوادث هو شرود الذهن ، أما عند البدائى فَنُذُر أُحكِم تدبيرها موضوعيًا ، أو هى سحر .

لكن المسألة ربما كانت أكثر من مسألة شرود ذهن أو قلة انتباه . فقد ذهبت مرة فى جولة فى غابة «كبراس» ، وهى من إقليم «كيتوشى» إلى الجنوب من «جبل إيلكون» . وإنى لأسير فوق الحشائش الكثيفة ، إذ كدت أطأ واحدة من الأرابد ، لكننى استطعت أن أقفز بعيدًا فى الوقت

المناسب . عصر ذلك اليوم عاد مرافقى راجعًا من الصيد ، وكان شاحب الوجه وفرائصه ترتعد من الخوف . *لقد أوشك أن تلدغه حية «المامبا»* ، وهى حية طولها سبع أقدام ، حيث قذفت بنفسها على ظهره من تلّ نملة بيضاء . ولا شك أنها كانت قتلته لولا أنه استطاع فى آخر لحظة أن يصيبها بطلق نارى . فى الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم هاجم مخيّمنا قطيع طباع جائعة كانت قبل يوم فاجأت رجلاً ولطمته وهو نائم . وبرغم اشتعال النار احتشدت فى كوخ الطاهى الذى راح يصرخ لائذًا بسور المخيّم . بعد ذلك لم يحدث شىء طيلة الرحلة . وإن يومًا كهذا اليوم يمد جماعة الزنوج بمادة للتفكير ؛ أما نحن فلم يكن الموضوع أكثر من تكرار لحوادث (لا رابط بينها) . لقد كان الأمر بالنسبة إليه تصديقًا لم يكن منه مفر لفأل غير حسن بدأ فى أول يوم من أيام الرحلة . كان ذلك عندما سقطنا جميعًا ، السيارة والجسر معها ، فى نهر كنا نحاول عبوره . فكان أن تبادل الأولاد ، الذين كانوا بصحبتنا ، النظرات فيما بينهم كأنهم يريدون القول : «حسن ، إنها لبداية رائعة !» . وقد بلغ الأمر ذروته عندما دهمتنا عاصفة استوائية هوجاء ظلت تبرق وترعد وتغدق علينا المطر حتى بللتنا تمامًا وطرقتنى على أثرها حمى أقعدتنى عدة أيام . وفى مساء اليوم الذى وجد فيه صديقى لنفسه فرصة سانحة للصيد، لم أتمالك نفسى من القول كما يحدث لنا ، نحن البيض ، إذا جلسنا معًا وراح يحدق كل منا فى الآخر : «يبدو أن المتاعب كانت قد بدأت قبل هذا بكثير . هل تذكر الحلم الذى رويته لى ونحن فى زيورخ قبل

مغادرتنا؟» . فى ذلك الحين كان قد رأى كابوسًا مـخيفًا جدًا . رأى نفسه يصطاد فى أفريقيا ، وفجأة تهجم عليه حيّة هائلة من حيّات «المامبا» فيفيق على الفور وهو يصرخ مذعورًا . لقد أقضّ الحلم مضجعه ، وأصبح يعتقد بأنه نذير بموت واحد منا . وقـد حسب ، بطبيعـة الحال ، أننى أنا الذى سوف يموت ، كدأبنا فى إلقاء التبـعة على «الفتى الآخر» . لكنه كان هو الذى أصابته ملاريا حادة شارف فيها على الهلاك .

إن قراءة مثـل هذه المحادثة فى زاوية من عالم ليس فيـه أفاع تلدغ ، ولا بعوض ينقل الملاريا ، أمر لا يعنى إلا قليلاً . لكن المرء حين يتخيل نفســه يلفّه الليل الإستوائى بزرقتـه المخملية ، والكتل الهـائلة السوداء من الأشجار تعلو هامته ، وقد انتصبت واقفة فى غابة عذراء ، وأصوات خفية تنبعث من الفـراغ الليلى ، ونار مُفردة بالقرب منها بنادق مـحشوّة وكلل البعـوض، ولاماء يشربه إلا ماء المسـتنقع يغليه لكى يسوغـه بعد ذلك ، وفوق هذا كله اعـتقاد أعرب عنه افـريقى عجوز كان يعـرف ماذا يقول : «هذه ليست بلاد الإنسان ، بل بلاد الله» . هنا ، ليس الإنسان بالملك ، بل الطبـيعـة - الحيـوان والنبـات والأوبئة . وحين يتـلاءم المرء مع هذا المكان، يعلم مقدار ما يحده من معـنى ظاهر فى أشياء لو وجدها فى غير هذا المكان لاستثارت منه ابتسامـة ساخرة . ذلك هو عالم القوى الهوجاء الاعتباطية التى ينبغى للبدائى أن يتعامل معها يومًا فيومًا . الحادثة الخارقة ما هى بالنكتة عنده . والنتائج التى يصل إليها من مثل «ليس هذا بالمكان

الصالح» أو «هذا اليوم غير ملائم» هى نتائج أوحت بها إليه تحذيرات اختبرها ، ومن يدرى ما هى الأخطار التى يتفاداها حين يتقيد بهذه التحذيرات ؟ .

«السحر علم الأدغال» . والفأل يحدث تعديلاً فى سير عمل ، وتخليًا عن مشروع كان بدىء به من قبل ، وتغييرًا فى موقف نفسى . وجميع هذه رجوعات (= ردود فعل) ملائمة للغرض على اعتبار أن حوادث الحظ أو المصادفات تجنح إلى الوقوع متعاقبة أو متسلسلة ، وعلى اعتبار أن البدائى لا يشعر أبدًا بالسببية النفسية . أما نحن فقد تعلمنا ، بفضل توكيدنا الأحادى على ما نسميه بالأسباب الطبيعية ، أن نميز ما هو *ذاتى مما هو موضوعى و «طبيعى» ، فى حين يتحد الذاتى والموضوعى عند* البدائى فى العالم الخارجى . وإذا ما حدث شىء خارق فليس هو المدهوش ، وإنما الشىء هو الذى يدهشه . فالشىء الخارق هو «المانا» ، ممنوحةً قوة السحر . وما نسميه نحن بقوة المخيّلة والإيحاء هى عنده قوى خارجية تؤثر فيه من الخارج . وليست بلاده كيانًا جغرافيًا ولا سياسيًا ؟ إنما بلاده الإقليم الذى يضم أساطيره وديانته وجميع أفكاره ومشاعره مادام لا يشعر بهذه الوظائف (الفكر والشعور) . وخوفه يستوطن هذه الغابة أو تلك . ذلك الكهف تأوى إليه شياطين تخنق كل إنسان يدخله . فى ذلك الجبل يربض الثعبان الكبير ، وفى تلك الرابية قبر الملك الأسطورى. كل امرأة تحبل إذا ما اقتربت من هذا النبع أو هذه الصخرة أو

الشجرة ؛ تـلك المخاضة يحرسهـا عفاريت الأفاعى ؛ هـذه الشجرة ذات سَمت له صوت يسـتطيع أن ينادى أناسًا معينين . والخلاصـة إن البدائى إنسان غـير نفـسانى ؛ لأن الحوادث النفـسيـة تحدث خارجًا عنه بـطريقة موضوعـية . حتى الأشياء التى يراها فـى منامه تبدو له أشياء واقـعية ؛ وهذا هو سببه الوحـيد الذى يجعله يعير الأحلام انتـباهه . قال الحمّالون الذين كانوا بصحبتنا - وهو من جبل أيلكون - قالوا أنهم يحلمون أبدًا ؛ الساحـر وحده هو الذى يحلم . ولما سألت الساحـر عن ذلك أجاب أنه أمسك عن رؤية الأحلام منذ أن جاء البريطانيون إلى البلاد . أما أبوه فقد ظل حتى ذلك الحـين يرى أحلامًا كثـيرة ، فكان يعرف مكـان القطعان التائهـة ، والمكان الذى تأخذ عجـولها إليه ، ومـتى تقع الحرب أو ينزل الوباء . أما الآن فمفوض المنطقة هو الذى يعرف كل شىء ؛ بينما هم لا يعرفون شـيئًا . لقد بدا مستسلمًا كل الإسـتسـلام كإستسـلام بعض قبائل «البابون» الذين يعـتقدون أن شطرًا كبيـرًا من التماسيح التـحق بالحكومة البريطانيـة . حدث أن محكومًا من الأهلين فـرّ من قبضة السلطة فنهـشهُ تمساح فأحـدث فيه تشويهًا فظيعًا بينمـا كان يعبر النهر . فاسـتنتجوا من ذلك أن التمساح كان من رجال البوليس . إن الله لم يعد يخاطب عرّاف القبـيلة فى الأحلام ، بل صار يخـاطب البرياطانيين لأنهم هم أصـحاب السلطة . لقـد ذهبت فـاعلية الحلم عنهـم . أرواح الأهلين تهاجـر عنهم أحيانًا ، فيأتى العراف ويمسك بها ويضعها فى أقفاص كما توضع الطير ، أو تفد عليهم أرواح غريبة فتحل بهم الأمراض .

إن من شأن هذا الإسقاط للحوادث النفسية أن يعقد صلات بين إنسان وإنسان ، أو بين إنسان وحيوان أو شيء ، صلات لا يمكن أن نفهمها نحن . إنسان أبيض أطلق النار على تمساح ، وعلى الفور توافد حشد كبير من الناس من القرية القريبة يطالبون بدفع الدية . وحجتهم أن التمساح كان امرأة عجوزًا بعينها ، كانت تقيم فى قريتهم وقد ماتت فى نفس اللحظة التى أطللقت النار فيها على التمساح : لقد كان واضحًا - فى اعتقادهم - أن التمساح كان يمثل «روح الأجم» الذى يتوحد مع تلك المرأة . رجل آخر أطلق النار على فهد كان يكمن لماشيته ؛ فى ذلك الوقت بالضبط ماتت امرأة فى القرية المجاورة ، لقد كانت متوحدة مع الفهد .

اصطلح ليفى بروهل على تسمية هذه العلاقات الغريبة باسم «المشاركة الصوفية» ، وبرأيى أن كلمة «صوفية» لم يوفق فى اختيارها . لأن البدائى لا يرى شيئًا صوفيًا فى هذه الأمور ، بل هى عنده أمور طبيعية للغاية ؛ إنما نحن الذين نجد فيها الغرابة . ولعل السبب فى ذلك أننا لا نعرف شيئًا عن مثل هذه الظاهرات النفسية[1] . لكن هذه الظاهرات تحدث لنا أيضًا ، إلا أننا نعطيها صيغًا تعبيرية أكثر مدنية . فى حياتنا اليومية يحدث لنا دائمًا أن نحسب السياقات النفسية لدى غيرنا مثلما هى لدينا تمامًا، فنحسب أن ما يسرنا وما نرغب فيه هو ما يسر

(١) أى الفُصال والإسقاط dissociation and projection .

الناس وما يرغبون فيه ، وأن ما هو شر لنا ينبغى أن يكون هو نفسه شرًا لهم . والقضاء لم يأخذ بالمنطلق السيكولوجى ويعترف بمبدأ نسبية الذنب عند النطق بالحكم، إلا فى وقت متأخر . وبسطاء الناس مازالوا يتميزون غيظًا من عقيدة «ما هو مباح لجوبيتر غير مباح للبقر» . ومازالت المساواة أمام القانون تمثل إنجازًا عظيمًا ، ولم يحل محله مبدأ غيره حتى الآن كذلك لم نزل ننسب إلى «الفتى الآخر» كل الشرور والنقائص التى لا نريد أن نعترف بها فى أنفسنا ، وهذا ما يفسر لنا أسباب التهجم عليه وسلقه بألسنتنا . غير أن ما يحدث فى هذه الحالة هو أن «روحًا» دنيا تنتقل من شخص إلى آخر . فالعالم لم يزل حافلاً بـ «البهائم السوداء» و «أكباش الفداء»[1] ، تمامًا مثلما كان حافلاً فيما مضى من الأيام بالساحرات والذئاب التى صارت كائنات بشرية .

والإسقاط حادثة نفسية من أكثر الحوادث النفسية شيوعًا ؛ إنه نفس «المشاركة الصوفية» التى عدّها ليفى بروهل السمة الخاصة التى يتسم بها الإنسان البدائى . كل ما فى الأمر أننا أعطيناها اسمًا آخر ، وجرينا على عادة نكران أن نذنب بها . كل ما هو خاف فينا نكتشفه فى جارنا ، ونتعامل معه على أساسه . صحيح أننا لم نعد نخضعه إلى امتحان تناول السم أو نحرقه أو نتتزع منه الاعتراف بالقوة ؛ إلا أننا نعمد إلى إيذائه بإطلاق الأحكام الجائرة عليه مقتنعين بها قناعة عميقة . إن ما نحاربه فيه هو فى العادة جانبنا الأدنى .

(1) فى الأصل betes noires .

والحقيقة البسيطة هى أن الإنسان البدائى هو من بعض الوجوه أقدر منا على الإسقاط لأن حالته العقلية غير متمايزة مما يستتبع معه أن يكون عاجزاً عن نقد نفسه . فكل شىء عنده يتصف بالموضوعية التامة . ولغته تعبر عن هذه الحقيقة بصورة أساسية . نحن كثيراً ما نعمد ، بدافع من حسّ الفكاهة ، إلى تصوير شخص كالأوزة أو البقرة أو الدجاجة أو الحيّة أو الثورة أو الحمار . لكن البدائى ينسب «روح الأجم» إلى شخص ما لا يكون فى نسبته هذه أثر من حكم أخلاقى يريد إطلاقه عليه . فالإنسان القديم مفرط فى «الطبيعيّة» من هذه الناحية ؛ وإن تأثره الشديد بالأشياء كما هى عليه يحول دونه وإصدار الأحكام بصورة فورية ؛ ولذلك كان أقل ميلاً منا إلى فعل ذلك . قال لى مرة أحد هنود البوابلو ، معلنًا ذلك بصورة جازمة ، أننى أنتمى إلى «توتم الدب» - بعبارة أخرى ، أننى دبّ - لأننى لم أهبط السلم ووجهى إلى الأمام كما يفعل الآدمى ، بل أهبط منه موليًا ظهرى ومتشبثًا بيدى كما يفعل الدب . لو قال لى أوروبى إن لى طباع الدب ، لكان ذلك نفس الشىء ، مع فارق طفيف فى المعنى . إن موضوع «روح الأجم» ، الذى كان بالنسبة إلينا موضوعًا غريبًا جدًا عندما التقينا به فى المجتمعات البدائية ، أصبح لدينا - نحن البيض - شأنه فى هذا كشأن أشياء كثيرة - صوراً كلامية ليس إلا . فلو أخذنا مجازاتنا على حسب مدلولاتها الحسية لعدنا إلى وجهة النظر البدائية . فعلى سبيل المثال نحن نستعمل التعبير الطبى : «أخذ يد المريض to handle apatient» ومعناه بالصيغة الحسية «وضع اليدين

عليه» - أو «العمل باليدين» . إن هذا بالضبط هو ما يفعله العرّاف بمرضاه .

يصعب علينا أن نفهم مسألة «روح الأجم» ، لأن الطريقة من رؤية الأشياء توقعنا فى الحيرة وتسبب لنا الارتباك . ولا نستطيع أن نفهم «الروح» كينونة تهاجر وتتخذ لها سكنًا فى حيوان وحشى . فإذا وصفنا شخصًا بأنه حمار ، فإننا لا نعنى من كل وجه أنه ذلك الحيوان ذو القوائم الأربع الذى نسميه حمارًا ، وإنما يشبه الحمار من وجه بعينه . وفيما يتعلق بهذا الشخص ، إن ما فعلناه هو أننا اقتطعنا جزءًا من شخصيته أو نفسه وجسدّناه فى صورة حمار . وعليه إن المرأة - الفهد ، أو الفهد - المرأة ، هى كائن بشرى فى نظر البدائى ، وما الفهد فيها إلا «روح الأجم» . ولما كانت كل الحياة النفسية الخافية «= اللا شعورية» حياة حسية وموضوعية لدى الإنسان القديم ، كان الشخص الموصوف بالفهد يُفتَرض أنه له روح فهد . ولو نحن ذهبنا فى التجسيد إلى أبعد من هذا، لكانت مثل هذه الروح تعيش فى الأجم على صورة فهد حقيقى .

إن هذه التوحدات identifications التى يحدثها اسقاط الحوادث النفسية تخلق لدى البدائى عالمًا لا يجد فيه نفسه محاطًا بـ «الطبيعة» وحسب ، وإنما بـ «النفس» أيضًا ، ومتوحدًا معه إلى حدّ ما . إنه ليس سيد عالمه بأى حال ، بل جزء منه . الإنسان البدائى ، فى افريقيا مثلاً ، لم يزل بعيدًا عن تمجيد القوى البشرية ، ولا يحلم باعتبار نفسه سيد

المخلوقات . وفى تصنيفه الزولوجى لا يأتى «الإنسان العاقل» فى الذروة ، بل الفيل . ثم يليه الأسد فالأصلة (= الثعبان الكبير) أو التمساح ، فالإنسان فالحيوانات الدنيا ولا يخطر له ببال أن بمقدوره أن يحكم الطبيعة. إنما الإنسان المتمدن هو الذى يكافح من أجل السيطرة على الطبيعة ، ولذلك يصب أعظم جهوده فى البحث عن الأسباب الطبيعية التى تعطيه مفتاح مختبر أسرار الطبيعة . وهذا ما يفسر لنا لماذا ينفر أشد النفور من فكرة القوى الاستبدادية ولا يعترف بها ؛ لأن وجود هذه القوى من شأنه أن يقدم الدليل على أن محاولته للسيطرة على الطبيعة محاولة غير مجدية .

وملاك القول إن السمة البارزة التى تسم الإنسان القديم هو موقفه من اعتباطية طوارئ الحظ أو المصادفة التى يوليها فى حوادث الكون أهمية أكبر بكثير مما يولى الأسباب الطبيعية . إن لحوادث الحظ وجهين ؛ فهى من جهة تجنح إلى الحدوث متسلسلة ، ومن جهة ثانية تتمتع بغائية ظاهرة من خلال اسقاط المحتويات النفسية الخافية (= اللا شعورية) - بعبارة أخرى من خلال «المشاركة الصوفية» . الإنسان القديم لا يصل إلى هذا التمييز قطعًا ، لأنه يسقط الحوادث النفسية بدرجة من الكمال إلى حد أنها تتوحد مع الحوادث الطبيعية . فالمصادفة عنده فعل اعتباطى وغائىّ فى آن واحد - تدخل من جانب كائن تنبض فيه الحياة - لأنه لا يدرك أن الحوادث غير العادية لا تثيره إلا بمقدار ما يخلع عليها من قوة إدهاش أو

إخافة . والحق إننا هنا نتحرك فوق أرض قلقة : هل الشيء يكون جميلاً لأننى أنسب الجمال إليه ؟ نحن نعلم جيدًا أن مفكرين لهم وزنهم تنازعوا فيما إذا كانت الشمس العظيمة هى التى تنير العالم ، أم أن العين البشرية هى التى تفعل ذلك بفـضل صلتها بالشمس . الإنسان القـديم يقول إنها الشمس ، والإنسان المتمدن يقـول إنها العين - على الأقل بمقدار ما يفكر أصلاً وبمقدار ما لا يشكو من علة الشعراء . يجب عليه أن يجرد الصفات النفسية لكى يسـيطر عليها ، وينبغى له أن يسترد جمـيع اسقاطاته القديمة لكى يرى عالمه موضوعيًا .

فى عالم البدائى كل شىء يتصف بالصـفات النفسية ؛ أى كل شىء يتمتع بعناصر النفس الإنسانية ، وبالتحـديد عناصر الخافية العامة (= اللا شعور الجمـاعى) ؛ لأنه لا يوجد حياة نفسيـة فردية . وفى هذا الصدد ، يجب ألا ننسى أن ما يرمى إليه سـر المعمودية المسيحـية لهو أعظم تطور نفسـى عرفه تاريخ الإنـسانية . فـالمعمـودية تهب الكائن البـشرى روحًا وحيدة. ولا أعنى ، بطبيعة الحال ، طقس المعمودية بحد ذاته بما هو فعل سحـرى ينتج آثاره فى تأدية واحدة . إن مـا أعنيه هو أن فكرة المعـمودية تنتشل الإنـسان من توحده القـديم بالعالم وتعـجل منه كائنًا يسـمو على عالمه. وإن استطاعة البشرية الارتقاء إلى مستوى هذه الفكرة لهو المعمودية فى أعمق مدلولاتها ، لأنها تعنى ولادة «الإنسان الروحى» الذى يعلو على الطبيعة .

من بديهيـات درس الخافيـة (= اللا شعـور) أن كل محتـوى نفسى مستقل نسـبيًا يتشخّص كلما سنحت له الفرصـة . والأمثلة الواضحة على ذلك هلوسات المجانين وجلسات تحضيـر الأرواح . فكلما اسقطنا محتوى مستقـلاً ظهر لنا شخص غير مرئى ، وهو مـا يفسر لنا ظهور الأرواح فى جلسة روحانية عادية ، وظهور الأشباح على الإنسان البدائى . فإذا اسقطنا محتوى نفسيًا هامًا على كائن بشرى ، فعندئذٍ يتحول إلى «مانا» - فيتمتع عندئذٍ بقدرة إتيان الخوارق ، ويتحـول هو أو هى إلى ساحر أو ساحرة ، أو إلى إنسان يتـحدر من ذئب وما أشبـه . الاعتقاد البـدائى بأن العرّاف يلتقط الأرواح التى ضلّت ليلاً ويحبسها فى قـفص كما تحبس العصافير ، يفسر لنا هذا تفسيراً جليًا . فالإسقاطات النفسية تمنح العرّاف قوة «المانا» ؛ فهى تنطق الحيوان والشجر والحجر ، لأنهـا فاعليات نفسية تجبر المرء على طاعتهـا . لهذا السبب يقع المجنون تحت رحمة أصواته ، فـاقد الرجاء ، ذلك لأن الشىء الذى أسقطه ما هو إلا فاعليته النفسية . فبدون أن يعلم، يكون هو الذى يتكلم من خلال أصواتـه ، بمثل ما يكون هو الذى يسمع ويرى ويأتمر .

من وجهـة نظر سيكولوجـية ، يعتـبر اعتـقاد البـدائى أن قوة الحظ الاستبدادية تجيب على مقاصد الأرواح والسحر - أمرًا طبيعيًا للغاية ، لأنه نتيجة حتمية توصّل إليـها من الوقائع كما يراها . ولو أننا شرحنا وجهة نظرنا العلمـية إلى ذكىّ من الأهـلين لا تهمنا بالتـخريف والافـتقـار إلى

المنطق . فهو يعتقد أن العالم تنيره الشمس ، دون العين البشرية . وبخنى مرة صديقى ، «بحيرة الجبل» ، (وهذا هو اسمه) ، وهو شيخ قبيلة هندية من البوابلو ، وبّخنى توبيخًا شديدًا لأننى نطقت عبارة القديس أوغسطين: «ليست الشمس إلهنا ، بل خالقها» . قال لى غاضبًا وهو يحدق فى الشمس : «من يذهب إلى هناك هو أبونا وإنك تستطيع أن تراه . منه يأتى كل نور وكل حياة - ما من شىء إلا وقد خلقه هو» . ثم أخذ منه الحماس وراح يبحث عن الكلمات وقال معجبًا : «حتى الإنسان فى الجبال الذى يذهب وحيدًا لا يستطيع أن يوقد نارًا من غيره» . قلما يمكن التعبير عن وجهة النظر القديمة بأجمل من هذه الكلمات . القدرة التى تحكمنا تأتى من العالم الخارجى ، ومن خلالها وحدها يسمح لنا بالحياة . وعندنا ، لم يزل الفكر الدينى يبقى على حالة العقل القديم ، رغم أن زماننا قد تجرد من الآلهة ، ومازالت ملايين لا حصر لها تفكر بهذه الطريقة .

فى حديثى عن نظرة الإنسان البدائى إلى اعتباطية الحظ ، بيّنت أن لهذا الموقف غاية يخدمها ، وبالتالى هو موقف له معناه . فهل نجازف ، على الأقل مؤقتًا ، بطرح فرضية مفادها أن الإيمان البدائى بالقوى الاستبدادية تبرره الوقائع وأنه ليس متأتيًا عن مجرد وجهة نظر سيكولوجية ؟ إن هذا يخيفنا ؛ لكن ليس فى نيّتى أن أقفز من المقلاة إلى النار وأحاول إثبات أن السحر موجود فعلاً . إن ما أريده هو النظر فى

النتائج التى نصل إليها لو أننا جارينا الإنسان البدائى فى حسبانه أن النور يأتى من الشمس ، وان الأشياء جميلة بحد ذاتها . وأن جزءًا من الروح البشرى فهد . إننا بهذا نسلّم بالفكرة البدائية : «المانا» . وبناء على هذه الفكرة ، الشيء الجميل هو الذى يهزنا ويثير إعجابنا ، ولسنا نحن الذين نصنع الجمال . إن شخصًا بعينه «شيطان» - لم نسقط عليه ما فى نفوسنا من شر ، وبهذه الطريقة نجعل منه شيطانًا . يوجد أناس - أشخاص المانا- نعجب بهم لأنهم أهل للإعجاب ، لا بتصورنا أنهم كذلك قطعًا. إن مفوم «المانا» يقوم على وجود شيء كمثل قوة موزعة على نطاق واسع فى العالم الخارجى تنتج جميع الآثار التى تخرج عن المألوف . كل شيء موجود «يفعل» ، وإلا لم يكن له وجود فعلى ؛ ولا يكون فاعلاً إلا بفضل صداقته الملازمة له أو الكامنة فيه ؛ والوود حقل من القوة . إن مفهوم «المانا» البدائية ، كما نرى ، هو من طبيعة نظرية فى الطاقة فى حالتها الخام .

كان بإمكاننا حتى الآن أن نجارى فى يسر هذه الفكرة البدائية . لكن الصعوبة إنما تنشأ عندما نحاول أن نذهب بمضامينها إلى أبعد من ذلك ؟ وعندئذ ينعكس أو ينقلب السياق النفسى الذى تكلمت عنه . هذه المضامين هى : أنها ليست مخيلتى أو رعبى ما يجعل من العرّاف ساحرًا؛ إنما «هو» ساحر يسقط قواه السحرية علىّ . الأشباح ليست هلوسات من عقلى ؛ وإنما تظهر لى بإرادتها هى . رغم أن هذه الإبانات مستمدة

منطقيًا من فكرة «المانا» ، إلا أننا نتردد فى قبولها ونروح نتلفت حولنا بحثًا عن نظرية حول الإسقاط النفسى تريحنا . والمسألة ليست أقل من هذا : هل النفس عمومًا - وأعنى بها الروح أو الخافية (اللا شعور) - منبعثة منا ، أم أن النفس - وهى فى أولى مراحل وعيها - كانت خارجة عنا فعلاً فى شكل قوة استبدادية ذات مقاصد خاصة بها ؟ وهل جاءتنا تدريجيًا لتأخذ مكانها فينا فى مجرى التطور النفسى ؟ هل كانت المحتويات النفسية المنفصلة - بالاصطلاح المعاصر - أجزاء من نفوس الأفراد ، أم أنها كانت موجودة بذاتها منذ بداية كينوناتها النفسية وفقًا للنظرة البدائية على شكل أشباح أو أرواح أجداد وما أشبه ؟ هل تجسدت فى الإنسان تدريجيًا فى مجرى التطور حتى كوّنت فيه تدريجيًا أيضًا ذلك العالم الذى ندعوه بالنفس ؟

تبدو لنا الفكرة برّمتها متناقضة إلى درجة خطيرة ؛ لكن مع ذلك يمكننا أن نفهم شيئًا منها . فالمعلم الدينى والمربى يؤمنان بإمكان غرس شىء فى النفس البشرية لم يكن موجودًا فيها من قبل . إن قوة الإيحاء أو التأثير أمر حقيقى ، حتى إن أحدث المدارس السلوكية فى علم النفس باتت تأمل بالوصول إلى نتائج بعيدة المدى فى هذا المجال . الشكل البدائى يعبّر عن بنية النفس المعقدة بمعتقدات واسعة الانتشار كالمسّ والانسلاب وتجسد أرواح الأجداد وحلول الأرواح إلى غير ذلك . إذا عطس أحدنا فمازلنا نقول له : «بارك الله فيك !» ، ونعنى بذلك :

«نرجو ألا تؤذيك روحك الجديدة ! . عندما خرجنا في مجرى تطورنا من تناقضات متعددة الجوانب وحققنا شخصية موحّدة ، كنا نعانى مما يشبه نفسًا مؤلفةً من عناصر مختلفة انضم بعضها إلى بعض . ولما كان الجسم البشرى قد شُيِّد بالوراثة على أساس عدد من وحدات «مندل» ، كان من الأمور التى لا تخرج عن الموضوع تمامًا أن نقول بأن النفس البشرية قد تم تركيب بعضها إلى بعض على نحو مماثل .

الأفكار المادية فى عصرنا لها ميل نستطيع أن نتبيّنه فى الفكر القديم، كلاهما يؤدى إلى نتيجة واحدة هى أن الفرد أثر ناتج ليس إلا . فى الحالة الأولى ، هو أثر ناتج عن الأسباب الطبيعية ؛ وفى الثانية ، أثر ناتج عن حوادث الحظ . يترتب على ذلك أن الفرد الإنسانى فى كلتا الحالتين لا يساوى شيئًا بحد ذاته ، لأنه نتج بسائق المصادفة عن قوى تشتمل عليها البيئة الموضوعية . وقد نشأ عن ذلك أن الفرد البشرى ليس كائنًا وحيدًا أبدًا ، بل يخضع دائمًا لعملية تبادل التغيير والتغير مع أى شيء آخر ، وأنه بالتالى يمكن الاستغناء عنه فى يسر ؛ يستوى فى هذه النظرة كل من المادية الحديثة والفكر البدائى القديم . وهكذا عادت المادية الحديثة فى نظرتها الضيقة للسببية إلى نقطة انطلاق الإنسان القديم ، مع فارق أن المادى أكثر جذرية ، لأنه أكثر تنهيجًا ، من الإنسان القديم . لكن هذا الأخير يتمتع بميزة عليه من حيث إنه يستثنى شخصية «المانا» . فى مجرى التاريخ ، ارتفعت شخصيات «المانا» إلى مقام الآلهة ، فكان منها أبطال وملوك شاركوا الآلهة خلودها بأكلهم من طعامها الذى يجدد

لها الشباب . إن فكرة خلود الفرد هذه وما له من قيمة لا تفنى ، نجدها في المجتمعات البدائية أولاً وقبل كل شيء في الإيمان في الأشباح أو الأرواح ، ثم في أساطير العصر الذى لم يكن فيه قد دخل الموت إلى العالم عن طريق الغفلة أو الحمق البشرى .

الإنسان البدائى لا يدرى بهذا التناقض فى نظرته . لقد أكّد لى الحمّالون من الزنوج أن ليس لديهم فكرة عما سوف يحدث لهم بعد الموت ، وعندهم أن الإنسان يموت لا أكثر ؛ لا يعود يتنفس ؛ تُحمل جثته إلى الأجمَة حيث تأكلها الضبع هذا ما يعتقدون أنه يحدث له فى النهار ؛ أما فى الليل فيعجّ بأرواح الموتى التى تجلب الأمراض للماشية والإنسان ، وتهجم على السّارين تُعمل فيهم مختلف أشكال الفتك والعنف ، العقل البدائى يحفل بمثل هذه المتناقضات ، إلى من شأنها أن تخرج أوروبيًا عن جلده ، وهو الذى لا يخطر له ببال أن شيئًا كهذا يمكن أن يكون له وجود فى عالمه المتمدن . إن لدينا جامعات تعتبر فكرة التدخل الإلهى مسألة قابلة للجدل - لكن حيث اللاهوت جزء من المنهاج التعليمى . وربما عدّ باحث فى حقل العلوم الطبيعية من قبيل الأشياء البائدة أن يُنسب إلى فعل الله أصغرُ تباين فى نوع من أنواع الحيوان ، وفى الوقت نفسه قد يكون عنده فى دُرج آخر من عقله إيمان مطلق بالمسيحية يطيب له أن يعرضه أيام الآحاد . إذن ، لماذا نتعب أنفسنا حول تناقض الإنسان البدائى ؟ .

لا يمكننا استخلاص منهج فلسفى من أفكار الإنسان البدائى الأولية ؟ لأنها لا تمدّنا إلا بالمتناقضات أو المتضادات ، ومع ذلك إن فى هذه المتناقضات معينًا لا ينضب لكل المجهود العقلى ، إذ تطرح علينا مشكلات الفكر فى جميع العصور والمدنيات . هل «الأفكار الجامعة» لدى الإنسان القديم أفكار عميقة حقًا ، أم أنها تبدو كذلك ويمكننى أن أتحدث عن شىء كنت لاحظته عندما كنت مقيمًا بين ظهرانى قبيلة «جبل ايلكون». لقد بحثت ونقبت ، فى البعد والعمق ، عن أثر لأفكار دينية واحتفالات وطقوس ، لكنى لم أعثر على شىء بعد أسابيع من البحث والاستقصاء . لقد أتاح لى الأهلون أن أشاهد كل شىء أردت مشاهدته ، وكانوا فى منتهى السخاء بمعلوماتهم تكلمت معهم دون وساطة من ترجمان ، لأن كثيرًا من الطاعنين فى السن كانوا يتكلمون «السواحلية» . فى بادئ الأمر ، كانوا كارهين للغاية ، لكن ما إن انكسر الجليد حتى قابلونى بحفاوة بالغة . لم يكونوا يعرفون شيئًا عن عادات دينية ، لكنى لم يتطرق إلىّ اليأس ؛ ففى ختام واحدة من محادثاتنا الكثيرة غير المثمرة، إذا رجل عجوز يقول بصوت : «فى الصباح ، عندما تطلع الشمس ، نغادر أكواخنا ، ونبزق بأيدينا ، ثم نرفعها إلى الشمس » . طلبت منه أن يؤدوا الطقس بحضورى وأن يصفوه لى بالضبط ففعلوا . وضعوا أيديهم أمام أفواههم ، وبزقوا أو نفخوا فيها نفخًا شديدًا . ثم راحوا يقلبون أيديهم ويرفعون راحات أكفهم نحو الشمس . ولما سألتهم عن معنى هذا الذى فعلوه - لماذا نفخوا أو بزقوا بأيديهم ، وكان سؤالى

لا جدوى منه ، قالوا : «إن هذا ما نفعله دائمًا» . لقـد كان من المستحيل الوصول إلى تفسير له عندهم ، وبتُّ مقتنعًا أعظم اقتناع أنهم لا يعرفون إلا مـا فعلوا ، لكـنهم لا يعرفـون لماذا فـعلوه - إنهم لا يرون لفـعلهم معنى. ثم إنهم يحيّون القمر الجديد بنفس الحركات .

هب أننى غريب تمامًا عن مـدينة زيورخ وقد جئت هذه المدينة بغـية الكشف عن عاداتها . فأول مكان أحل فيـه هو مشارف المدينة القريبة من بعض بيوت الضاحية ، ثم آتى لأتصل بسكانها من قريب فأقول للسيدين مولر وموير : «أخبـرنى من فضلك عن بعض عادات ديانتكم» ؛ يفـاجأ الرجلان بالسؤال ، لأنهما لا يترددان إلى الكنيسة أبدًا ، ولا يعرفان عنها شيئًا ، ويؤكدان أنهما لا يمارسان عادة من العادات الدينية .

لكنى ذات صباح أفاجىء السيد مولر يقوم بعمل غريب . رأيته يدور حول الحديقة ، يخبىء بيضًا ملونًا ، وينصب تماثيل غريبة من الأرانب . لقد أمسكت به متلبسًا «الجرم المشـهود» . فأسأله : «لماذا أخفيت عنى هذا الطقس البالغ الأهمية ؟» . فـيجب : «لا شىء» ، كل شخص يفعل هذا فى عيـد الفصح» ، . فـأسأله أيضًا : «لكن مـا معنى هذا البـيض وهذه التماثيل- ولماذا تخفيها ؟» ، فيبهت ولا يحير جوابًا . إنه لا يعلم ، ولا يعلم ما معنى شجرة الميلاد . لكنه يفعل هذه الأشياء مع ذلك . إنه مثل الإنسان البـدائى تمامًا فهل كـان أسلاف الزنوج فى جبل ايلـكون يعلمون

ماذا كانوا يصنعون ؟ إن هذا احتمال بعيد . الإنسان القديم يفعل ما يفعل، لكن الإنسان المتمدن يعرف ماذا يفعل .

ما معنى الطقس الذى يمارسهُ «الإيلكونى» الذى رويته لتوّى ؟ واضح أنه قربان للشمس التى هى عند الأهلين «مونَغُو» - أى «مانا» أو إلهية - عند لحظة الشروق فقط . فإذا بزقوا بأيديهم فمعنى ذلك ، فى الاعتقاد البدائى ، أن البزاق هو المادة التى تحتوى على «المانا» الشخصية ، وهو القوة الشافية التى تستحضر الحياة وتمنحها المدَدَ . وإذا نفخوا بأيديهم فالنَفَس هو الريح والروح ، «روحو» ، وهو فى العربية «روح» ، وفى العبرية «رُواخ» ، وفى اليونانية «نيوما» . فالطقس معناه : «أقدم روحى الحية لله» ؛ صلاة لا كلام فيها ، صلاة تأدية أو فعل ، كان يمكن أن يُنطَق بها كما يلى : «أيها الرب ، فى يديك أستودع روحى»[1] . هل هذا مجرد اتفاق أو مصادفة ، أم أن هذه الفكرة كانت مبطونة ومقصودة قبل أن يوجد الإنسان ؟ لا يسعنى إلا أن أترك هذا السؤال بلا جواب .

---

(١) انظر انجيل لوقا ٢٣ : ٤٦ «ونادى يسوع بصوت عظيم قائلاً يا أبت فى يديك أستودع روحى ...» . المترجم .

الفصل الثامن
علم النفس والأدب

من الأمور الجليّة أتم الجلاء أن علم النفس ، بما هو درس للسياقات النفسية ، يمكننا الاستفادة منه في درس الأدب ؛ وذلك لأن النفس الإنسانية هي الرحم التي تحتضن جميع العلوم والفنون . ولعلنا نأمل من البحث السيكولوجي أن يفسر لنا تشكل العمل الفني من ناحية ، وأن يكشف لنا عن العوامل التي تجعل من شخص ما مبدعًا فنيًا من ناحية ثانية . وبذلك يجد العالم النفسي نفسه أمام مهتمين منفصلتين ومتمايزتين، ويتعين عليه أن يفهمهما بطريقتين مختلفتين اختلافًا عظيمًا .

في حالة العمل الفني ، يقتضي أن نتعامل مع نتاج صادر عن فاعليات نفسية بالغة التعقيد ، لكنه يقتضي أن نتعامل مع الجهاز النفسي ذاته . في الحالة الأولى ، يجب علينا تحليل أثر فني محسوس محدد تحليلاً نفسيًا ؛ بينما في الثانية ، يجب علينا تحليل الكائن البشري المبدع

الحى بما هو شخصية مفردة . ورغم أن هاتين المهمتين متصلتان فيما بينهما برباط وثيق حتى لا غنى لإحداهما عن الأخرى ، إلا أن واحدة منهما لا يمكنها أن تمدنا بالتفسيرات التى تريدها الأخرى ، يمكننا -بطبيعة الحال- أن نستخلص بعض النتائج المتعلقة بالفنان من عمله الفنى ، والعكس بالعكس ؛ لكن هذه الاستنتاجات ليست حاسمة أبدًا ، وليست نهائية ؛ وإنما هى فرضيات محتملة أو تخمينات موفقة ، فى أحسن الأحوال . إن معرفتنا بعلاقة «غوته» الخاصة بزمه تُلقى شيئًا من الضوء على صيحة «فاوست» : «الأمهات .. الأمهات .. ما أغرب سماعَ هذه الكلمة !» لكن هذه المعرفة لا تُتيح لنا أن نرى كيف أمكن لعلاقته بأمه أن تنتج دراما «فاوست» بالذات ، مهما كنا مصيبين فى تحسسنا بما فى شخص «غوته» من صلة عميقة بأمه ، كذلك لن نكون أكثر توفيقًا فى حكمنا لو أننا اتخذنا الوجهة المضادة . وإذا جئنا إلى «واغنر» لم نجد فى «خاتم النبلونغز» ما يمكننا من التعرف أو الاستنتاج بصورة محددة بأن «واغنر» كان يجب أن يرتدى عرَضًا ملابس شبيهة بملابس النساء ، بالرغم من وجود صلات خفية بين عالم الذكورة البطولى ، عالم «النبلونغز» ، وبين ميول أنثوية معينة ذات طبيعة مَرَضية فى «واغنر» الرجل .

الحالة الراهنة من تطور علم النفس لا تسمح لنا بأن نقيم تلك الروابط السببية الصارمة التى نتوقعها من العلم . فنحن لا نستطيع أن نعمل بفكرة السببية ، ونحن على ثقة مما نعمل ، إلا فى نطاق المنعكسات

والغـرائز السيكو-فـيزيولوجـية . ينبـغى على عالم النفس أن يكتـفى ، انطلاقًا من النقطة التى تبـدأ فيهـا الحيـاة النفسيـة - أى المستـوى البالغ التعـقيد- أن يـكتفى بوصف الحوادث وصـفًا يتفـاوت سعةً أو ضـيقًا ، وبالتصوير الحى لسَدَى العقل ولحمتـه بكل ما فيه من تشابك يبعث على الذهول . وينبغى عليه ، بعمله هذا ، أن يمتنع عن اعتبار أى سياق نفسى واحد ، مـأخوذًا على حدة ، سـياقًا «ضروريًا» . ولو كـانت الحال على خلاف ذلك ، واستطاع عـالم النفس أن يركن إلى الكشف عن الصلات السـببية فى داخل الـعمل الفنى وفى سيـاق الخلق الفنى ، لما ترك لدرس الفن أرضًا يقف عليها ، ولجعل منه فرعًا خاصًا من علمه . وعالم النفس ربما لا يتخلى عن الإدعاء بأنه إنما يبحث فى العلاقـات السببية ، وأنه إنما يقيم هذه العلاقات فى الحوادث النفسية المعقدة . وهو لو فعل ذلك لأنكر على علم النفـس حق الوجود . لـكنه ، مع ذلك ، لا يسـتطيع أبدًا أن يبرهن على صـحة دعواه هذه بالمعنـى الأوسع ، لأن الجانب الإبداعى من الحـياة ، الذى يعـبـر عن نفســه فى العــمل الفنى على أوضح مـا يكون التعبير، يحـبط جميع المحاولات التى ترمى إلى صياغته صـياغة عقلية . كل رجع (= رد فعل) على حـافز يمكننا أن نفسره تفـسيرًا سبـبيًا ؛ لكن فعل الإبداع ، الذى هو التـرتيب غيـر المقيد بمجـرد الرجع ، سوف يظل مستـعصيًا أبدًا على الفهم البشـرى . يمكننا أن نصف مظاهر فعل الإبداع فقط ؛ يمكننا أن نتحسسه تحـسسًا غامضًا ، لكن لا يمكننا أبدًا الإحاطة به إحاطة تامة . ولسوف يظل علم النفس ودرس الفن يتـجه كل منهما نحو

الآخر ويستمد منه العـون دائمًا ، ولن يلغى أحدهما الآخر . من المبادىء الهامـة فى علم النفس أن الحوادث النفسيـة ذات صفة اشتـقاقية (= غـير أصلية) ، ومن المبـادىء الهامة فى درس الفن أن الـناتج النفسى شىء فى ذاته ومن أجل ذاته ، لا فرق بين أن يكون موضـوع البحث العمل الفنى أو الفنان نفسه . كلا المبدئين صحيح على الرغم من نسبيتهما .

١ - العمل الفنى :

ثمة فرق أساسى فى الفهم بين عالم النفس فى فحصه العمل الفنى، وبين الناقد الأدبى . ما هو ذو أهمـية وقيمة حاسمـتين عند هذا الأخير ، ربما يكون غير وارد عند الأول . فـالنتاج الأدبى ذو القيمة المشكوك فـيها هو - فى الأغلب - ذو أهمـية عظمى لـدى عالم النفس . فـعلى سبـيل المثال ، ما يســمى بـ «الرواية السيكولوجية» لا ينال عـالم النفس مكافأته منها كما يحسب صاحب العقل الأدبى . مثل هذه الرواية ، منظوراً إليها فى كليّتهـا ، إنما تفسر نفسهـا بنفسها . فـقد أدت مهمـتها فى التفـسير السيكولوجى ، وإن أقصى ما يستطيع أن يفعله عالم النفس هو أن ينقدها أو يتوسع فيـها . والسؤال الهام المتعلق بكيـفية قيام مـؤلف معين بكتابة رواية بعينها يبـقى بلا جواب بطبيعـة الحال ؛ لكنى أود إرجاء بحث هذه المشكلة العامة إلى الجزء الثانى من هذا الفصل .

الروايات التى تعود بأكثر النفع على عالم النفس هى الروايات التى لا يعطى فيها المؤلف تفسيراً سيكولوجيًا لشخصياته ، بل يدع فيها مجالاً للتحليل والتفسير ، أو الروايات التى تستثير اهتمامه بالأسلوب الذى تقدم به نفسها . والأمثلة التى تنطبق على هذا النوع هى روايات «بنوا» ، والخيال الإنجليزى على طريقة «رايدر هكارد» ، ويندرج فى هذا النوع أيضًا ذلك الرفد الذى استرفده «كونان دويل» فأثمر إنتاجًا لقى أعظم الإقبال ، وأعنى به القصص البوليسى . كذلك تأتى رواية (موبى ديك) لـ«ملفيل» ، التى أعتبرها أعظم رواية أمريكية ، فى نطاق هذا النوع من الكتابة . الحكاية المثيرة التى تخلو ظاهريًا من العرض السيكولوجى هى أكثر ما يهم عالم النفس . فبناء هذه الحكاية يقوم على أساس من المسلّمات السيكولوجية الضمنية ، وكلما كان المؤلف غير عارف بها ، أسفرت عن نفسها أمام البصيرة الناقدة صافيةً لا تشوبها شائبة . أما فى الرواية السيكولوجية فنجد المؤلف يحاول أن يصوغ مادته صياغة ثانية لكى يرفعها من مستوى الحدث الخام إلى مستوى العرض والتنوير السيكولوجيين ؛ وهو إجراء كثيراً ما يجعل المغزى السيكولوجى من عمله غامضًا أو محجوبًا عن الأنظار . إن مثل هذه الروايات لهى بالضبط الروايات التى تحمل غير صاحب الاختصاص على أن يُقبل على «علم النفس» على حين أن الروايات من النوع الآخر هى التى تتحدّى عالم النفس ، لأنه هو وحده الذى يستطيع أن يمنحها معنى أعمق .

حتى الآن لم أتكلم إلا عن الرواية ، لكنى بصدد حقيقة سيكولوجية لا تقتصر على هذا الشكل من الفن الأدبى . هذه الحقيقة نصادفها عند الشعراء أيضًا ، وتواجهنا عندما نقارن القسم الأول والقسم الثانى من دراما «فاوست» فالحب المأساوى عند «غريتشن» يفسر نفسه بنفسه ، إذ لا يسع عالمَ النفس أن يضيف إليه شيئًا لم يقله الشاعر بكلمات خير من كلماته . أما القسم الثانى فيقتضى التفسير . فرواية «فاوست» توضح ، عن طريق التطرف فى كلا الاتجاهين ، هذا التمييز السيكولوجى فيما بين الأعمال الأدبية .

ولكى أبرز هذا التمييز ، رأيت أن أدعو أحد الأسلوبين من الخلق الفنى سيكولوجيًا ، والثانى رؤيويًا . فالأسلوب السيكولوجى يتعامل مع المواد المستفادة من مجال الواعية البشرية ، يتعامل مع الدروس المستفادة من الحياة ، مع الصدمات العاطفية ، مع معاناة الهوى وأزمات المصير الإنسانى عمومًا - كل من هذه المواد يسهم فى تكوين حياة الإنسان الواعية، وحياته الشعورية على وجه الخصوص . والشاعر يتمثل هذه المادة نفسيًا ، فيرتفع بها من مستوى العامية إلى مستوى التجربة الشعرية ويتم التعبير عنها بطريقة تجبر القارىء على الوصول إلى نفاذ بصيرة بشرية أوضح وأعمق ، عن طريق استحضاره أمام واعيته ما كان يتهرب منه فى العادة ، أو يتغاضى عنه ، أو لا يحسّه إلا بشعور من الانزعاج البارد . إن عمل الشاعر هنا تفسير وتجلية لما تنطوى عليه واعيته وللاختبارات التى

لا مناص للإنسان من اختبارها فى حياته بما يتناوب عليه من أفراح وأتراح. فهو لا يترك لعالم النفس شيئًا - اللهم إلا أن نأمل من هذا الأخير أن يعرض أمامنا الأسباب التى جعلت «فاوست» يقع فى حب «غريتشن» أو الأسباب التى جعلت «غريتشن» تقتل ابنها ! مثل هذه الموضوعات تذهب إلى حد صنع قدر الإنسان ؛ تكرر نفسها ملايين المرات، وإليها ترجع الرتابة فى محاكم البوليس وفى القانون الجنائى ؛ لا يكتنفها الغموض لأنها تفسر نفسها بنفسها على أوضح ما يكون التفسير .

والأعمال الأدبية التى تندرج تحت هذا التصنيف لا حصر لها : فمنها الروايات الكثيرة التى تعالج شئون الحب والبيئة والعائلة والجريمة والمجتمع، ومنها الشعر التعليمى ، والجانب الأكبر من الشعر الغنائى ، ومنها الدراما فى فرعيها التراجيدى والكوميدى . مهما كان الشكل الخاص الذى يتخذه العمل الفنى السيكولوجى ، يظل يأخذ مادته من المجال الواسع من الخبرة الإنسانية الواعية - من واجهة الحياة ، إن جاز لنا التعبير . وإنما سميت هذا اللون من الإبداع الفنى سيكولوجيًا لأنه لا يتجاوز فى فعاليته قابلية الفهم السيكولوجى . فهذا اللون من الإبداع ، سواء كان خبرة أم كان هو التعبير عنها ، إنما يدخل نطاق ما يمكن فهمه. حتى الخبرات الأساسية نفسها التى تكوّن مادة العمل الفنى ليس فيها ما يدعو إلى الاستغراب بالرغم من كونها غير عقلية ؛ وإنما على العكس ،

فهذه الخبرات كانت معروفة منذ بداية الزمان : الهوى ونتيجته المحتومة ، خضوع الإنسان إلى تقلبات القدر ، الطبيعة الخالدة وما تحويه من جمال وجلال .

الفرق العميق الذى نحسّه بين القسمين الأول والثانى من **«فاوست»** يعلّمنا الفرق بين الإبداع الفنى السيكولوجى والرؤيوى . إن هذا الأخير يعكس جميع شروط الأول . فالخبرة التى تقدم مادة التعبير لا تعود خبرة مألوفة ، بل شىء غريب يستمد وجوده من الأرض الواقعة فى مؤخرة عقل الإنسان ؛ تلك الأرض التى تشعرنا بهاوية الزمان الذى يفصلنا عن عصور ما قبل البشرية ، أو تذكرنا بعالم فوق - بشرى يتلاقى فيه النور والظلام. إنها خبرة بدئية تتجاوز فهم الإنسان ، ولذلك هو فى خطر من الخضوع لها . إن قيمة الخبرة وقوتها مستمدتان من هائليتها . فهى تصدر عن أعماق لا زمان لها ؛ وهى غريبة ، باردة متعددة الجوانب ، شيطانية، حافلة بالزخرفة ؛ نموذج من عماء الأزل يبعث على الضحك فى شىء من العبوس ؛ «جريمة بحق جلالة قدر الإنسان» على حد تعبير نيتشه ؛ تفجر مقاييسنا البشرية وأشكالنا الإنسانية الجمالية . إن الرؤية التى تستثير الحوادث المهولة ، الخالية من المعنى ، الرؤية التى لا يدركها العقل ولا الشعور والإنسانى - إن هذه الرؤية لتلقى على كاهل الفنان مطاليب أخرى غير التى تلقيها اختبارات واجهة الحياة . فهذه لا تميط لنا اللثام الذى يحجب عنا الكون ، ولا تتخطى حدود الممكن البشرى ؛ ولذا

كانت على استعداد لأن تتشكل وفقًا لمتطلبات الفن ، مهما كانت صدمتها عنيفة على الإنسان . لكن الخبـرات البدئية تبدأ ، من السطح إلى القاع ، بتمزيق الحجاب المتمـثل فى صورة عالم منظم ، وتتيح رؤية خاطفة لما لم يدخل بعد فى عـالم الصيرورة وهو لما يزل فى عمق الهـاوية التى لا قرار لها . أهى رؤية عوالم أخرى ، أم هى إظلام للروح ؟ أهى بداية الأشياء قبل خلق الإنسان ، أم هى أجيال المستقبل التى لم تولد بعد ؟ لا نستطيع أن نقطع بأنها أحد هذه الأشياء ، أو أنها ليست واحدًا منها .

التسوية - وإعادة التسوية

الالهية الابدية للروح الابدية . (غوته)

مثل هذه الرؤية نجـدها فى (راعى هرماس) عند «دانتى» ، وفى الجزء الثانى من (فاوست) ، وفى البذخ الديونـيسى عند «نيتشه» ، وفى خاتم نبلونغر عند «واجنر» ، وفى (الربيع الأولمـبى) عند «سبتلر» ، وفى شعر «وليم بليك» وفى (ابنيروتوماكيا) عند الراهب «فرنسيسكوكولونا» ، وفى اللعثمـات الفلسفية والشـعرية عند «يعقوب بوهمه» . وعلى نحـو أكثـر تحديدًا وتخصيصًا ، تمـدّ الخبرة البدئية «رايد هكارد» بمادة العجلة الخيالية التى تدور على «هى» ، she ، وتفعل الشىء نفسه لدى «بنوا» ولا سيما فى (الأطلانطيـد) ، ولدى «كوبن» فى (Die andere seite) ، ولدى «ميرنك» فى (Das Griine Gesicht) - وهو كتـاب لا يجوز إغـفال

أهميـته ، ولدى «غوتس» فى (Das Reich Ohne Raum) ، ولدى «برلاخ» فى (Der Tate Tag) ؛ وكان يمكن أن نتوسع فى ذكـر أعمال وأسماء لغير هؤلاء .

فى تعـاملنا مع الأسلوب السـيكولوجى من الإبداع . لا نحتـاج لأن نتساءل عن مادته مم تتكون ، ولا عن معناه إلامَ يرمى ؟ لكن هذا السؤال يفرض نفســه علينا ما إن نأتى إلى الأسلوب الرؤيوى من الإبداع . عندئذٍ نندهش ، ونؤخذ على حين غرة ، وتختلط علينـا الأشياء ، ونحترس بل حتى نشـمئـز ، ثم نطلب الشرح والتـفسيـر . هذا اللون من الإبداع لا يذكرنا بشىء من حيـاتنا الإنسانية اليومية ، بل بالأحـلام ومخاوف الليل وتجاويـف العقل المظلمـة التى نحسـها أحـيانًا فى شىء من الإرتـياب . وجمهور القراء ، فى مـعظمه ، يرفض هذا اللون من الكتابة - اللهم إلا أن يكون بالغ الروعـة حـقًا - بل حتى الناقـد الأدبى يشـعر بالإرتبـاك حياله. صحيح أن «دانتى» و «واجنر» قد مهّدا الطريق أمام فهم أعمالهما؛ إلا أن الخـبـرة الرؤيوية عند «دانتى» مجلببـة بجلباب مقدمـة من الوقائع التاريخـية ، وعند «واجنر» بجلباب الحـوادث الميثـولوجية - حـتى لكأن التـاريخ والميثـولوجيـا همـا المادتان اللتان تدور حـولهـما صناعـة هذين الشاعرين . أما «رايدر هكارد» ، مع التسامح الشديد ، فيـعتبر بعامة لا أكثر من مخترع الخيـال . لكن حتى هذا ، القصة عنده ما هى إلا وسيلة للتعبـير عن مادة ذات مغزى ، فى الدرجة الأولى . مـهما بدت الحكاية طاغية على المضمون ، يظل المضمون راجحًا على الشكل .

إن الغموض الذى يكتنف مصادر مادة الإبداع الرؤيوى لهو غموض غريب حقًا ، وهو بهذا يقف على النقيض مما نجده فى أسلوب الإبداع السيكولوجى ؛ حتى إنه ليحملنا على الشك فى أن هذا الغموض لم يكن بالأمر المقصود ؛ بل نحن نميل - بطبيعة الحال - إلى الظن (وسيكولوجية «فرويد» تشجعنا على ذلك) بأن ثمة خبرة شخصية على مستوى عال تقف وراء هذا الظلمة الباذخة . وبذلك يكون لنا أمل بتفسير هذه اللمحات الغريبة من العماء ، وبفهم الأسباب التى تجعل الشاعر يبدو أحيانًا وكأنه يخفى عنا عامدًا خبرته الأساسية . وما هى إلا خطوة نخطوها فى هذه الطريقة من النظر إلى المادة حتى نصل إلى القول بأننا هنا إنما نتعامل مع فن مَرَضى أو عُصابى ؛ وهى خطوة لها ما يسوغها بمقدار ما تبدى مادة المبدع الرؤيوى من ملامح بعينها نجدها فى تخيلات المجانين . والعكس صحيح أيضًا ؛ فكثيرًا ما نكتشف فيما ينتجه عقل المجنون من ثروة فى المعنى هى ما نتوقعه من أعمال إنسان عبقرى . العالم النفسى الذى يتبع مدرسة «فرويد» يميل - طبيعة الحال - إلى اعتبار الكتابات المذكورة مشكلة من مشاكل علم الأمراض . فهو إنطلاقًا من الافتراض بأن خبرة شخصية تقف وراء ما أدعوه بـ «الرؤية البدئية» ، (وهى خبرة لا يمكن أن تقبل بها النظرة الواعية) ، يحاول أن يفسر صور الرؤية الغريبة على أنها أشكال تمويهية ، ويفترض أنها تمثل محاولة لإخفاء الخبرة الأساسية . وبحسب هذه النظرة ، قد تكون هذه الخبرة

خبرة حب تتعارض أخلاقيًا أو جماليًا مع الشخصية فى مجملها ، أو على الأقل مع تخيلات العقل الواعى . ولكى يستطيع الشاعر ، من خلال أنيّته ، أن يكبت هذه الخبرة ويخفيها إخفاء لا يسمح بالتعرف عليها ، يعمد إلى استدعاء كل مصنع الخيالات إلى العمل . زد على ذلك ، إن هذه المحاولة من استبدال الخيال بالواقع ، بما هى غير كافية ، ينبغى أن تتكرر فى سلسلة طويلة من التجسيدات الإبداعية . وهذا يفسر لنا وفرة الأشكال الخيالية ، وكلها مهول وشيطانى ، باذخ ومنحرف . فهى ، من ناحية ، إبدال للخبرة غير المقبولة ؛ وهى ، من ناحية أخرى ، تساعد على إخفاء الخبرة .

رغم أن البحث فى شخصية الشاعر واستعداده النفسى يدخل فى نطاق القسم الثانى من هذا الفصل ، أجدنى مضطرًا ههنا إلى تناول نظرة «فرويد» للعمل الفنى الرؤيوى ؛ لسبب واحد هو أنها قد أثارت اهتمامًا كبيرًا ، ثم إنها كانت المحاولة الوحيدة المعروفة جيدًا وكان المقصود منها إعطاء تفسير «علمى» لمصادر المادة الرؤيوية ، أو صياغة نظرية عن السياقات النفسية التى تعمل من وراء هذا النمط الغريب من الإبداع الفنى. وفى نفس الوقت ، أفترض أن نظرتى الخاصة إلى الموضوع ليست معروفة جيدًا أو مفهومة عمومًا . بهذه الملاحظة الأولية ، سأحاول الآن عرضها بإيجاز .

لو أصررنا على القول بأن الرؤية مستمدة من الخبرة الشخصية ، لكان علينا أن نعاملها باعتبارها شأنًا ثانويًا ، مجرد تعويض عن الواقع ، فتكون النتيجة أننا نجرد الرؤية من صفتها البدئية ولا نعتبرها أكثر من عَرَض مَرَضى ؛ وعندئذٍ تتقلص دنيا العماء الحبلى وتغدو أجزاء من الاضطراب النفسى . بهذا التفسير للموضوع نشعر بالاطمئنان ، ونعود ثانيةً إلى الصورة التى كوّناها عن الكون البالغ التنظيم . وبما أننا أناس عمليون وعقلاء ، لا نأمل من الكون أن يكون كاملاً ، فنقبل هذه العيوب التى لا مناص منها ونسميها شواذّ وأمراضًا ، ونعتبر كون الطبيعة البشرية غير مستثناة منها أمرًا مسلمًا به . أما اكتشافنا المرعب للهاويات التى تتحدى العقل البشرى فنصرفها على أنها الوهم ، وننظر إلى الشاعر على أنه ضحية الخداع . حتى بالنسبة إلى الشاعر ، إنه خبرته البدئية «بشرية . . كلها بشرية إلى حد الإفراط» ، إلى حد أنه لا يستطيع أن يواجه معناها فيضطر إلى إخفائها عن نفسه .

وأظن أننا نحسن صنعًا لو أننا بيّنا بجلاء جميع ما ينطوى عليه ذلك النوع من التفسير الذى يرد الإبداع الفنى إلى العوامل الشخصية ؛ إذن لرأينا بوضوح إلى أين يفضى بنا . والحق إنه يذهب بنا بعيدًا عن دراسة العمل الفنى دراسة سيكولوجية ، ويضعنا وجهًا لوجه أمام الاستعداد النفسى لدى الشاعر . أن يطرح علينا هذا الأخير مشكلة خطيرة فهذا ما لا يمكن نكرانه ؛ لكن يظل العمل الفنى شيئًا قائمًا بذاته ولا يجوز صرف

النظر عنه . إن مسألة الأهمية التى يعلقها الشاعر على عمله الفنى - مسألة اعتباره له شيئًا تافهًا ، أو ستارًا ، أو مصدرًا للألم ، أو انجازًا - هذه المسألة لا تعنينا فى الوقت الحاضر ، باعتبار أن مهمتنا الآن هى تفسير العمل الفنى تفسيرًا سيكولوجيًا . ومن أجل هذه المهمة ، من الضرورى أن نولى الخبرة الأساسية الكامنة وراءه اهتمامًا كبيرًا ؛ وأعنى بها الرؤية . إذ يتعين علينا أن نتناولها بمثل الخطورة التى نتناول بها الاختبارات التى تكمن وراء الأسلوب السيكولوجى من الإبداع الفنى ؛ وما من شك فى أن كليهما يتصف بالواقعية والخطورة . والحق إن الخبرة الرؤيوية تبدو وكأنها شىء منفصل عن قدر الإنسان العادى ، ولهذا السبب نجد صعوبة فى الاعتقاد بأنها أمر واقعى . فهذه الخبرة يحوم حولها شىء من سوء الطالع يوحى لنا بالغموض الميتافيزيقى والخفاء الغيبى ، حتى لنشعر أننا مدعوون إلى التدخل باسم المعقولية الهادفة . فتكون النتيجة أننا نحسن صنعًا لو لم نسرف فى أخذها على محمل الجد، لئلا يعود العالم ثانية إلى الخرافات المظلمة . قد يكون فينا ميل إلى عالم الأسرار ، بطبيعة الحال ؛ لكننا ، فى العادة ، نعتبر الخبرة الرؤيوية نتيجة للخيال الخصب أو المزاج الشاعرى - أى ، نعتبرها نوعًا من الترخّص الشعرى الذى نفهمه بطريقة سيكولوجية . بعض الشعراء يشجع على هذا النوع من التفسير لكى يقيم مسافة كبيرة بينه وبين عمله . فعلى سبيل المثال يتمسك «سبتلر» تمسكًا شديدًا بأن الشاعر سواء لديه أن يغنى «الربيع الأولمبى» أو «ليكن هنا !» . والحقيقة إن الشعراء بشر ،

وما يقوله الشـاعر فى عمله هو - فى الغالب - أبعـد ما يكون عن القول الأوضح فى الموضوع . والمطلوب منا لا يقل عن الدفاع عن أهمـية الخبرة الرؤيوية تجاه الشاعـر نفسه وتحققها . ولا أسـاس للزعم بأن الجزء الثانى من «فاوست» يتنكر أو يخفى الخبرة الإنسانية العادية التى نجدها فى الجزء الأول ؛ كـذلك لا يسـوغ لنا الزعم بأن «غوته» كان طبيعـيًا عندما كتب الجزء الأول ، وفى حالة عُصابية عندما كـتب الجزء الثانى . يمكننا اعتبار «هرماس» و «دانتى» و «غوته» بمثابة ثلاث خـطوات أو درجات فى سلّم يغطى ألفى سنة من الـتطور البشـرى تقريبًا ، فـى كل منها نجـد حكاية الحب الشخـصيـة لا ترتبط بالخبرة الرؤيوية الأثـقل وزنًا وحسب ، وإنما تخضع لها خضوعًا صريحًا . وعلى أساس من هذه الدلالة التى يمدنا بها العمل الفنى نفســه ، وتقذف بعيدًا مسألة الاستـعداد النفسى الخاص لدى الشاعر ، يتعين علينا أن نسلم بأن الرؤية تمثل خـبرة أبعد غورًا وأشد قوة من العـاطفة البـشـرية . فى هذا النوع من الأعـمال الفنيـة - ويجب ألا نخلطهـا أبدًا بالفنان بما هو شخص - لا نسـتطيع أن نشك فى أن الرؤية إن هى إلا خبـرة بدئية أصـيلة ، بقطع النظر عـما قـد يقوله المتـاجرون بالعقل . الرؤية ليست شيئًا مستمدًا من غيره ، ولا شيئًا ثانويًا ، ولا هى عَرَض من شىء آخر . إنهـا تعبير رمزى حـقيقى - أى تعبـير عن شىء موجود بذاته ، لكنه معروف معرفة غير تامة . حكاية الحب خبرة حقيقية يعانى منهـا الإنسان معـاناة حقيقـية ؛ وما يصح على خـبرة الحب يصح

أيضًا على خبرة الرؤية . لسنا بحاجة لأن نحاول تعيين ما إن كان محتوى الرؤية ذا طبيعة فيزيائية أو نفسية أو ميتافيزيائية . فهي ، بحد ذاتها ، حقيقة نفسية؛ والحقيقة النفسية لا تقل عن الحقيقة الفيزيائية . العاطفة البشرية تقع في نطاق الخبرة الواعية ، بينما يقع موضوع الرؤية فيما وراءها . من خلال مشاعرنا نختبر ما هو معلوم ، لكن حدسنا يشير إلى أشياء غير معلومة ، أشياء خبيثة ؛ أي ، سرية بحكم طبيعتها بالذات . وإذا اتفق لها وأصبحت واعية (= أي دخلت في نطاق الوعي)، فما تلبث حتى تتمنع وتختفي عن عمْد ؛ وهذا هو السبب الذي جعل الناس ينظرون إليها - منذ أقدم الأزمنة - على أنها غامضة خادعة . الرؤية عصيّة على تفحص الإنسان لها ، بل إنه يتعمد أن يحجب نفسه عنها بسبب «الديزيدمونيا»[1] ، ويقي نفسه منها بترس من العلم ودرع من العقل . فالإنسان إنما وُلدت استنارته من الخوف ؛ في النهار يؤمن بعالم منظم ، ويحاول أن يتشبث بهذا الإيمان خوفًا من العماء الذي يؤرقه أو يقلقه في الليل . ماذا لو كان هناك قوة حية يقع نطاق فعلها فيما وراء عالمنا اليومي؟ هل ثمة احتياجات بشرية لا يمكن الاستغناء عنها أو تجنبها؟ هل ثمة شيء قصدي أكثر من الكهارب (= الإلكترونات) ؟ تُرى هل نخادع أنفسنا عندما نظن أننا نلك نفوسنا ونتحكم فيها ؟ هذا هذا الذي

(١) Deisidaemonia هذه الكلمة لم نعثر عليها في المعاجم الإنجليزية التي بحوزتنا ، لكن تركيبها يوحي بأن فيها «الألوهة» و «الشيطان أو العفريت» و «المرض العقلي» - المترجم - .

يسميه العلم باسم «سايكى» (= النفس) ليس مجرد علامة استفهام محصورة فى نطاق الجمجمة بصورة اعتباطية ، أم أنه باب مفتوح على عالم الإنسان من عالم آخر ، يسمح حينًا بعد آخر لقوى غريبة لا تُدرك بأن تؤثر فى الإنسان وتزعجه عن مستوى البشرية العامية وتنقله إلى مستوى أحفل بالهموم الشخصية ، كما تؤثر فى أجنحة الليل ؟ وعندما ننظر فى النمط الرؤيوى من العمل الفنى ، يبدو لنا كما لو أن حكاية الحب كانت مجرد فدام[1] مفضوض ؛ كما لو أن الخبرة الشخصية لم تكن غير مقدمة لـ «الكوميديا الإلهية» ، الكليّة الأهمية .

إن المبدع فى هذا اللون من الفن ليس وحده الذى له صلة بالجانب المظلم من الحياة ، بل الراؤون والأنبياء والمنّورون أيضًا . مهما كان هذا العالم الليلى مظلمًا ، فهو ليس عالمًا غير مألوف كليّةً ؛ لقد عرفه الإنسان منذ زمان سحيق ؛ وعرفه هنا وهناك فى كل مكان ؛ وهو يشكل عند الإنسان البدائى اليوم جزءًا لا محل للبحث فيه من صورته عن الكون (الكوزموس) . إنما نحن الذين أنكرناه بسبب خوفنا من الخرافة والأشياء الغيبية ، وبسبب سعينا لإنشاء عالم واع ، مأمون ، مطواع ، يحتل فيه القانون الطبيعى منزلة القانون المدنى فى الدولة . ثم إن الشاعر ، حتى فيما بين ظهرانينا ، يتخطف نظرهُ حينًا بعد آخر أشكال مما يحفل به عالم

(١) الفدام (بكسر الفاء) غطاء الزجاجة (= القنينة) ، وأكثره اليوم من مادة الفلين أو المعدن الرقيق .

الليل من أرواح وعفاريت وآلة . فهو يعلم أن الغائية التى تفوق متناول الغايات البشرية هى السر الذى يهب الإنسان الحياة ؛ إن لديه تحسسًا بحوادث لا يطالها الفهم تجرى فى عالم الحضور الإلهى أو عالم الملء pleroma ؛ إنه ، باختصار ، يرى شيئًا من ذلك العالم النفسى الذى يقذف الرعب فى قلوب الهمج والبرابرة .

ظلت الجماعة البشرية الأولى ، منذ بداياتها فنازلاً ، وهى تسعى جاهدةً لإعطاء سرائرها الخفية شكلاً ملزمًا ، ولم تزل آثار هذا الجهد ماثلة حتى يومنا هذا . ففى رسومات روديسيا الصخرية التى ترجع إلى العصر الحجرى الأول نجد ، جنبًا إلى جنب مع صور الحيوانات التى تثير دهشتنا بما يكاد ينبعث فيها من حياة ، نجد نموذجًا مجردًا : صليبًا مزدوجًا فى قلب دائرة . هذا التصميم يظهر فى كل منطقة ثقافية ، على درجة متفاوتة؛ ونجده اليوم لا فى الكنائس المسيحية وحدها ، وإنما فى أديرة «التيبت أيضًا . هذا النموذج المجرد هو ما يُعرف بـ «عجلة الشمس» ؛ وبما أنه يرجع إلى زمان لم يكن أحد يفكر فيه بالعجلات على أنها جهاز آلى ، ولا يمكن أن يكون مصدر هذا النموذج خبرة من العالم الخارجى . وإنما هو رمز لحادث نفسى ، مصدره خبرة من العالم الداخلى ؛ ولا شك أنه ما من ثقافة بدائية خلت من نظام تعليم سرى ، وقد تطور هذا النظام تطورًا عاليًا فى كثير من الثقافات . فمجالس الرجال والعشائر التوتمية تحتفظ بهذا التعليم عن الأشياء التى كانت تشكل على الدوام اختباراته النابضة بالحياة منذ الأزمنة الأولى . والعلم بها ينتقل من الكبار إلى

الصغار بواسطة طقوس تسليم الأسرار (= الشد والتلقين) . وفى عالم الإغريق والرومان قامت ديانات الأسرار بنفس الوظيفة ؛ وما الميثولوجيا المخصبة فى العالم القديم إلا أثر من هذه الاختبارات الحاصلة فى مرحلة أقدم من التطور البشرى .

ولذلك نحن نتوقع من الشاعر أن يلجأ إلى الأسطورة يلتمس منها أنسب شكل للتعبير عن خبرته . وإنه لمن فادح الخطأ أن نحسب أنه يتعامل مع مواد مستعملة . فالخبرة البدئية هى مصدر قدرته المبدعة ؛ إنها خبرة لا يُسبر غورها ، ولذلك تتطلب التمثيل (= اللغة المجازية) لإعطائها الشكل . والخبرة البدئية ، بحد ذاتها ،لا تطرح علينا كلمات ولا صوراً، لأنها رؤية منظورة «كما فى زجاجة ، على نحو مظلم» ، إن هى إلا تحسس عميق يجهد لكى يجد له تعبيراً . وهى أشبه شىء بالإعصار الذى يستحوذ على أنه شىء يقع فى متناوله ، حتى إذا ارتفع إلى الأعلى اتخذ له شكلاً مرئيًا . ولما كان التعبير الخاص لا يمكنه أن يستنفد إمكانيات الرؤية أبدًا ، بل لابد له من أن يقصر عنها كثيراً لما فى مضمونها من غنى وثراء ، كان لابد للشاعر من أن يكون تحت تصرفه مخزون هائل من المواد إن كان يريد البوح ولو بقليل عما فى سريرته . بل أكثر من ذلك ، عليه أن يلجأ إلى نوع من التمثيل المجازى عصى على الفهم ، حافل بالنقائض ، لكى يستطيع التعبير عما فى رؤياه من تناقض عجيب. فسابق الشعور عند «دانتى» ارتدى صوراً طافت الجنة والنار ، وقد تعيّن

على «غوته» أن يستحضر «البلو - كسبرغ» وأقاليم الجحيم عند قدماء الإغريق ؛ واحتاج «واغنر» إلى بنية الأسطورة الشمالية برمّتها ؛ وعاد «نيتشه» إلى الأسلوب الهيراطيقي (= الكهنوتي) وبعث الحياة في الرائي الخرافي الذي يرجع إلى أزمنة ما قبل التاريخ ؛ واخترع «بليك» لنفسه أشكالاً لا توصف ، واستعار «سبتلر» أسماء قديمة لمخلوقات جديدة نسجها من بنات أفكاره . وليس ثمة خطوة وسيطة في كامل السلسلة ابتداء من العالي الذي لا يوصف إلى الباذخ أو الشاذ المبتذل .

ولا يسع علم النفس أن يفعل شيئًا في سبيل توضيح هذا التمثيل المجازي الملوّن - اللهم إلا أن يجمع مواده بعضها إلى بعض بغية المقارنة وصياغة اصطلاحات لها تيسر لنا سبيل البحث فيها . وبناء على هذه الاصطلاحات ، نسمي ما يبدو في الرؤيا «الخافية العامة أو الكلية Un collective unconscious . ونريد بالخافية العامة أو الكلية استعدادًا نفسيًا معينًا تشكله قوى الوراثة ؛ ومنه نشأت الواعية Consciousness. في بنية الجسم الفيزيائية نجد آثارًا من مراحل التطور الأولى ، وبوسعنا أن نتوقع أن تكون النفس الإنسانية متطابقة مع قوانين تطور النوع البشري . من الحقائق المقررة أنه في حالة كسوف شمس الواعية - في الأحلام وفي حالات الخَدَر والجنون - يتصاعد إلى السطح نواتج أو محتويات فيها كل علاقات المستويات البدائية من التطور النفسي . فالصور نفسها تكون أحيانًا ذات طابع بدئي تحملنا على الظن بأنها مستمدة من تعليم سحري قديم .

كذلك غالبًا ما تظهر موضوعات ميثولوجية فى ثياب حديثة . وما يرتدى أهمية خاصة فى دراسة الأدب الذى تظهر فيه تجليات الخافية العامة هو أنها تعويض عن الموقف الواعى . وهذا يعنى أنها تستطيع أن تأتى بحالة من الوعى ذات جانب أحادى ، أو بحالة شاذة أو خطرة إلى وضع متوازن مقصود ظاهريًا . فى الأحلام نستطيع أن نرى هذا السياق بوضوح جلىّ فى جانبه الإيجابى . وفى حالات الجنون ، غالبًا ما يكون السياق التعويضى تام الوضوح ، إلا أنه يتخذ له شكلاً سلبيًا . فهناك ، مثلاً ، أشخاص كانوا حريصين على الانطواء على أنفسهم بعيدًا عن العالم لم يلبثوا حتى اكتشفوا يومًا أن أسرارهم الخفية أضحت معروفة وراح الناس كلهم يتحدثون عنها .

لو نظرنا فى «فاوست» ، واستبعدنا إمكانية أن يكون تعويضًا عن موقف «غوته» الواعى ، لكان السؤال الذى ينبغى لنا الإجابة عنه هو : فى أى علاقة يقف «غوته» من النظرة الواعية فى عصره ؟ إن الشعر العظيم يستمد قوته من حياة النوع البشرى ، وإننا لنفقد معناه تمامًا إن نحن حاولنا أن نرده إلى العوامل الشخصية . كلما أصبحت الخافية العامة أو الكلية اختبارًا حيًا وجاءت لكى تؤثر فى النظرة الواعية فى عصر من العصور ، كان هذا الحدث فعلاً إبداعيًا يرتدى أهمية عند كل من يعيش فى هذا العصر ، وكان العمل الفنى الناتج ينطوى على ما يمكننا تسميته عن ثقة رسالة إلى أجيال من الناس . هكذا يمسّ «فاوست» شيئًا فى

نفس كل ألمانى . وهكذا أيضًا كانت شـهرة «دانتى» الخالدة ، بيـنما لم يفلح «راعى هرماس» فى الاندراج فى قانون «العهـد الجديد» : لكل حقبة أهواؤها ، سـوابق الحكم الخاصـة بها ، وكـذلك أمراضـها النفـسيـة . والعصر ، كالفرد، له حدوده الخاصة به فى نظرته الواعية ، ولذلك يلزمه تكييف تعـويضى . وهذا يحصل تحت تأثير الخـافية العامـة أو الكلية من حيث إن الشـاعر أو الروائى أو الزعـيم يسمح لنفـسه بالاستـرشاد ، أو بالعمل على هدى من الرغـبة التى لا يعبر عنهـا فى زمانه ، ويدلّنا على الطريق ، بالقول أو الفـعل ، الذى يوصلنا إلى ما يتطلع إليـه كل واحد منها بصورة عمياء ويتوقـعه ، بقطع النظر عما إذا كان هذا الوصول ينجم عنه خير أو شر ، ما إن كان شفاء للعصر أو دماراً له .

وإنه لأمر خطيـر دائمًا أن يتكلم امرؤ عن الزمن الذى يعيش فـيه ، لأن ما هو قيـد البحث فى الوقت الحاضر لهـو أوسع من أن يحيط به . ولذلك يكفى بضع إشارات . فكتاب «فرنسيسكو كولونا» صُبّ فى قالب من الحلم ، وهو تأليه للحب الطبيعى بإضفـاء علاقة إنسانية عليه ، دون أن يؤيد الانغماس الهمـجى فى ملذات الحواس ، إذ يطرح سر الزواج فى المسيحـية جانبًا . وكان وضع كتـابه عام ١٤٥٣ . أما «رايدر هكارد» ، الذى تصادفت حياته مع ازدهار العصر الـفيكتورى ، فيتناول هذا الموضوع ويعالجه على طريقته الخـاصة ؛ لم يصبّه فى قالب من الحلم ، وإنما أتاح لنا أن نشعر شعوراً قويًا بتوتر الصراع الأخلاقى . و «غوته» ينسج

موضوع غـرتشن - هلن - مـاتر - غلوريوزا كما ينسج خـيطًا أحمر فى سجادة «فاوست» الملوّنة . و «نيتشه» ينادى بموت الله ، و «سبتلر» يحول فتوة الآلهة وشيخوختهم إلى أسطورة الفصول . كل من هؤلاء الشعراء ، كائنة مـا كانت أهمـيتـه ، إنما ينطق بلسان الألوف وعـشرات الألوف ، ويتنبأ بالتغيرات الحاصلة فى نظرة زمانه الواعية .

٢ - الشاعر :

الإبداع ، شأنه كشأن حـرية الإرادة ، أمر ينطوى على سر . وعالم النفس يسـتطيع أن يصف كلتا الظاهرتـين على أنهمـا سياقـان ، لكنه لا يستطيع أن يحل المشاكل الفلسفية التى تطرحانها . والإنسان المبدع لغز قد نحـاول أن نجيب عنه بطرق مـخـتلفة ، لكن دائمًا دون جـدوى ، وهى حقيقة لم تمنع علم النفس الحديث من أن يعود مرة بعد أخرى إلى مسألة الفنان وفنه[١] . صحـيح أن إمكانيات معـينة تُطرح فى هذا الاتجاه ، لأنه أضحى من الأمور المفهومة أن العمل الفنى يمكن إرجاعه إلى العقد النفسية بمثل ما يمكن إرجاع العُصاب إليهـا ، لقد كان ما قام به «فرويد» اكتشافًا عظيمًا عندمـا قرر أن للعصاب أصـلاً سببـيًا فى النطاق النفسى - أى أنه يستـمد نشأتـه من الحالات الانفعـالية ومن خبـرة الطفولة الحـقيقـية أو المتوهمة. فقد أنشـأ اثنان من أتباعه ، وهما رانك وستكل ، خطين من البحث لهما علاقة بهـذا الموضوع ووصلا إلى نتائج هامة . لا نكران فى

(١) انظر مقال فرويد عن «غراديفا» لجنسن وعن ليوناردو دافنشى .

أن استعداد الشاعر النفسى يشيع فى عمله أصلاً وفرعًا . كذلك لا جديد فى القول بأن العوامل الشخصية تؤثر إلى حد كبير فى اختبار الشاعر واستخدامه لمواده . ويجب أن نعترف بأننا مدينون لدراسة «فرويد» ببيان هذا التأثير والطرق الغريبة التى يعبر بها .

العُصاب ، فى اعتبار «فرويد» ، تعويض غير مباشر عن وسيلة مباشرة لإرضاء نزعة أو إطفاء شهوة . ولذلك يعتبره شيئًا غير مناسب ، خطأ أو مراوغة ، تعللاً أو تعاميًا . وعنده أن هذه من العيوب التى لا تليق بالإنسان الاتصاف بها . ولما كان العصاب ، بجميع المظاهر ، ما هو إلا اضطراب يستثير غضبنا الشديد لأنه لا معنى له ولا مغزى ، كان الذين يغامرون بقول كلمة فى صالحه قليلين جدًا . غير أن العمل الفنى يمكن بحثه كما يُبحث العصاب عندما نعتبره شيئًا يمكن تحليله انطلاقًا من مكبوتات الشاعر . العمل الفنى هنا يجد نفسه فى صحبة صالحة ، بمعنى من المعانى ؛ لأن الدين والفلسفة فى اعتبار سيكولوجية «فرويد» ، يُنظر إليهما فى نفس الضوء . لا يمكن الاعتراض على هذا الفهم لو سلّمنا أنه لا يذهب إلى أبعد من توضيح العوامل التى تعين ملامح الشخصية التى لا يمكن أن نتصور العمل الفنى وجودًا بدونها . لكن عندما نزعم أن هذا التحليل يفسر العمل الفنى نفسه ، عندئذٍ لابد لنا من أن نرفض هذا الفهم رفضًا باتًا . ذلك أن الأمزجة الشخصية التى تتسلل إلى داخل العمل الفنى ليست بالأمر الأساسى ؛ والحق إنه كلما كان علينا أن نتعامل مع

هذه الخصوصيات ، تصبح المسألة أقل من مسألة عمل فنى . الأصل فى العمل الفنى أن يسمو على حالة الشخصية ، وأن يتكلم من روح الشاعر وقلبه بما هو إنسان إلى روح البشرية وقلبها . الجانب الشخصى حد - بل وحتى خطيئة - فى مجال الفن . وعندما يكون الشكل «الفنى» شخصيًا فى الدرجة الأولى ، يكون من حقه أن نعامله كما لو أنه عُصاب . ثمة شيء من الصحة فى الفكرة التى تتمسك بها مدرسة «فرويد» وهى أن الفنانين نرجسيون بلا استثناء ؛ تريد أن تقول بذلك إنهم أشخاص لم يكتمل نموهم ، فيهم ملامح طفولية وملامح من عشق الذات . غير أن هذه الإبانة لا تصح إلا على الفنان بما هو شخص، لا على الإنسان بما هو فنان . لأن الفنان ، بما هو كذلك ، لا يعشق ذاته ولا يعشق غيره ولا يعشق بأى معنى من المعانى . الفنان ، بما هو كذلك، موضوعى غير شخصى - بل وحتى غير بشرى - لأنه ، وهو الفنان ، لا شيء غير فنه، وليس الكائن البشرى .

كل شخص مبدع فهو شَفع ، أو تركيب من مؤهلات متناقضة . إنه، من جهة كائن بشرى وله حياته الخاصة . وهو ، من جهة ثانية ، غير شخصى بل سياق إبداع . ولما كان من الممكن أن يكون سليمًا أو سقيمًا ، بما هو كائن بشرى ، كان علينا أن ننظر فى تكوينه النفسى لكى نكشف عن العوامل التى تعين شخصيته . لكن عندما ننظر فى عمله الإبداعى لا نستطيع أن نفهمه إلا بوصفه فنانًا . وإننا لنرتكب خطأ

مؤسفًا لو حاولنا تفسيـر أسلوب حياة جنتلمان انجليزى أو ضابط بروسى أو كارديـنال كاثوليكى من منطلق العـوامل الشخـصيـة . فالجنتلـمان أو الضابط أو الكاردينال إنما يعـمل بهذه الصفة من منطلق غيـر شخصى ، وقد عيّنت مـوضوعيّة من نوع خاص أوصاف تكويـنه الشخصى . يجب علينا أن نسلّم بأن الفنان لا يعمل بصفـة رسمية ؛ إنما العكس هو الأدنى إلى الحقيقة . لكنه يظل ، مع ذلك ، يشـبه النماذج التى ذكرتها توآ من جانب واحـد ، لأن الاستعـداد الفنى بالتخـصيص ينطوى على رجـحان للحياة النفسـية الجماعية على الشخصـية . فالفن نوع من السائق الفطرى يستولى على الكائن البشرى ويجعله أداة مسخرة له . ليس الفنان شخصًا يمتلك إرادة حرة يسعى نحو أهدافه الخـاصة ، وإنما هو شخص يتيح للفن أن يحقق أغراضه من خـلاله . قد يكون للفنان ، بما هو كائن بشرى ، أمزجـته وإرادته وغاياته الشـخصية ؛ لكـنه ، بما هو فنان ، هو «إنسان» بمعنى أعلى ، هو «إنســان كلىّ» ، إنسان يحمل الخـافية (= اللا شـعور) ويمنحهـا الشكل ، أى الحياة النفسـية للنوع البشرى . ولكى يقـوم بهذه المهمـة الصعبة ، يصـبح من الضرورى له أنه يضحى بسعـادته وبكل ما يجعل من حياته جديرة بالحياة فى نظر الإنسان العادى .

وإذا كان الأمر كذلك ، فليس بمسـتغرب أن يكون للفنان حالة تثير الاهتمام على نحو خاص لدى عالم النفس الذى يستخدم المنهج التحليلى. إن حيـاة الفنان لا يمكن إلا أن تكون حافلة بالصـراعات ، لأن فى داخله

قوتين تتصارعان : فهو ، من ناحية ، إنسان عمومى يسعى إلى تحقيق السعادة والراحة والأمان فى الحياة ؛ وهو ، من ناحية ثانية ، مسكون بهوى طاغ إلى الخلق والإبداع الذى قد يذهب به إلى حد القضاء على كل شهوة شخصية . الأصل أن تكون جياة الفنانين لا تبعث على الارتياح - هذا إن لم نقل مأساوية - بسبب قصورها من الناحية البشرية والشخصية، لا بسبب حظهم العاثر . قلما نجد استثناء من قاعدة وجوب أن يدفع امرؤ ثمنًا غاليًا لقاء ما وهبه الله من نار مبدعة . إن الأمر يبدو كما لو كان كلاً منا قد امتلك منذ حين مولده قدراً معينًا من الطاقة ، والقوة الأشد فى تكويننا سوف تستأثر بهذه الطاقة ، وهى قد تفعل كل شىء إلا التخلى عن الاستئثار بها ، ولا تدع منها إلا القليل الذى لا قيمة له . وعلى هذا النحو تقوم القوة المبدعة بانتزاح الدوافع البشرية إلى درجة لا يمكن معها للأنية الشخصية إلا أن تنمى جميع أنواع الصفات الخبيثة ، كالقسوة أو انعدام الرحمة والأنانية والغرور (أو ما يسمى «عشق الذات») ، بل وحتى كل أنواع المثالب والعيوب ، فى سبيل الاحتفاظ بشرارة الحياة ووقاية نفسها من الاستلاب الكلى . إن عشق الذات عند الفنانين لأشبه بالأولاد غير الشرعيين أو المنبوذين الذين يتعين عليهم ، منذ سنيّهم الغضة ، أن يحموا أنفسهم من التأثير المدمر الذى يأتيهم من أناس ليس عندهم حب يمنحونه ؛ أولاد نمت عندهم صفات خبيثة من أجل هذا الغرض بالذات ؛ وفيما تلا من الزمن ظلوا يحتفظون بتركيز على الذات لا سبيل إلى قهره،

فبقوا مدى الحياة طفوليين وفاقدى الرجاء ، أو معتدين على حرمة الأخلاق والقانون . بعد هذا ، هل يخامرنا شك فى أن الفن هو الذى يفسر الفنان ، وليس الحرمان والصراع فى حياته الشخصية ؟ إن هذه ليست سوى نتائج مؤسفة نتجت عن كونه فنانًا ؛ أى ، إنسانًا ، كان مطلوبًا منه منذ حين مولده أن يؤدى مهمة أعظم من المهام التى تُسند إلى الأناس العاديين . المقدرة الخاصة معناها نقطة باهظة من الطاقة فى اتجاه خاص ، ينتج عنها نَزحٌ من جانب آخر من الحياة .

لا فرق إن كان الشاعر يعلم أن عمله يولد معه وينمو ويكبر أو إن كان يحسب أنه إنما يوجده بإعمال الفكر من الفراغ . إن رأيه فى المسألة لا يغير من الأمر شيئًا ، وهو أن عمله يزيد نموه عليه كما يزيد نمو الابن على أمه . السياق المبدع له صفة أنثوية ، والعمل المبدع ينشأ من أعماق الخافية ، أو من مملكة الأمهات ، بعبارة أخرى . كلما سادت القوة المبدعة، تحكمت الخافية (= اللا شعور) بالحياة الإنسانية وقولبتها من دون الإرادة الفاعلة ؛ وعندئذٍ تُلقى بالأنيّة الواعية إلى تيار الأعماق بما هى ليست أكثر من مراقب للحوادث . والعمل فى السياق يصبح قدر الشاعر ويعين تطوره النفسى . ليس «غوته» هو الذى أبدع «فاوست» ، إنما هو «فاوست» الذى أبدع «غوته» . وما «فاوست» إلا رمز لا أكثر . لا أريد بالرمز مجازًا يشير إلى شىء مألوف جدًا ، بل تعبير يدل على شىء غير معروف بجلاء ، لكنه ملىء بالحياة مع ذلك . إنه ، هنا ، شىء يحيا فى

روح كل ألمانى ،وقد ساعد «غوته» على ولادته . هل يُعقل أن يكتب «فاوست» أو «هكذا تكلم زرادشت» غير ألمانى ؟ كلاهما يعزف على شىء يتردد فى الروح الألمانية ، على «صورة بدئية» كما أسماها «يعقوب بركهارت» ذات مرة ، هى صورة للطبيب أو المعلم للنوع البشرى . هى صورة النموذج الأول للشيخ الحكيم ، المنقذ أو الفادى ؛ الصورة القابعة دفينة وهاجعة فى خافية الإنسان منذ فجر الثقافة ، وتستيقظ كلما خرجت الأزمنة عن مفصلها ووقعت الجماعة البشرية فى خطأ فادح . عندما يندّ الناس عن سواء السبيل ، يشعرون بحاجة إلى مرشد ، أو معلم ، أو حتى إلى طبيب . هذه الصورة البدئية كثيرة ، لكنها لا تظهر فى أحلام الأفراد أو فى الأعمال الفنية إلا عندما يدعوها إلى الحضور انحراف عن النظرة العامة . فعندما تتميز الحياة الواعية بالأحادية والموقف الخاطىء ، تنشط - بودنا أن نقول «غريزيًا» - هذه الصور وتظهر إلى النور فى أحلام الأفراد وفى رؤى الفنانين والرائين ، وبذلك تعيد إلى العصر توازنه النفسى .

بهذه الطريقة يأتى عمل الشاعر ملبيًا للحاجة الروحية فى المجتمع الذى يعيش فيه ؛ ولهذا السبب كان العمل يعنى للشاعر شيئًا أكثر من قدره الشخصى ؛ سواء أكان عالمًا بذلك أم لا . والشاعر ، بوصفه أداة مسخّرة لعمله بصورة أساسية ، يخضع له ، ولا يحق لنا أن نتوقع منه تفسيراً له. لقد بذل قصاري جهده بإعطائه الشكل لما هو كامن فيه ،

وعليه أن يترك مهمة التفسير للآخرين وللمستقبل . إن العمل الفنى أشبه شيء بالحلم ؛ على الرغم من وضوحه البادى ، إنه لا يفسر نفسه ، وهو ليس غير غامض أبداً . الحلم لا يقول أبداً : «ينبغى لك» ، أو «هذه الحقيقة»؛ بل يعرض صورة بنفس الطريقة التى تتيح فيها الطبيعة للنبات أن ينمو ، ويبقى علينا أن نستخلص نتائجنا منه . فإذا عَرَض لامرئ كابوس ، فمعنى ذلك أنه إما مسرف فى الخوف وإما مسرف فى الأمان منه ؛ وإذا حلم بـ «الشيخ الحكيم» ، فقد يعنى أنه مفرط بالحذلقة ، مثلما يعنى أيضًا أنه بحاجة إلى معلم . وإن كلا المعنيين ليصل بنا ، بطريقة خفية ، إلى نفس النتيجة ، كما نلاحظ عندما ندع للعمل الفنى أن يؤثر فينا كما أثر فى الفنان ؛ فلكى نفقه معناه ، ينبغى لنا أن نسمح له أن يشكلنا مثلما شكل الفنان من قبل ، وعندئذ نفهم طبيعة خبرته ، فنرى أنه قد اجتذب قوى الشفاء والفداء من النفس العامة أو الكلية التى تقبع تحت الواعية وما فيها من عزلة وأخطاء مؤلمة ، وأنه قد تغلغل فى أعماق رحم الحياة التى ينطمر فيها جميع الناس ، الرحم التى تنقل إيقاعًا مشتركًا إلى الوجود البشرى ، وتتيح للإنسان الفرد أن يفضى بمشاعره ومعاناته إلى البشرية جمعاء .

إن سر الإبداع الفنى والأثر الذى يحدثه الفن يجب البحث عنه فى العودة إلى حالة «المشاركة الصوفية» ، إلى ذلك المستوى من الخبرة الذى من يعيش عنده هو الإنسان لا الفرد ، والذى لا يُعتدّ عنده بسعادة الفرد الإنسانى ولا بشقائه ، بل بالوجود البشرى فقط . وهذا ما يفسر لنا لماذا

كان كل عمل فنى عظيم عملاً موضوعيًا وغير شخصى ، لكنه يظل ، مع ذلك ، يحرك مـشاعرنا أفرادًا وجـماعات . وهذا ما يفـسر لنا أيضًا لماذا كانت حيـاة الشاعر الشخـصية غير أسـاسية لفنه ، بل عَون على مهـمته الإبداعية أو عائق لهـا فى أحسن الأحوال . فقد يسـلك مـسلك الأغبياء أو المواطـن الصـالـح أو المعـصـوب أو الأبله أو المجـرم . قـد تكون حياته الشخصـية شيئًا لا غنى عنه ومبعثًا على الاهتمـام ، لكنها لا تفسر الشاعر.

الفصل التاسع

المنطلقات الأساسية فى علم النفس التحليلى

كان الاعـتقاد السـائد فى القرون الوسطى ، ومن قـبلُ عند الإغريق والرومان ، أن الروح كـائن له وجود مسـتقل . والحق إن البشـرية كلها ظلت تؤمن هذا الإيمان منذ بداياتها الأولى حـتى النصف الثانى من القرن التاسع عشـر ، حيث شيّدت لنفسهـا اعتقادًا جديدًا يقـوم على مبدأ «علم النفس بلا نفس» أو «علم الـروح بلا روح» . فأصـبح كل شىء لا يرى بالعين أو لا يُلمس باليدين مشكوكًا فيه ، تحت تأثير المادية العلمية ، بل إن هذه الأشياء (غيـر المنظورة أو غير الملموسة) أصبحت مـدعاة للسخرية بسبب صلتهـا المفترضة بالميتافـيزيقا . فلا شىء علميًا أو حـقيقيًا إلا أن يُدرك بالحواس أو يُرد إلى أسباب فيزيائية . غير أن تبدل النظرة على هذا النحو الجـذرى لم يبدأ بالمادية الفلسفـية ، لأن الطريق كان ممهـدًا له قبل ذلك بزمن طويل . وقد حدث ذلك عندما وقعت الكارثة الروحية المتمثلة بـ «الإصلاح الدينى» الذى وضع حـدًا للعصر القوطى وما فـيه من تطلع

متحـمس إلى الأعالى ، ومن أبعاد جغـرافية محـدودة ونظرة إلى العالم محدودة أيضًا ، وهى النظرة العمـودية التى كان ينظر بها العقل الأوروبى للأشيـاء ، والتى تقاطعت معـها النظرة الأفـقية التى تميـزت بها الأزمنة الحديثـة . منذ ذلك الحين لم يعد الـوعى ينمو باتجاه الأعـلى ، بل أخذ ينمو فى نظرته للأشياء نموًا عرضانيًا على مثال نمو معرفته للكرة الأرضية. حدث هذا فى حقبة الرحلات الكبرى والاكتشافات التجريبية التى وسعت من أفكار الإنســان عن العالم . ومنذ ذلك الحين أخـذ الإيمان بأن للروح وجودًا مستقلاً يتراجع أمام القناعـة المقحمة بأن الوجود هو للأشياء المادية وحدها . وما هى إلا أربعة قرون حتى صـار كبار قادة الفكر والبحث فى أوروبا ينظرون إلى العـقل على أنه تابع للمـادة وللسببـية المـادية تبعـية مطلقة.

ليس من حقنا القول إن أيًا من الفلسفـة أو العلم الطبيعى قد أحدث هذا الانقلاب الكامل ؛ لقد كان هناك عدد لا بأس به من كـبار الفلاسفة والعلماء كان لديهم مـن النظر النافذ والفكر العميق ما يكـفى لئلا يقبلوا بهذا الانقـلاب من غير احتـجاج ، بل إن قلة منهم قاومـته ، لكنهم لم يكن لديهم اتباع يؤمنون إيمـانهم فاضطروا إلى الوقوف عاجـزين لا حول لهم ولا قوة حيال المـوقف الشعبى الذى تمثل بالاستسلام غـير المعقول ، ولا نقول العاطفى ، للعالم الفيزيائـى الذى طغت أهميته على كل أهمية أخرى . ولا يحسبنّ أحد أن مـثل هذا الانقلاب الجذرى فى نظرة الإنسان

قمين بأن يحـدث نتيجة للتـفكر أو التدبر أو إعمال العـقل ، لأنه ما من تسلسل فى التفكـير يمكنه أن يثبت أو ينفى وجـود العقل أو المادة . فكلا هذين المفهـومين - كمـا يمكن لكل إنسان حـصيف أن يتحـقق من ذلك بنفسـه - ما هما إلا رمزان إلى شـىء مجهول أو دفين ؛ وإنما نقـر بهذا الشىء أو ننكـره تبـعًا لمزاج كل منا وتكوينه أو مـيله ، أو تبـعًا لروح العصـر الذى يفرضـه عليه . إذ لا شىء يمنـع العقل المتـفكر من اعتـبار النفس ظاهرة كيماوية - حيوية تسـرح فى قاعها الكهارب ، من ناحية ، أو من اعتبـار المسلك الذى تسلكه الكهارب ولا يتأتّى لنا التنبـؤ به علامة على حياة عقلية فى داخلها بالذات ، من ناحية ثانية .

ونحن نخادع أنفسنا حين ننظـر إلى مسألة حلول ميتافـيزيقا المادة فى القرن التاسع عشر محل ميتـافيزيقا العقل واقتلاع هذه من جذورها - على أنه مسألة من مسائل العقل ؛ ومع ذلك فقد كانت من منطلق سيكولوجى انقلابًا فى نظرة الإنسان إلى العالم ليس له مثيل . لقد تحول عالم الغيب إلى عالم شهادة ووضـعت حدود تجريبية لكل مشكلة يبحـثها الإنسان ، كمـا وضعت حدود للأهداف التى ينبـغى له أن يتخيـرها ، بل وضعت حدود لما يسـميه «المعنى» . ينبـغى للحوادث غيـر المحسوسـة ، الحوادث الداخلية ، أن تفسح المجال لأشياء العالم الخارجى المحسوسة ؛ والشىء لا قيمـة له إن لم يكن مؤسسًا على ما يسـمى الواقع . على الأقل ، هذا ما يبدو للعقل الساذج .

والحق إنه لا جدوى من محـاولة فهم هذا التغير غيـر المعقول الذى طرأ على نظرة الإنسان إلى العالم على أنه مسألة من مسائل الفلسفة ، بل حرىّ بنـا ألا نفعل ذلك ؛ لأننا لو قلنا بأن الظاهرات الـعقلية تنـشأ عن نشـاط الغدد ، لكنّا عـلى ثقة بأننا نـحظى بآيات الشكر والتـبجـيل من معاصرينا ، على حين لو أننا لو فـسرنا انشطار الذرة فى الشمس على أنه صدور عن «عقل العالم» المبـدع ، لنظروا إلينا شزراً وعدّوا ذلك نزوة من نزوات العقل . من منطـلق ابيستمـولوجى يستوى لدينـا إنْ سلّمنا بنشوء الحيـوان من النوع البشرى أو بنشـوء الإنسان من النوع الحـيوانى . لكننا نعرف كم لا قى البروفـسور «داكيه» من عَنَت فى حياته الأكـاديمية بسبب خطيئته بحق روح العصر التى لا تسمح لأحد أن يعبث بها . إنها ديانة، لا بل هى أكـثر من ذلك ، إنهـا عقـيـدة لا صلة لها بالعـقل إطلاقًا ، وأهميتـها تكمن فى حقيقـة لا تبعث على السرور وهى أنها باتت تعـتبر المقياس المطـلق لكل الحقيقة وبات مـفروضًا أن يقف بادىء الرأى[1] فى صفها .

سياقات العقل البشرى لا يمكنـها أن تحيط بروح العصر ؛ إنها ميل أو اتجـاه عـاطفى يؤثر فى ضـعـاف العـقول ، عن طريـق الخافـيـة (= اللاشعور)، بقوة الإيحاء الطاغية التى تجرفهم فى تيارها . أن تفكر خلافًا

---

(١) المقابل العربى للاصطلاح common sense كمـا ارتأى ذلك المرحوم «أحمد زكى» – المترجم – .

لما يفكر معاصروك أمر غير مشروع وباعث على الضيق ؛ بل هو أمر غير لائق ، أو هو مرض أو تخديف ؛ ولذلك هو خطر على الفرد من الناحية الاجتماعية . وكما كان الاعتقاد سابقًا بأن كل ما هو موجود فوجوده مستمد من الإرادة الإلهية المبدعة اعتقادًا لا مراء فيه ، كذلك أصبح اكتشاف القرن التاسع عشر للحقيقة القائلة بأن كل ما هو موجود فوجوده مستَمدّ من الأسباب الطبيعية اعتقادًا لا مراء فيه . اليوم ، لم نعد نعتقد أن النفس تبنى لنفسها جسدًا تسكن فيه ، وإنما المادة تنتج النفس بالفعل الكيماوى . وقد كان خليقًا بهذا الانقلاب فى النظرة إلى العالم أن يكون محل سخرية لو لم يكن ملمحًا من أبرز ملامح روح العصر . إنه الطريقة الشعبية فى التفكير ، ولذلك هى طريقة محترمة وعقلية وعلمية وصحيحة؛ على العقل أن يؤمن بأنه نتاج ثانوى نتج عن المادة . ولعلنا نصل إلى نفس النتيجة لو قلنا «النفس» بدلاً من «العقل» ، وتكلمنا عن الدماغ والهرمونات والغرائز والسوائق بدلاً من «المادة» . أن تُمنح الروح أو النفس وجودًا مستقلاً أمر مُنافٍ لروح العصر ، ومن يفعل ذلك يتذندق.

لقد اتضح لدينا الآن أن أجدادنا لم يكونوا من الناحية العقلية على حق فى اعتقادهم بأن للإنسان روحًا ، وأن للروح وجودًا مستقلاً ، وأنها من طبيعة إلهية وبالتالى خالدة ، وأن فيها قوة كامنة أو ملازمة لها تتولى بناء الجسد وتمدّه بالحياة وتشفى أسقامه وتتيح للروح أن تعيش فى معزل

عن الجسد ، وأن ثمة أرواحًا غير جسمانية تتوحد[1] بهذه الروح ، وأن وراء عالمنا التجريبى عالمًا روحانيًا تتلقى منه الروح معرفتها بالأشياء الروحية التى لا يمكن كشف النقاب عن أصولها فى هذا العالم المرئى . لكن الناس الذين ليسوا فوق مستوى الوعى العام لم يكتشفوا بعد أن ما يماثل الاعتقاد القديم من حيث كونه اعتقادًا افتراضيًا وتخّيليًا أن نعتقد بأن المادة هى التى تنتج الروح ، وأن القردة أصل الكائنات البشرية ، وأن كتاب «نقد العقل المحض» الذى ألّفه **كانط** إنما طلع من تفاعل متناغم فيما بين سوائق الجوع والحب والسلطة ، وأن خلايا الدماغ هى التى تصنع الأفكار ، وأن هذا كله ما كان من الممكن أن يكون بخلاف ما هو كائن .

لكن ما هى ، أو من هى ، هذه «المادة» الكلية القدرة فى الحقيقة ؟ إنها مرة أخرى صورة رسمها البشر للإله الخالق ، إلا أنها - هذه المرة - منزوعة من ملامحها التأنيسية[2] بعد أن اتخذت صيغة مفهوم عالمى يحسب كل منا أنه يفهم معناه . وعينا اليوم نما نموًا هائلاً فى الطول والعرض ، أى فى أبعاد المكان فقط لسوء الحظ . أما بعده الزمانى فلم يشهد مثل هذا النمو ، وهو لو حصل إذن لكان عندنا حسٌ بالتاريخ النابض بالحياة . غير أنه محظور علينا الخوض فى مثل هذه الأفكار بسبب روح العصر التى تعتبر التاريخ مجرد مصنع للحجج الملائمة تتيح لنا القول

---

(١) تتوحد - تصير شيئًا واحدًا - المترجم - .

(٢) ذات صفات إنسانية - المترجم - .

فى المناسبـات : «لماذا ، حتى أرسطو عـرف ذلك» . أما الحـالة هذه ، فيجب أن نسأل أنفسنا كيف بلغت روح العصر هذا المبلغ من القدرة الخفية . إنها بلا شك ظاهرة نفـسية بالغـة الأهمية - وهى فى جمـيع الأحوال سـابق حكم أو هوى متـأصل فى العـمق بحيـث إن لـم نعطه حقـه من الاعتبار المناسب ، لم نستطع أبداً أن نقترب من مشكلة النفس .

مثلما قلت فيما تقدم ، لقـد كان الميل الذى لا يُقاوم إلي تفسير كل شيء انطلاقًا من أسس فيزيائـية متفقًا مع نمو الوعى نموًا أفـقيًا على مدى القرون الأربعـة الأخيرة ، ومـا النظرة الأفقيـة إلا رجع (= رد فعل) على النظرة العمودية الوحـيدة التي كانت سمة العـصر القوطى . إن هذا الميل مظهر من عقل الجماعـة ، وبما هو كذلك لا يصح أن نقف منه موقفنا من واعـية الأفـراد . إننا ، بادئ ذى بدء ، لا نشـعر بـأفعـالنا أبدًا ، ولا نكتشف إلا بعد لأى لماذا كـان تصرفنا على هذا النحو أو ذاك ، وفى هذا نحن نشبه البدائيين تمامًا . وفى غضـون ذلك ، نعلّل أنفسنا بجميع أنواع التـفسيـرات التى تضـفى صفـة عقـلانية على مـسلكنا ، وتظل مع ذلك التفسيرات غير مكافئة .

لو نشـعر بروح العـصر ، لعـرفنا لماذا نميل إلى تفـسيـر كل شيء انطلاقًا من أسس فيزيائية ، ولعرفنا أن سبب ذلك كان حتى الآن إفراطنا فى تفسير كل شيء انطلاقًا من أسس روحية . ولو أننا أدركنا ذلك لكان انتقادنا شديدًا لميولنا الأحادية ، ولقلنا : أغلب الظن أننا نقترف الآن خطأ

فادحًا فى الجانب الآخر . نحن نخـادع أنفسنا عندما نظن أننا نعرف عن المادة أكثر بكثير مما نعرف عن «عقل ميتافيزيقى» ما، فنبالغ فى تقدير قيمة السببـية الطبيعيـة ونعتقد بأنها وحـدها هى التى تمدّنا بالتفسيـر الصحيح للحياة. لكن المادة مـجهولة تمامًا ، كالعقل وفى نهـاية المطاف لا نستطيع أن نعرف شيئًا ، ونحن لا نعـود إلى حالة التوازن إلا أن نسلّم بذلك .

إن هذا لا يعنى أبدًا نكران الصلة الوثـيقة بين الحـوادث النفسـية والبنـية الفيزيولوجـية للدماغ ، أو بينها وبين الغدد والجسم عـمومًا . نحن نجزم بأن محتويات الواعية إنما تعيّنها إدراكات الحواس إلى حد كبير ، جزمًا لا رجوع فيه . ولا يسعنا إلا أن نعترف بأن الخصائص الثابتة ، ذات الطبيعة الفيزيائية والطبيعة النفسية سـواء بسواء ، مغروسة فينا بصورة خفية (= لا شعورية) عن طريق الوراثة ، ونحن نعجب أشـد الإعجاب بما للغرائز من قوة تعوق قدراتنا العقلية أو تشدّ أزرها أو تعـدّل فيها . والحق إنه ، فيما يتعلق بالسـبب والغاية والمعنى ، يجب أن نسلّم بأن النفس الإنسـانية - كائنًا مـا كان فهمنا لهـا - هى ، أولاً وقبل كل شىء ، انعكاس مبـاشر لكل مـا ندعـوه جسـمـانيًا وتجريـبيًا ودنيـويًا . ثم لابد لنا ، تجـاه هذه التسليمات جميعًا ، من التساؤل عما إذا كانت النفس ليست ظاهرة ثانوية وليست تابعة تبعيّة مطلقة للجسد . كما لابد لنا ، ونحن العمليون ، من الإجابة بالإيجاب ، فى ضوء العقل ، وفى ضـوء التزاماتنا بعالم فعلى؛ وإذا كنا نفحص هـذا الحكم العملى على النفس الإنسـانية ناقدين ، فـما ذلك إلا لشكوكنا فى قدرة المادة الكلية .

كان الاعتراض على هذا المفهوم أنه يرد الحوادث النفسية إلى نوع من نشاط الغدد ، بحيث تكون الأفكار عبارة عن إفرازات أفرزها الدماغ ، وبذلك نصل إلى «علم نفس بلا نفس» . من هذا المنطلق - يجب أن نعترف - لا وجود للنفس بصورة مستقلة ، فهي لا شيء بحد ذاتها ، بل تعبير عن سياقات فيزيائية . وأن يكون لهذه السياقات صفات الواعية حقيقة لا سبيل إلى ردها ، فلو كان الأمر غير ذلك - هكذا تمضى الحجج- لم نستطيع أن نتكلم عن النفس أصلاً ، ولما كان ثمة واعية ، وبذلك لا يكون لدينا ما نقوله عن أى شيء . ولذلك كانت النفس الواعية الشرط اللازم للحياة النفسية - أى كالنفس نفسها . وهكذا كانت جميع مدارس «علم النفس بلا نفس» الحديثة دروسًا فى الواعية تتجاهل وجود الحياة النفسية الخافية (اللا شعورية) .

ومع ذلك لا توجد مدرسة سيكولوجية «واحدة» ، بل مدارس عديدة. وفى هذا ما يبعث على الاستغراب الشديد ، لا سيما عندما نعلم أنه لا يوجد إلا علم واحد فى الرياضيات ، وعلم واحد فى الجيولوجيا ، وعلم واحد فى الحيوان ، وعلم واحد فى النبات ، وهكذا دواليك ، بينما بلغت «علوم النفس» من الكثرة حدًا جعل إحدى الجامعات الأمريكية تنشر مجلدًا ضخمًا بعنوان «سيكولوجيات ١٩٣٠» . أظن أنه يوجد من «علوم النفس» أو السيكولوجيات بمقدار ما يوجد من الفلسفات ، لأنه لا توجد فلسفة واحدة بل فلسفات . أقول هذا لأن بين الفلسفة وعلم النفس

روابط لا انفكاك لها لم تزل قائمة بسبب ما بين موضوعاتهما من تداخل. علم النفس موضوعه النفس ، والفلسفة - إجمالاً - موضوعها العالم . إلى زمن قريب كان علم النفس فرعًا خاصًا من الفلسفة ، أما الآن فقد أصبح لدينا شيء كان قد تنبأ به نيتشه - ظهور علم النفس بصورة مستقلة، حتى لقد بات يهدد بابتلاع الفلسفة . يقوم التشابه الداخلى بين الفلسفة وعلم النفس على أن كليهما «نظام رأى يبحث فى موضوع لا يمكن اختباره تمامًا ، وبالتالى لا يمكن فهمه وفق منهج تجريبى بحت . وهكذا فإن كلا الميدانين من الدروس يحفز على التفكير ، مما ينتج عنه تشكل آراء بنحو من التنوع والكثرة تتطلب مجلدات ضخمة لاستيعابها جميعًا ، وتبيان ما إذا كانت تنتمى إلى هذا الميدان أو ذاك ، ولا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر ، لأن كلا منهما يمد الآخر بمسلماته الأولية الضمنية التى غالبًا ما تكون خافية (لا شعورية) .

لقد آل اعتماد الأسس الفيزيائية فى التفسير إلى «علم نفس بلا نفس» ، كما بينا ذلك آنفًا ، أى إلى النظرة القائمة على أن النفس ما هى إلا نتاج سياقات كيماوية - حيوية . أما فيما يتعلق بسيكولوجيا علمية حديثة تبدأ من العقل بما هو كذلك ، فلا وجود لشىء من هذا القبيل . لا أحد يجازف اليوم بإقامة سيكولوجيا علمية على أساس من استقلال النفس عن الجسد وعدم تبعيتها له . إن فكرة الروح بذاتها ولذاتها ، وأن يكون للروح نظام عالمى قائم بنفسه ، لهى الأساس الوحيد

المكافىء للإيمان بأرواح فـردية مـستـقلة ، لكن هذه الفكرة لم تعـد تلقى رواجًا شعبـيًا عندنا ، هذا إن لم نقل أكثر . لكن للإنصـاف أذكر أننى حضرت فى عالم ١٩١٤ . فى كلية بفلور بلندن ، جلسـة مشتركة ضمت «جمعية أرسطو» و «جمعية العقل» ، و «الجمعية السيكولوجية البريطانية» فى ندوة انعقدت لبحث مسألة مـا إذا كانت عقول الأفراد قائمة فى الله أم لا ؟ لو أن أحداً فى انجلترا نازع فى القـيمة العلمية لهذه الجـمعيات ، لما لقى أذنًا صاغية من أحـد ، لأنها كانت تضم فى عضويتها كـبار العقول فى البلاد . ولعلى كنت الوحيد الذى كـان يستمع دهشًا إلى حجج تقرع فيها رنة القـرن الثالث عشر . ولعل هذا المثال يفيـدنا فى تبيان أن فكرة الروح المستقلة وكون وجـودها أمرًا مسلمًا به لم تنقرض من أوروبا . ولم تصبح مجرد مستحاثة من مخلفات القرون الوسطى .

إذ ثبتنا هذا فى ذهننا ، فلعلنا نسـتطيع أن نستجمع شـجاعتنا وننظر فى إمكانية إنشاء «علم نفس بنفس» أى فى مـيدان من الدروس يقوم على فرضية وجود نفس مستقلة . لا حاجة بنا إلى الذعر من ضآلة شعبية هذا المشروع ، لأن فرضية العـقل ليست أكثر خيالية من فـرضية المادة . فما دمنا لا نملك فكرة عن الطريقة التى يصدر فيـها ما هو نفسى عن العناصر المادية ، وفى الوقت نفسه لا يمكننا نكران حقيقة الحوادث النفسية ، فنحن أحرار فى صياغة فرضيـاتنا بالطريقة الأخرى لو مرة واحدة ، وأحرار فى الاعتـقاد بأن النفس تصدر عن مبـدأ روحى لا يطاله فهمنا كـما لا يطال

المادة . تقول النظرة القديمة إن الروح حياة الجسد ، أو نفحة الحياة ، أو هى نوع من قوة الحياة اتخذت لها شكلاً مكانيًا بتحيزها الجسد عند الولادة أو بعد الحمل ، ثم غادرت الجسد الميت بعد النفس الأخير . وكان ينظر إلى الروح بحد ذاتها على أنها كائن لا يتحيز فى مكان ، وبما أنها كانت موجودة قبل اتخاذها شكلاً جسمانيًا وبعده أيضًا ، كانت تعتبر كائنًا غير زمانى ، ومن هنا خلودها . بطبيعة الحال، يعتبر هذا المفهوم من وجهة نظر السيكولوجيا العلمية الحديثة ضلالاً ليس إلا . ولكن ، بما أنه ليس فى نيتنا الخوض فى الأمور «الميتافزيقية» ، حتى ولو كانت من النوع الحديث ، يحسن بنا أن نتناول هذا المفهوم بالتمحيص ، بعيدًا عن الأهواء وسوابق الأحكام ، مرة واحدة ، ونبحث عن مسوغاته التجريبية .

الأسماء التى يعطيها الناس لخبراتهم ذات دلالات مبينة ، فى الغالب. ما أصل كلمة Seele الألمانية ؟ إنها ، كالإنجليزية Soul ، آتية من القوطية Saiwala والألمانية القديمة Saiwalo ، وهاتان الكلمتان يمكن عقد الصلة بينهما وبين الكلمة الإغريقية alios ومعناها المتحرك أو الملون أو التلون ، والكلمة الإغريقية Psyche معناها أيضًا : الفراشة . والألمانية القديمة تتصل من ناحية أخرى بالكلمة السلافونية القديمة Sila ، ومعناها : القوة . ومن هذه الصلات نلقى الضوء على المعنى الأصلى لكلمة Seele : فهى القوة المحركة ، أى قوة الحياة .

الكلمتان اللاتينيتان animus ، النـفس ، و anima الروح ، هما نفس الكلمة الإغريقية anemos الريح والكلمة الإغريقـية الأخرى للريح هى pneuma وتعنى أيضًا : الروح . فى الـقوطيـة نجـد نفس الكلمـة us-anan ومعناها : نفخ ، وفى اللاتينية an-helare ومعناها : لهث . فى الألمانية القديمة العليـا ، ترجمت «الروح القدس إلى atun ومعناها : النفس . وفى العربية نجد الريح والروح ، والنفس والنفس . كذلك ثمة صلة وثيقة بين الإغريقية psyche و psycho ومـعناها : تنفس ، وبين psychos و psychros بارد ، و phusa منفاخ . هذه الـصلات تبين لنا بجلاء كـيف أن الأسماء المعطاة للروح اللاتينيـة والإغريقية والعـربية ذات صلة بمفهوم الهـواء المتحرك ، «نفس الروح البارد» ، وهو مـا يفسر لنا أيضًا لماذا كـانت وجهة النظر البـدائية تمنح الروح جـسمًا هوائيًا غـير مرئى .

من الواضح جدًا أن يـكون النفس هو الحياة بما هو عـلامة عليـها ، مثلمـا هى الحركة والقـوة المحركة . وفى نظرة بدائيـة أخرى ، يُنظر إلي الروح على أنهـا نار أو لهب ، لأن الدفء عـلامة عـلى الحيـاة أيضًا . وهنالك مفـهوم بدائى غريب جـدًا ، لكنه غيـر نادر ، يوحد بين الروح والاسم . فاسم الفـرد هو روحه ، ومن هنا كـانت تسميـة الخلف باسم السلف بغيـة تقمص روح السلف فى المولود الجديد . نسـتطيع أن نستنتج من ذلك أنه كان يُنظر إلى «الأنيـة الواعية» على أنها تعـبير عن الروح .

كذلك ليس من الأمور النادرة أن تـتوحد الروح والظل ، ومن أجل ذلك كانت إهانة قـاتلة أن تدوس على ظل شخص . ولنفس السبب ، تعـتبر الظهـيرة فى خطوط العـرض الجنوبية ، وهى سـاعة الشـبح أو الروح ، ساعة الخطر ، لأن الظل يتـقلص فيها فتكون الحياة مـعرضة للخطر . إن مفهوم الظل هذا ينطوى على فكرة دل عليها الإغريق بكلمة Synopados ومعناها : «الذى يلحق بك» ، يعبرون بهذه الطريقة عن الشعور بحضور حى غير محسوس - وهو نفس الشعور الذى أدى إلى الاعتقاد بأن أرواح الموتى عبارة عن ظلال .

لعل هذه الدلالات ذات فـائدة لنا فى اطلاعنا على كـيفـية اخـتبـار الإنسان البدائى للنفس . وعنده أن النفس مصدر للحياة ، والمحرك الأول ، والحضـور الشبحى الذى له حقـيقَة مـوضوعية . ولذلك كـان البدائى يعرف كيف يتناجى مع الروح ، إنها تصـبح صوتًا فى داخله لأنها ليست نفسه وواعيته . وعنده أن النفس ليـست ، كما هى عندنا ، جماع كل ما هو ذاتى وتابع للإرادة ، إنما هى شىء موضوعى قائم بذاته ، ويحيا حياته الخاصة .

لهذه الطريقـة من النظر ما يسوّغهـا تجريبيًا ، لأن للحوادث النفـسية جانبًا موضـوعيًا ليس على المستوى البدائى وحسب ، وإنما علـى مستوى الإنسان المتـمدن أيضًا ، لأنها تُفلت من سيـطرتنا الواعية عليهـا إلى حد كبـير . فعلى سبـيل المثال ، نحن غيـر قادرين على التحكم بكثـير من

عواطـفنا ، لا نستطيع أن نسـتبـدل مزاجًا صـحيـحًا بمزاج معـتلّ ، ولا نستطيع أن نتحكم بأحلامنا فى مجيئها وذهوبها . وربما تغلبت على أذكى الناس أفكار لا قـبل له بطردها عنه بأعظم الجـهـد الإرادى . ما تقـوم به الذاكرة أحيانًا من خدع جنونية تتركنا فى حالة من الذهول اليائس . وربّ تخيلات جرت فى عقولنا لم نكن نتوقـعها . وإنما نحن نعتقد بأننا أسياد فى بيتنا من فرط حبنا الإطراء لأنفسنا . لأننا بالفعل خاضعون إلى درجة مذهلة إلى ما تقوم به النفس الخافية من وظائف ، وينبغى لنا الوثوق بأنها لا تخدعنا . ولو درسنا السياقات النفـسة لدى المعصوبين لكان من الأمور المضحكة تمامًا أن يستطيع عالم النفس الإدعاء بأن النفس معادلة للواعية . لقد بات من الأمور المعروفـة جيدًا أن السياقات النفســية عن المعصومين لا تختلف عن السياقــات النفسية عند من نسميـهم أصحاء أو أسوياء - وأى إنسان فى هذا العصر واثق تمامًا من أنه غير معصوب ؟

أما الأمر كذلك ؛ فإننا نـحسن صنعًا لو نسلم بأن هناك ما يسوغ لنا الأخذ بالنظـرة القديمة عن الروح واعتـبارها حـقيقـة موضوعـية - شـيئًا مستقلاً، وبالتالى اعتباطيًا ومصدرًا للخطر . وكلما نظرنا إلى الروح على أنها كـذلك ، وهى البالغـة الخفاء والإخـافة ، وفى نفس الوقت مـصدر للحيـاة ، كانت أدنى إلى الفـهم على ضوء علم النفس أيضًا . تـظهرنا الخبرة على أن «الأنا» - الأنيّة الواعـية إنما نشأت عن الحياة الخـافية (اللا شعورية) . فالطفل الصغير يحيا حياة نفسية ليس فيها ما يدل على وجود

أنية واعية ، ولهذا قلّما تترك السنوات الأولى من حياته أثرًا فى ذاكرته . من أين تأتى جميع ومضاتنا الذكية المسعفة ؟ ما مصدر حماستنا وإلهامنا وشعورنا بقيمة الحياة ؟ البدائى يتحسس ينابيع الحياة فى أعماق روحه ، يتأثر عميقًا بفاعلية تصريف الحياة الآتية من قبل روحه ، ولذلك يؤمن بكل شىء يؤثر فيها - بممارسات السحر من كل نوع . وهذا ما يفسر عنده أن الروح هى الحياة نفسها ، لا يتصور أنه يدير دفتها ، وإنما يشعر أنه تابع لها فى كل شىء .

مهما بدت لنا فكرة خلود الروح منافية للعقل ، فهى عند البدائى ليست خارقة للعادة ، ولكنها مع ذلك شىء يخرج عن الشائع . فبينما كل موجود سواها يتخذ له قدرًا معينًا من الفراغ ، فإن الروح لا يمكنها أن تتحيز فراغًا . نحن نحسب ، بطبيعة الحال ، أن أفكارنا تقوم فى رؤوسنا، ولكن عندما يتعلق الأمر بمشاعرنا نبدأ بالتردد ، يبدو أنها تقيم فى منطقة القلب . أما إحساساتنا فموزعة على الجسم كله . تقوم نظريتنا على أن الرأس مركز الواعية ، لكن هنود البوابلو يقولون أن الأمريكيين قوم مجانين لأنهم يعتقدون بأن أفكارهم محِلها رؤوسهم ، على حين أن الإنسان العاقل يعلم أنه إنما يفكر بقلبه . بعض القبائل من الزنوج يقولون إن البطن مكان قيام النفس بوظائفها ، لا الرأس ولا القلب .

هناك صعوبة أخرى تضاف إلى هذا الاختلاف حول مكان قيام النفس بوظائفها ، وهى أن المحتويات النفسية عمومًا لا تتحيز مكانًا ، لا

يستثنى مـن ذلك إلا المكان الخاص بالإحساس . ما الحـجم الذى نستطيع أن ننسبـه إلى أفكارنا ؟ هل هى صغيـرة ، عريضة ، طويلة ، رقيـقة ، ثقيلة ، سائلة ، مـستقيمة ، دائرية ، أم ماذا ؟ لـو أردنا رسم صورة حية لكائن غير مكانى ذى بعد رابع ، لما فعلنا خيرًا من اتخاذ «الفكر» نموذجًا لهذا الكائن .

لو أننا أنكرنا وجـود الروح أصلاً ، لهـان علينا الأمـر ، لكننا هنا بإزاء اختبـارات مباشرة لشىء ما «كائن» - شىء مـتأصل فى واقعنا الذى يقاس بالمقاييس ، واقعنا الذى نتـفكر فيه ، واقع الأبعاد الثلاثة . إن هذا الشىء يختلف اختلافًا يبعث على الحيرة عن هذا الواقع فى كل جانب من جوانبه «وفى كل جـزء من أجزائه ومع ذلك يعكسه ويتأمل فـيه . يمكننا أن ننظر إلى النفس على أنهـا نقطة رياضـية وفى نفس الوقت عـالم ذو نجوم ثوابت وعندئذٍ يزول عجبنا إذا كان مـثل هذا الكائن المتناقض متاخمًا للحـدود الإلهيـة فى نظر العقل الـفطرى . إن كانت النفس لا تتـحيـز مكانًا، فـهى بلا جسم . والأجـســام تموت ، لكن هل يموت شىء غيـر مرئى وغير جسمانى ؟ زد على ذلك أن الحـياة والنفس موجودتان بالنسبة إلىّ قبل أن أستطيع النطق بكلمة «أنا» وعندمـا تختفى هذه «الأنا» كما هو الحال فى النوم أو الغـيبوبة ، تظل الحيـاة والنفس قائمتين ، كـما تعلمنا الملاحظة لغيرنا ولأحلامنا . إذن ، لماذا يعمـد العقل البسيط ، وهو أمام مثل هذه الاخـتبـارات ، إلى نكران «الروح» فى حيـاتنا خارج الجـسد ؟

ينبغي لى أن أسلم باننى لا أرى لغواً فى هذه الخرافة المزعومة إلا بمقدار ما أرى من لغو فيما تكشّف عنه البحث فى الوراثة أو الغرائز الأساسية .

لو أننا تذكرنا كيف كان إنسان ثقافات الأزمنة البدائية يرجع دائمًا إلى أحلامه ورؤاه ليستقى منها معلوماته ، لاستطعنا أن نفهم فى يسر لماذا كانت تنسب المعرفة السامية ، بل الإلهية ، فى الماضى إلى النفس . والقول بأن الخافية (اللا شعور) تحوى إدراكات بالغة اللطف ، لا يوصف مجالها بأقل من الإدهاش ، إنما هو قول حقيقى . والمجتمعات البدائية إنما اعتبر الأحلام والرؤى مصادر هامة للمعلومات ، لأنها كانت تعترف بهذه الحقيقة . حضارات عظمى . كحضارتى الهندوس والصين ، شُيِّدت على هذا الأساس إذ جعلت منه منهجًا للمعرفة الذاتية بلغ ذروة عالية من الصفاء على صعيد الفلسفة والممارسة سواء بسواء .

ونحن حين نعلى من شأن الخافية ونجعل منها مصدرًا للمعرفة ، لا نتخبط فى ديجور كما يحلو لعقلانيتنا الغربية أن تظن . فنحن نميل إلى الاعتقاد بأن المعرفة كلها إنما تأتينا من الخارج فى نهاية المطاف . ومع ذلك أصبحنا اليوم نوقن بأن الخافية تنطوى على محتويات تمدّنا بمعرفة لا حدود لها حين تصير فى الواعية . فالأبحاث الحديثة فى غريزة الحيوان ، كالأبحاث فى غرائز الحشرات مثلاً . قد جمعت لنا مخزونًا وافرًا من المعلومات التجريبية تُظهرنا على أن الإنسان لو سلك مسلك حشرات

معينة لكان له من الذكاء أعلى مما له فى الوقت الحاضر . بطبيعة الحال ، لا يمكن إثبات أن الحشرات تمتلك معرفة واعية ، لكننا لا يمكننا الارتياب فى وجود أنماط من السلوك غير الواعى هى من قبيل الوظائف النفسية . وكذلك خافية الإنسان فهى تحوى جميع أنماط الحياة والسلوك الموروثة عن أسلافه ، حتى إن كل طفل بشرى ، وهو فى مرحلة ما قبل الوعى ، مجهز بنظام كامن (موجود القوة) من الوظائف النفسية المتكيفة . فالخافية تدرك وتقصد وتحدس وتشعر وتفكر تمامًا مثلما يدرك العقل الواعى ويقصد ويحدس ويشعر ويفكر . الدليل الكافى على ذلك نجده فى علم الأمراض النفسية (سيكو باثولوجى) وفى أبحاث سياقات الأحلام . وليس بين الواعية والخافية إلا فرق أساسى واحد . فالواعية مكثفة ومركزة لكنها زائلة ، وهى تتوجه نحو الحاضر المباشر والميادين المباشرة للانتباه ، زد على ذلك أنها لا تصل إلا إلى ما هو مادى ، وهى تمثل خبرة فردية واحدة تمتد على بضعة عقود من السنين . ثم إنها اكتسبت صُنعيًا ساحةً أوسع من «الذاكرة» تكون معظمها من الورق المطبوع . لكن الأمر يختلف مع الخافية ، فهى ليست مركزة ولا مكثفة ، بل يطويها الظلام ، وهى واسعة جدًا وتستطيع أن تجمع مخزونًا هائلاً من عوامل الوراثة المتراكمة التى خلفها الجيل إلى الجيل الذى يليه ، تلك العوامل التى يعتبر مجرد وجودها خطوة نحو تمايز النوع البشرى ، هذا فضلاً عن عدد غير محدود من الإدراكات اللطيفة . وإذا كان لنا أن نشخص الخافية ، أمكننا القول إنها كائن بشرى كلىّ يضم خصائص كلا الجنسين . فوق الشباب

والشيخوخة ، وفوق الولادة والموت ، وتحت إمرته خبرة بشرية عمرها مليون أو مليونان من السنين ، ولذلك هو كائن شبه خالد . لو قدّر لمثل هذا الكائن أن يوجد ، لكان أقوى من أن تناله صروف الزمان ، وكان الحاضر عنده لا يعنى له أكثر ولا أقل من أى سنة من سنى القرن المائة قبل المسيح ، ولكان إنسان أحلام قديمة ونبيئاً لا يشق له غبار بسبب خبرته المديدة ، ولكان عاش مرات لا حصر لها زيادة على حياة الفرد أو العائلة أو القبيلة أو الأمة ، ولكان لديه حس نابض بالحياة بإيقاع النمو الازدهار والاضمحلال .

لكن لسوء الحظ - أو لعله لحسنه - هذا الكائن يعيش فى غيبوبة الحلم ، هذه هى على الأقل الحياة التى تبدو لنا فيها الخافية العامة أو الكلية فى الأحلام وكأنها ليس لها واعية خاصة بمحتوياتها ، رغم أننا - بطبيعة الحال - غير واثقين من انتفاء واعيتها بأكثر من ثقتنا من انتفاء الواعية عند الحشرات . يضاف إلى ذلك أن الواعية لا تبدو لنا شخصاً ، وإنما هى أشبه شىء بجدول دافق ، أو محيط حافل بصور وأشكال تطفو على سطح الواعية فى الأحلام أو فى حالات اختلال العقل .

وإنه لأمر يثير السخرية حقًا أن نسمى هذه الجملة الهائلة من خبرة النفس الخافية وهمًا وجسدنًا المرئى نفسه ما هو إلا مثل هذه الجملة (النظام) . فهو لم يزل يحمل فى داخله آثاراً بارزة ترجع إلى عهود النشأة الأولى ، وهو جملة كلية تمل أجزاؤها معًا وفقًا لهدف مقصود ، ولو كان

الأمر على خلاف ذلك ، لم نستطع أن نعيش . ليس يخطر ببال أحد منا أبدًا أن ينظر إلى التشريح المقارن أو إلى الفيزيولوجيا المقارنة على أنهما لغو ليس وراءه طائل . كذلك لا نستطيع أن نضرب صفحًا عن الخافية الكلية ونعتبرها وهمًا من الأوهام ، أو نأبى أن نقر بوجودها وأن ندرسها على أنها مصدر ثمين للمعرفة .

نحن لو نظرنا إلى النفس من الخارج لبدت لنا انعكاسًا أو مرآة للحوادث الخارجية بصفة أساسية ، لا باعتبارها حاصلة بمناسبة هذه الحوادث أو متوافقة معها ، وإنما باعتبار أن أصلها كامن فيها . كذلك يبدو لنا أن الخافية لا يمكن أن نفهمها إلا من الخارج ومن جهة الواعية . وقد بات من الأمور المعروفة جيدًا أن «فرويد» قد حاول أن يفسرها من الجانب ، لكن هذه المحاولة لا تفلح إلا أن تكون الخافية موجودة دومًا باعتبارها جملة (نظامًا) موجودة بالقوة (كامنة) بصورة بَدرية (قبلية)[1] جملةً للأداء النفسي تحدرت إلينا من أجيال البشر . الواعية إنما جاءت من النفس الخافية ، مولودًا متأخرًا عنها . ومن بالغ الحمق أن نعمد إلى تفسير حياة السلف بالاستناد إلى أحوال حياة الخلف ، كذلك من فادح الخطأ أن ننظر إلى الخافية على أنها ناشئة عن الواعية ، إنما نكون أدنى إلى الصواب لو قلنا بالعكس تمامًا .

---

(١) اصطلحنا على ترجمة a priori بكلمة بَدَرِيّ في مقابل ترجمتنا لاصطلاح a posteriori بـ كلمة دبريّ - المترجم - .

لقد كـان هذا هو منطلق العصور الغـابرة التى كانت تؤمن دائمًا بأن روح الفرد تتبع نظامًا روحيًا عالميًا . ولم تكن غير موفقة فى هذا ، لأنها كانت تعلم دائمًا أن كنز الخـبرة الذى لا يوصف يكمن خبيئًا تحت عـتبة الواعية الفردية الزائلة . ثم إنها لم تتوقف عند حدود صياغة فرضية حول نظام عالم الروح ، بل اعتقدت اعتقادًا لا يقبل الجدل بأن هذا النظام كائن ذو إرادة ووعى ، بل شـخص ، وأطلقت عليه اسـمًا هو الله ، حقـيقـة الحقائق . لقـد كان هذا الكائن فى نظرها أكثر الكائـنات حقيقيـة ، فهو العلة الأولى ، ومن خلاله وحده يمكننا أن نفهم الـروح . لهذه الفرضية ما يسوغها سيكولوجيًا ، لأنه لا شىء ألـيق بصفة الألوهية من كائن شبه خالد تكاد أن تكون خبرته أبدية ، قياسًا على خبرة الإنسان .

بيّنت فيما تقدم أين تكمن المشاكل لعلم نفس لا يفسر كل شىء تبعًا للأسس الفيزيائيـة ، بل يلجأ إلى عالم روح يقوم على مبـدأ فاعل ما هو بالمادة ، ولا هو بالطاقة ، وإنما هو الله . وربما أغرتنا الفلسفة الحديثة عند هذا التقـاطع بتسميـة الطاقة إلهًا ، وبذلك نواحد بين الروح والطبـيعة . لكن مادامت هذه المهمة قاصرة على الأعـالى الضبابية التى تكتنف الفلسفة التأملية ، فلا ضرر يخـشى وقوعه . أما إذا طبقنا هذه الفكرة على النطاق الأدنى من علم النفس التطبيـقى ، حيث تؤثر طريقتنا فى تفسيـر الأشياء فى السلوك اليومى ، فـإننا نقع عندئذ فى مصـاعب لا يرجى لنا الخروج منها . نحن لا نعتنق علم نـفس يرضى عنه الذوق الأكاديمى ، أو نفتش

عن تفسيرات لا علاقة لها بالحياة . إن ما نريده هو علم نفس تطبيقى يوصلنا إلى نتائج نرضى عنها ، علم نفس يساعدنا على تفسير الأشياء بطريقة تبررها النتيجة الحاصلة لصالح المريض . فى العلاج النفسى التطبيقى نعمل جاهدين لكى نجعل الناس يتلاءمون مع الحياة ، ولسنا أحراراً فى صياغة نظريات لا تعنى مرضانا أو تكون ضارة بهم . هنا نأتى إلى مسألة كثيراً ما أفضت إلى أخطار قاتلة - مسألة ما إذا كنا نقيم تفسيرنا على أساس المادة أم على أساس الروح . وينبغى لنا ألا ننسى أبدًا أن كل شىء روحى هو وهم من وجهة النظر الطبيعية ، وأن الروح - لكى تضمن لنفسها الوجود - ينبغى لها أن تعمد فى أكثر الأحيان إلى أن تتنكر للحقيقة الفيزيائية المتطفلة وأن تتغلب عليها . فأنا إن لم أعترف إلا بالقيم الطبيعية ، وفسرت كل شىء بالمصطلح الفيزيائى ، فقد أقلل من شأن التطور الروحى لدى مرضاى أو أعمد إلى إعاقته أو حتى تدميره . وإن تمسكت بالتفسير الروحى حصراً فقد أخطىء فى فهم الإنسان الطبيعى، وأعتدى على حقه فى الوجود بوصفه كائنًا طبيعيًا . أكثر من بضعة انتحارات حدثت فى سياق العلاج النفسى كان سببها ارتكاب مثل هذه الأخطاء . أن تكون الطاقة هى الله ، أو يكون الله هو الطاقة ، أمر لا يعنينى فى قليل أو كثير ، لأنه من أين لى أن أعرف مثل هذه الأشياء؟ إما أن أعطى تفسيراً سيكولوجيًا مناسبًا ، فهذا ما ينبغى أن أكون قادراً علي فعله .

العالم الـنفسى الحديث لا يـحتمل هذا الموقـع ولا ذاك ، وإنما يجد نفسـه بينهمـا ، ملتزمًا إلتـزامًا خطيراً بـ «هذا كمـا بذاك» - وهذا وضع يفسح المجال واسعًا أمام انتهـازية ضحلة . إن هذا الخطر لهو خطر «التقاء الأضداد» - التـحرر العقلى من الأضـداد . كيف يمكن أن ينتج شىء عن إعطاء قيـمة واحدة لمسلّمـات متناقضـة إلا أن يكون ترددًا لا شكل له ولا غاية ؟ وفى مقابل هذا ، نحن على استعـداد لأن نؤثر مبدأ للتفسير ليس فيـه التباس ؛ لأنه يتيح لنا منطلـقًا نفيد منه باعتـباره نقطة ارتكاز . ولا ريب فى أننا نواجه هنـا مشكلة صعـبة جدًا . ينبـغى أن تكون لنا القدرة على الاحتكام إلى مـبدأ تفسـيرى يستند إلى الـواقع ، ومع ذلك لم يعد ممكنًا لعالم النفس الحديث أن يؤمن حصـرًا بالجانب الفيزيائى من الواقع إذا كان يعطى الجانب الروحى منه ما يستحقه . كلا ولن يكون بوسعه أن يرمى بثقله على الجانب الروحى وحده ، لأنه لا يسعـه أن يتجاهل صحة التفسير الفيزيائى النسبية .

طريقـتى فى حل هذه المشكلة يظهـرها لنا تقـاطر الأفكار الذى أبيّنه فيما يلى :

الصراع بين الطبـيعة والعـقل هو نفسه انعكاس للـتناقض القائم فى الكوين النفـسى للإنـسان . وهـو يكشف لنا عن جـانب مـادى وروحى يتبدّى تناقضًا كلما أخفقنا فى فهم طبيعة الحياة النفسية . فى حدود فهمنا البشرى ، كلما أردنا أن نحكم عل شىء لم نفهمه أو لم نستطيع فهمه ،

يتعين علينا - إن كنا مخلصين - أن نناقض أنفسنا ، وأن ندخل هذا الشيء في جوانبه المتناقضة ، إن كنا نريد أن نتعامل معه أصلاً .
والصراع بين جوانب الحياة المادية والروحية يكشف لنا عن أن الجانب النفسي شيء غير مفهوم في نهاية المطاف . لا ريب في أن الحوادث النفسية تشكل خبرتنا الوحيدة المباشرة ؛ كل ما أختبره فهو شأن نفسي ؛ حتى الألم الفيزيائي نفسه ما هو إلا حادث نفسي يرتد إلى خبرتي ؛ حتى الانطباعات الحسية - بكل ما تفرضه عليّ من عالم الأشياء الكتيمة التي تتحيز المكان - ما هي إلا صور نفسية ، وهي وحدها خبرتي المباشرة، لأنها وحدها هي المواضيع المباشرة في واعيتي . ثم إن نفسي تغير شكل الواقع وتزيّفه ، وإنها لتفعل ذلك إلى حد أضطر معه إلى الإستعانة بوسائل صُنعية لكي أحدد ما هي عليه الأشياء في معزل عن نفسي . وعندئذٍ اكتشف أن اللحن ذبذبة هوائية بدرجة كذا أو كذا من التردد ، وأن اللون موجة ضوئية بدرجة كذا وكذا من الطول . نحن مطوّقون بالصور النفسية إلى حد لا نستطيع معه أن ننفذ إلى قلب الأشياء الخارجة عن نفوسنا ؛ كل معارفنا مشروطة أو مقيدة بالنفس التي هي الشيء الواقعي على أعلى مستوى ، لأن النفس هي الشيء الوحيد الذي يتصف بالمباشرة . نحن هنا بإزاء واقع نفسي بوسع عالم النفس إن يحتكم إليه - وأعني به الواقع النفسي .

لو تعمقنا فى هذا المفهوم ، لاتضح لنا أن هناك محتويات نفسية أو صوراً معينة مستمدّة من البيئة المادية التى تنتسب أجسامنا إليها ، على حين أن هناك محتويات أو صوراً أخرى ، لا تقل واقعية عنها ، تبدو آتية من قبل مصدر عقلى يختلف اختلافًا كبيراً عن البيئة الفيزيائية . وسواء تصورت السيارة التى أريد شراءها أم حاولت تصور ما هى عليه روح أبى الميت - ما إذا كانت حقيقة خارجية أم فكرة كامنة فى داخلى - فإن كلا الحادثين واقع نفسى . والفرق الوحيد بينهما أن أحدهما يرجع إلى العالم الفيزيائى ، والآخر إلى عالم العقل . فإذا غيرت مفهومى للواقع تغييراً يحملنى على القول بأن جميع الحوادث النفسية حوادث واقعية - وكل مفهوم سوى هذا فغير صحيح - فإن من شأن هذا المفهوم أن يضع حدًا لصراع المادة والعقل واعتبارهما مبدأين متناقضين من التفسير ، ويصبح كل منهما عبارة عن تعيين المصدر الخاص للمحتويات النفسية التى تزدحم فى ساحة واعيتى . فلو أن ناراً أحرقتى لم أبحث فى حقيقة النار، بينما لو استبد بى خوف من شبح سوف يظهر لى لا حتميت بالقول: هذا وهم ليس أكثر . ولكن كما أن النار صورة نفسية لسياق فيزيائى ذى طبيعة غير معروفة ، كذلك إن خوفى من الشبح صورة نفسية من مصدر عقلى : إنه واقعى بمثل ما هى النار واقعية ، لأن خوفى واقعى بمثل ما هو الألم الناجم عن النار ألم واقعى . أما فيما يتعلق بالسياق العقلى الذى ينهض عليه خوفى من الشبح ، فلا أعرف عنه شيئًا بمثل ما

لا أعرف شيئًا عن الطبيعة النهـائية للمادة . وكما أنه لا يخطر ببالى أبدًا أن أفسر طبيــعة النار إلا من خلال المفاهيم التى تقدمهـا العلوم الفيزيائية والكيمياوية ، كذلك لا أفكر أبدًا فى محـاولة تفسير خوفى من الشبح إلا من خلال السياقات العقلية .

أن تكون كل خبرة مباشرة نفسية ، وكل واقع مباشر لا يمكنه إلا أن يكون نفسيًا ، إن هذا يفـسر لنا لماذا يضع الإنسان البدائى ظهـور الأشباح وتأثير السحر على صعيد واحـد مع الحوادث الفيزيائية . إنه لم يمزق بعد خبرته السـاذجة إلى أجزائها المتناقضـة . وفى عالمه لم يزل العقل والمادة متداخلين فيما بينهما ، ولم تزل آلهته تجوب الغابة والحقل . إنه كالطفل لم يولد منه إلا نصفه ، ولم يزل تحيط به حالة حلمية داخل نفسه الخاصة والعالم كما هو كائن فعلاً ؛ عالم لم تفسده صعوبات الفهم التى تكتنف العقل البازغ . ولما تحلل العالم البدائى إلى روح وطـبيعة ، سارع الغرب فاستأثر لنفسه بالطبيعة ، لقد كان ميّالاً إلى الإيمان بالطبيعة ، وكان يزداد تخبطًا فيها كلمـا حاول جهده لأن يصير روحيًا . أما الشـرق فقد استأثر لنفسه بالعقل ، وهو إذ اعتـبر المادة وهمًا (مايا) ليس إلا ، ما برح يحلم بالقذارة الآسـيوية والبؤس . لكن لما كان لا يوجـد إلا أرض واحدة وإلا بشرية واحـدة ، لم يستطع الـشرق والغرب أن يقـسمـا البشريـة نصفين مختلفين . فالواقع النفسى مـوجود فى وحدته الأصلية ، وهو ينتظر تقدم

ولعلنا نشير إلى فكرة الواقع النفسى على أنها أعظم إنجاز حققه علم النفس الحديث ، رغم أننا قلما نعترف به كذلك . ويبدو أن المسألة ما هى إلا مسألة وقت حتى تصبح هذه الفكرة مقبولة بصورة عامة . وينبغى لها أن تصبح مقبولة ، لأنها وحدها تتيح لنا أن ننصف المظاهر النفسية فى كل ما تتصف به من تنوّع وتفرّد . بدون هذه الفكرة يكون لا مفر لنا من تفسير خبراتنا النفسية تفسيرًا يلحق الإجحاف بنصفها على الأقل ، على حين أننا بهذه الفكرة نستطيع أن نعطى ذلك الجانب من الخبرة النفسية ما يستحقه ، وأعنى به الجانب الذى يعبر عن نفسه بواسطة الخرافة والأسطورة والدين والفلسفة . وهذا الجانب من الحياة النفسية ليس لنا أن نقلل من شأنه . إن الحقيقة التى تحتكم إلى شهادة الحواس قد ترضى عقولنا ، لكنها لا تقدم لنا شيئًا يحرك مشاعرنا ويعبر عنها بما تعطيه من معنى للحياة الإنسانية . ومع ذلك يكون الشعور هو العامل الحاسم فى مسائل الخير والشر فى أكثر الأحيان ؛ وإذا لم يهب الشعور إلى نجدة العقل ، ظل هذا الأخير لا حول له ولا قوة . هل أنقذنا العقل والنيّة الطيبة من الحرب العالمية ، أم هل أنقذنا قط من أى لغو مفجع آخر؟ هل قامت ثورة روحية أو اجتماعية بالاعتماد على العقل - ولنضرب مثالاً على ذلك انتقال العالم الإغريقى - الرومانى إلى عصر الإقطاع ، أو الانتشار الانفجارى للثقافة الإسلامية ؟

لست معنياً مباشرة ، وأنا الطبيب ، بهذه المسائل العالمية ؛ لأن واجباتى منصرفة إلى المرضى من الناس . ظل الطب ، حتى وقت قريب، قائمًا على أساس أن المرض يُعالَج ويُشفى من تلقاء نفسه ؛ لكننا صرنا الآن نسمع أصواتًا تخطِّىء هذه النظرة ، وتنادى بمعالجة الشخص المريض ، لا بمعالجة المرض . وهذه المناداة مفروضة علينا فى معالجة الآلام النفسية ؛ إذ بدأ انتباهنا يتجه شيئًا فشيئًا من المرض المرْئىّ إلى الإنسان بوصفه كلاً لا يتجزأ ، وبتنا ندرك أن المعاناة النفسية ليست ظاهرة محددة الموقع أو ظاهرة محدودة بصورة قاطعة ، وإنما هى عَرَض نشأ عن موقف خاطىء اتخذته الشخصية فى كلّيتها . ولذلك ليس بإمكاننا أن نأمل بشفاء شامل ينتج عن معالجة تقتصر على الاضطراب نفسه ، بل عن معالجة الشخصية بكاملها .

تحضرنى الآن حالة ذات دلالة قوية على ما نحن بصدده ؛ وهى تتعلق بشاب على درجة عالية من الذكاء كان قد قام بنفسه بتحليل مفصل لعُصاب كان يعانى منه ، وقد قام بهذا التحليل بعد أن عكف على دراسة الأدب الطبى دراسة جادة . جاءنى بمعلوماته وقد وضعها فى صيغة موجزة جيدة الكتابة وتصلح مقالاً يُنشر ، وطلب منى أن أقرأ المخطوط وأبين له لماذا لم يُشف من عُصابه . كان يجب أن يُشفى طبقًا للحكم العلمى كما فهمه . لكنى بعد أن قرأت مقاله كنت مضطرًا لأن أسلم بأنه كان يجب

أن يُشفى لو كانت المسألة مسألة رؤية نافذة فى العلاقات السببية التى تؤدى إلى العُصاب . وبما أنه لم يُشف من عُصابه ، ذهبت إلى أن ذلك لابد راجع إلى أن موقفه من الحياة كان ، من بعض الأوجه ، خاطئًا بصورة أساسية - رغم أنه كان علىّ أن أعترف بأن أعراضه لم تغشّه . لما اطلعت على سيرة حياته اتضح لى أنه كان كثيرًا ما يقضى الشتاء فى سانت موريتزا وفى نيس . ولما سألته عمن كان ينفق عليه فى هذه الإجازات ، أجابنى إنها معلمة فقيرة كانت تحبه وتحرم نفسها أشد الحرمان لكى تتيح له أن ينغمس فى منتجعات اللذة . لقد كان افتقاره إلى الوجدان السبب فى عُصابه . وليس من العسير أن نفهم لماذا أخفق الفهم العلمى فى شفائه . إن خطأه الأساسى كامن فى موقفه الأخلاقى . لكنه ألفى طريقتى فى النظر إلى المسألة مناسبة للعلم ومصادمة له ، لأن الأخلاق - فى رأيه - لا شأن لها بالعلم . فظن أنه إن لجأ إلى الفكر العلمى استطاع أن يبدد عنه قلة أخلاقيته التى لم يستطع هو نفسه أن يتحملها . ولم يكن ليسلم بأن نزاعًا كان قائمًا فى نفسه ، لأن خليلته كانت تعطيه المال بمطلق إرادتها .

بوسعنا اتخاذ الموقف العلمى الذى نتخيّره ، لكن يبقى أن الأكثرية العظمى من المتمدنين لا يستطيعون تحمل مثل هذا الموقف . الموقف الأخلاقى عامل حقيقى فى الحياة ، على عالم النفس أن يأخذه فى اعتباره

إذا كان لا يريد أن يقع فى أخطاء فادحة . ويجب على عالم النفس أيضًا أن يتذكر أن عقائد دينية معينة غير قائمة على العقل هى ضرورة حياة بالنسبة إلى أناس كثيرين . كثيرًا ما سمعت المرضى يقولون : «ليتنى كنت أعلم أن لحياتى معنى وغاية ، إذن لما كانت هذه القصة البلهاء حول أعصابى !» .

وسواء أكان الشخص المعنىّ فقيرًا أم غنيًا ، ذا أسرة ومركز اجتماعى أم لا ، فلا يغير من الأمر شيئًا ، لأن الظروف الخارجية أبعد من أن تعطى حياته معنى ، فكيف إذا كانت المسألة مسألة حاجة معقولة إلى ما نسميه حياة روحية ، لا يمكن تحصيلها فى الجامعات ولا فى المكتبات ولا حتى فى الكنائس . إنه يستطيع أن يقبل ما تقدمه له هذه المؤسسات ، لأن الذى تقدمه له لا يمس إلا الرأس ، لكنه لا يحرك القلب . فى مثل هذه الحالات ، يكون اعتراف الطبيب بالعوامل الروحية فى ضوئها الصحيح أمرًا ذا أهمية حيوية ، وإن خافية المريض تمده بما يحتاج إليه ، إذ تنتج له أحلامًا ذات محتويات دينية لا سبيل إلى إنكارها . وإذا لم يعترف بالمصدر الروحى لهذه المحتويات ، أخطأ فى المعالجة وانتهى إلى الفشل .

إن المفاهيم العامة عن الطبيعة الروحية عناصر مكوّنة للحياة النفسية لا غنى عنها . ونستطيع أن نتبيّنها عند جميع الناس الذين لديهم مستوى

من الوعى يجعلها واضحة بدرجة أو بأخرى . ولذلك يعدّ غيابها النسبى أو نكرانها من قبل أناس متمدنين علامة على الانحلال . وفى حين ظل علم النفس منذ نشوئه حتى الوقت الحاضر يتعامل بصفة رئيسية مع السياقات النفسية فى ضوء السببية الطبيعية ، فإن مهمة علم النفس فى المستقبل هى البحث عن معيّناتها الروحية . لكن التاريخ الطبيعى للعقل لم يشهد اليوم قدراً من التقدم أكثر مما شهده العلم الطبيعى فى القرن التاسع عشر . إننا بالكاد بدأنا تدوين مذكراتنا عن خبراتنا الروحية .

إذا كان لعلم النفس الحديث أن يفخر بأنه كشف الغطاء الذى كان مسدلاً على صورة النفس الإنسانية ، فإن الغطاء الوحيد الذى كشفه هو ما كان يخفى عن الباحث الجانب البيولوجى منها. ولعلنا نستطيع أن نقارن الوضع الحالى بما كان عليه الطب فى القرن التاسع عشر عندما بدأ الناس بدراسة التشريح ولم تكن لديهم فكرة ولو ضئيلة عن الفيزيولوجيا . أما الجانب الروحى من النفس فلا نعرف عنه فى الوقت الحاضر إلا من نُثارة هنا ونُثارة هناك لقد تعلمنا أن ثمة سياقات مشروطة روحيًا من أجل التحولات التى تحدث داخل النفس ، وهذه السياقات تكمن وراء طقوس الارتياد المعروفة جيدًا عند الأقوام البدائية والحالات التى تستثيرها رياضة اليوغا عن الهندوس . لكننا إلى الآن لم نوفق إلى تعيين اطراداتها أو قوانينها الخاصة . كل ما نعرفه هو أن جانبًا عظيمًا من أمراض العصاب تنشأ عن اضطراب هذه السياقات . والبحث النفسى حتى الآن لم يكشف

النقــاب عن النفس الإنسانيــة ؛ إذ مازالت بــعيــدة المنال بما يكتنفهــا من غموض وخفاء شأنها فى هذا كشأن جميع أسرار الحياة . لا يسعنا الكلام إلا على ما حاولنا أن نفــعله ، ونأمل أن نفعله فى المستقــبل ، فى سبيل محاولتنا لحل الأحجية الكبرى .

الفصل العاشر

المشكلة الروحية عند الإنسان الحديث

مشكلة الإنسان الحديث الروحية هى إحدى المسائل التى تتصل اتصالاً وثيقًا بالحاضر الذى نعيشه مما يجعلنا لا نستطيع أن نقطع فيها بحكم صحيح . فالإنسان الحديث تكوين جديد للكائن البشرى ؛ والمشكلة الحديثة هى مسألة نشأت لتوّاها والجواب عليها يكمن فى المستقبل. لذلك عندما نتكلم على مشكلة الإنسان الحديث الروحية ، يكون أقصى ما نستطيع أن نفعله هو الإبانة عن المسألة - ولعلنا أن نصوغ هذه الإبانة بصيغ مختلفة إن كان لدينا فكرة ولو ضئيلة عن الجواب . زد على ذلك أن فى المسألة نوعًا من الغموض ، وهى من العمومية بحيث تتجاوز فهم الفرد الإنسانى الواحد . ولذلك إن لنا العذر إذا نحن تناولنا هذه المشكلة فى كثير من الحذر والاعتدال . وإنى لمقتنع جدًا بهذه الحقيقة؛ ويؤدى أن أشدد عليها كثيرًا لأن من طبيعة هذه المشكلة أن تغيرنا باستعمال الكلمات الطنّانة - ولأني سوف أضطر إلى قول بعض كلمات قد تخرج عن حد الحذر والاعتدال .

لأبادر فى الحـال إلى تقـديم مـثـال على قلة الحـذر هذه بالقـول إن الإنسان الذى نصفه بالإنسان الحديث هو إنسـان عارف بالحاضر المباشر ، وليس هو أبداً ذلك الإنسـان المتوسط . إنما هو الإنسـان الذى يقف فوق ذروة العالم ، أو على حـافته ؛ أمـام هوة المستقـبل ؛ السموات فـوقه ؛ والبشرية كلها ، بتاريخها الذى يغـيب فى ضباب البدء ، تحته . الإنسان الحديث - أو إنـسان الحاضـر المباشـر - قلما نلتـقى به . قلة هم الذين يعيشـون فى مستوى التـسمية ، لأنه يتعين عليـهم أن يكونوا على درجة عالية من الوعى . ولما كان الوجود فى الحاضر وجوداً تامًا معناه أن يكون الوعى تامًا بالوجود الإنسانى ، كـان لابد للواعية من أن تكون على أعلى درجة من الكثافة والامتداد ، والخـافية (= اللا شعور) فى أدنى حدودها . وينبغى أن نفـهم بجلاء أن مجرد الـعيش فى الحاضر لا يجـعل الإنسان إنسـانًا حديثًا ، لأنه فى هذه الحـالة يصـبح كل إنسان يعـيش فى الوقت الحاضر إنسانًا حدثيًا ؛ إنما الإنسان الحديث من يعى الحاضر وعيًا تامًا .

الإنسان الذى نسـتطيع أن نسميه «حـديثًا» عن جدارة واستحـقاق هو إنسان مُفـرد - وإنه لكذلك عن ضرورة ، وفى جـميع الأزمنة ، لأن كل خطوة يخطوها نحو مزيد من وعى الحاضر تجعله ينفصل بنفس المقدار عن «مشاركـته الصوفية» الأصليـة مع سواد الناس - عن انغماسه فى الخـافية العامة . كل خطوة يخطوها إلى الأمام تعنى تحـرره من الخافية الأصلية ، الكلية - الإحاطة ، التى تستبد بالغالبـية العظمى من البشر استبداداً يكاد

أن يكون مطلقًا . حتى فى عصور التمدّن نجد الناس الذين يشكلون الطبقة الدنيا من الناحية السيكولوجية يعيشون فى حالة من قلة الوعى أشبه ما تكون بحالة الأقوام البدائية . أما الطبقة التى تليها فتبين عن مستوى من الوعى يتفق مع بدايات الثقافة البشرية ، على حين أن الطبقة العليا لديها من الوعى ما يمكنها من مواكبة الحياة فى القرون القليلة الماضية . وليس إلا الإنسان الحديث ، بالمعنى الذى اصطلحنا عليه ، من يعيش فى الحاضر ؛ فهو وحده يعيش الحاضر المباشر ، وهو وحده الذى يرى طرائق الحياة التى تتفق مع المستويات الماضية تكلفه من أمره رهقًا . فالعوالم القديمة وما انطوت عليه من قيم وهموم لا تعنيه إلا من الناحية التاريخية . وبذلك أصبح «لا تاريخيًا» ، بأعمق ما فى الكلمة من معنى، وانفصل عن سواد الناس الذين يعيشون كليّة راسفين فى أغلال التقليد . والحق إنه لا يكون حديثًا إلا عندما يقف على حافة العالم ، مخلفًا وراءه كل ما طُرح ونُبذ وعلاه الهرم ، عارفًا أنه يقف بإزاء فراغ قابل لأن ينشأ عنه كل شىء .

هذه الكلمات لعلّ بعضهم يعتبرها قعقعة فارغة ، ويردّها بعضهم الآخر إلى الإسفاف لا أكثر . لا شىء أيسر من تكلف وعى الحاضر . وفى الحقيقة هناك نفر كبير من الناس لا قيمة لهم ولا وزن يصطنعون مظهر الحداثة عن طريق القفز من فوق مختلف مراحل النمو ومهام الحياة التى يمثلونها ، فيظهرون فجأة فى جانب الإنسان الحديث على أنهم

كـائنات بشرية لا جـذور لهم ، وأشـباح تمتص الدمـاء ، يلتـبس علينا فراغهـم فنحسبه توحّد الإنسـان الحديث الذى لا يُحسد عليـه ويلقى عليه ظلال الشك والإرتياب فهو وأضرابه ، على قلّتـهم ، خفيّون عن العيون المميزة ، وهى عيـون السواد الأعظم التى تحجبها غـيوم الأشباح ، وأعنى بهم الحديثين المزيفين أو أشباه الحـديثين . ما من فائدة ترجى ؛ «الإنسان الحديث» موضوع تساؤل وارتياب ، وهو دائمًا هكذا ، حتى فى الماضى .

الاعتناق المخلص للحداثة معناه الإفلاس عن طـواعية واختيار ، ونَذر الفقر والعفة بمعنى جديد و - ما هو أشد إيلامًا - التخلىّ عن الهالة التى يمنحها التاريخ علامة على موافقته . أن تكون «لا تاريخيًا» هو أن ترتكب خطيئة بروميثيوس ، وبهذا المعنى يعـيش الإنسان الحديث فى الخطيـئة . لكن ، كمـا قلت ، ليس يسع أحدًا أن يحـقق الوعى التام بالحـاضر إلا الإنسان الذى تجاوز مراحل الوعى التى تـرجع إلى الماضى وقام بالواجبات التى كلّفه بها عالمـه . ولكى يفعل هذا يجب أن يكون سليم الحجى بارعًا بكل معنى الكلمـة - إنسانًا قام بمثل مـا يقوم به غيره أو أكـثر . إن هذه الصفات هى التى تمكنه من الإرتقاء إلى المستوى الذى يليه من الوعى .

أعرف أن فكرة البراعة أو الحذق يمقتـها أشباه الحديثين أشد المقت ، لأنها تذكرهم بأساليب المكر والخداع التى يتـبعونها تذكيرًا لا يبعث على السـرور . غيـر أن هذا لا يمنعنا من اتخـاذ هذه الفكرة مـعيـارًا للإنسان الحـديث ، بل نحن مضطرون إلى اتـخاذها لأن الإنسـان الذى يتصـدى

للحداثة إن هو إلاّ مقامر لا يبالى بشىء ، وينبغى له أن يكون على أعلى درجة من البراعـة ، لأنه إن لم يستطع أن يكفر عن خطيئة خرقـه التقليد بقدرته على الإبداع كان مجرد مناوىء للماضى . وإنها لشعوذة صرفة أن تعتبر التنكر للماضى شيئًا واحدًا هـــو وعى الحاضر . «اليوم» يقف بين «الأمس» و «الغد» ، مشكلاً حلقة واصلة بين الماضى والمستقبل؛ وليس له أى معنى آخر . إن الحاضر يمثل سياقًا انتقاليًا ، والإنسان يمكنه أن يعتبر نفسه حديثًا إن كان واعيًا على الحاضر بهذا المعنى .

كثيرون يزعمون أنهم حديثون ، ولا سيما أشباه الحديثين . ولذلك كثيرًا ما نجد الإنسان الحـديث حقًا فى جملة من يـدّعون أنهم من الطراز القديم ؛ وعنده من الأسـباب الكافيـة ما يحمله عـلى اتخاذ هذا الموقف . فمن ناحـية ، هو يشدد على أهمـية الماضى لكى يمسك بكفـة الميزان فى مقابل خرقـه للتقليد وفى مقابل أثر الخطيـئة التى تكلمت عنها ؛ ثم من ناحية أخرى ، هو يرغب فى تحاشى الالتباس بأشباه الحديثين .

لكل صفة حسنة جانب سيء ، ولا خير يدخل العالم إلا وينتج عنه مباشرة شـر يناسبه . هذه حقيـقة مؤلمة . وهنا يكمن الخطر فى أن يؤدى وعى الحاضر إلى غرور مبعثه الوهم : الوهم بأننا المحصلة الأخيرة لتاريخ البشرية ، ختام العصور الغابرة وثمرتها النهائية . لو سلمنا بذلك لعلمنا أنه ما هو إلا اعتراف بفقرنا المدقع ، بأننا خـيبنا آمال العصور الغابرة وما عقـدته علينا من رجاء . لـو فكرنا فى حوالى ألفى سنة من المثل العـليا

المسيحية يعقبها ، بدلاً من عودة المسيح وقيام ملكوت السماء ، الحرب العالمية بأسلاكها الشائكة وغازاتها الخانقة[1] ، لأدركنا فداحة هذه الكارثة في السماء وعلى الأرض .

تجاه هذه الصور لعلّنا نصبح أكثر تواضعًا . صحيح أن الإنسان الحديث هو المحصلة الأخيرة لتاريخ البشرية ، إلا أن الغد سوف يتجاوزه، صحيح أنه الخاتمة النهائية لما سبقه من تطور ، إلا أنه فى نفس الوقت خيّب آمال البشرية أسوأ خيبة . والإنسان الحديث يعرف هذا . فقد رأى الخير الذى يمكن أن يجنيه من العلم والتقانية والتنظيم ، لكنه رأى حكومات خيّرة المقاصد تمهد السبيل للسلام القائم على مبدأ «فى زمن السلم ينبغى الاستعداد للحرب» ، وكيف أصبحت أوروبا على شفا حفرة من الدمار . أما فيما يتعلق بالمثل العليا - وأعنى بها الكنيسة المسيحية والأخوة البشرية والديمقراطية الاجتماعية، و «تضامن» المصالح الاقتصادية - فقد أخفقت جميعها فى تحمل معمودية النار واختبار الواقع . اليوم ، وبعد خمسة عشر عامًا من انتهاء الحرب ، نلاحظ مرة أخرى نفس التفاؤل ، ونفس التنظيم ، ونفس الآمال والتطلعات السياسية ، ونفس العبارات والشعارات . كيف لا نخشى أن تؤدى هذه كلها إلى كوارث أخرى ؟ الاتفاقيات التى تعقد لمنع الحروب غير المشروعة تجعلنا نرتاب فى أنها خليقة بأن تحقق أغراضها ، حتى حين نتمنّى لها كل النجاح . إذ

(١) واضح أنه يريد الحرب العالمية الأولى - المترجم - .

يوجد فى القاع ، وخلف كل تدبير مسكّن من هذه التدابير ، شك يبعث على الضيق . على وجه الإجمال ، أظن أننى غير مبالغ إذا قلت إن الإنسان الحديث يعانى من صدمة تكاد أن تكون قاتلة ، من الناحية النفسية ، مما ترتب عليه أن يقع فى هاوية عميقة من الشك والقلق .

أعتقد أن هذه الإبانات تكشف بجلاء أن صفتى ، وأنا الطبيب ، إنما تلوّن وجهات نظرى . لأن من دأب الطبيب أن يتجسس العلل ، وليس يسعنى إلا أن أكون طبيبًا . لكن الشىء الأساسى فى صناعة الطب ألا تكتشف العلل حيث لا علة ؛ ولذلك لن أؤكد على أن العرق الأبيض عمومًا ، والأمم الغربية خصوصًا ، مصابة بالعلل وأن العالم الغربى واقف على حافة السقوط ؛ إذ ليس من صلاحيتى إصدار مثل هذا الحكم.

ما عرفته عن مشكلة الإنسان الحديث الروحية إنما عرفته من اختباراتى الشخصية كغيرى من الناس ولنفسى بالذات . لقد أتيح لى أن أعرف شيئًا عن الحياة النفسية الداخلية للمئات من ذوى الثقافة العالية ، من مرضى وأصحّاء ، أتوا إلىّ من كل صقع من أصقاع العالم المتمدن الأبيض ؛ وقد شيّدت هذه الإبانات على هذا الأساس . ولا شك أننى لا أستطيع إلا رسم صورة وحيدة الجانب ، لأن الأشياء التى لاحظتها إن هى إلا حوادث من حياة نفسية ، كامنة فينا – فى جانبنا الداخلى دائمًا وفى كل مكان . ينبغى لنا أيضًا أن نبحث عن النفس فى الخارج عند

أجناس بكاملها أو فى حقب من التاريخ لا تأخذ بحسبانها الحياة النفسية بهذه الصفة . ومن أمثلة ذلك لعلّنا نتخيّر أى ثقافة من الثقافات القديمة ، ولا سيما الثقافة المصرية وما اتصفت به من موضوعية جليلة واعتراف بآثام لم تقترف . لم نعد نشعر بالأهرامات ولا بقبور «صقارة» بأنها تعبر عن مشكلات أو عواطف شخصية ، بأكثر مما نشعر بذلك فى موسيقى باخ .

كلما اعتمدنا صيغة خارجية ، طقسية أو روحية ، نستطيع التعبير بواسطتها تعبيراً مكافئًا عن جميع تطلعات الروح وآمالها - على نحو ما نجده فى بعض الديانات الحيّة - أمكننا القول إن النفس موجودة فى الخارج ، ولا وجود لمشكلة روحية ، بالمعنى الدقيق للكلمة . بالتساوق مع هذه الحقيقة ، حصل التطور فى علم النفس فى العقود الأخيرة من السنين ، هذا برغم أن الإنسان كان ، قبل هذا التطور بزمن بعيد ، قد بلغ من التأمل فى حياته الروحية ، كما بلغ من الذكاء ، مبلغًا أتاح له التعرف على الحقائق التى تشكل مادة علم النفس . والشىء نفسه ينطبق على معرفته التقانية (= التكنولوجية) . فقد كان الرومان على علم بجميع المبادىء الآلية والحقائق الفيزيائية التى كان يمكنهم على أساسها أن يشيدوا الآلة البخارية ، لكن ما نتج عن هذه المعرفة لم يكن أكثر من لعبة صنعها «بطل الإسكندرية» ؛ لأنه لم تكن ثمة ضرورة ملحة للذهاب إلى أبعد من ذلك ، لكن لما جاء القرن التاسع عشر وحصل التخصص وتقسيم العمل

نشأت الحاجة إلى تطبيق المعرفة المتوافرة . وكذلك كان «اكتشاف» علم النفس تلبية لحاجة روحية باتت ملحة فى زماننا هذا . طبعًا ، لم يكن هناك زمن لم تكشف فيه النفس عن نفسها ، لكن ذلك لم يكن يسترعى انتباه أحد ولا ملاحظته . فقد كان الناس يفلحون فى تدبير شؤوننا ما لم نعر طرائق النفس عظيم انتباهنا .

لقد كان رجال الطب هم أول من لاحظوا ذلك ، لا الكهان ؛ ذلك أن هؤلاء لا يُعنَونَ إلا بشىء واحد هو قيام النفس بوظائفها من دونما اضطراب وأن يكون قيامها بذلك فى نطاق نظام من الإيمان معترف به . فما دام هذا النظام يتيح للحياة أن تعبر عن نفسها تعبيراً صادقًا ، فليس لعلم النفس أن يكون غير معوان فنى على العيش السليم ، وبالتالى لا يمكن اعتبار النفس مشكلة بحد ذاتها . وما دام الإنسان يعيش كائنًا فى قطيع ، فليس له «أشياء روحية» خاصة به ؛ إذ ليس له حاجة إليها أصلاً ، اللهم إلا الإيمان العادى بخلود الروح . لكنه ما إن يتجاوز فى نموّه أى صيغة موضعية من الديانة التى نشأ عليها - ما إن تعود هذه الديانة غير قادرة على الإحاطة بكل ما فى حياته من امتلاء - حتى تصبح النفس شيئًا له حقوقه الخاصة لا يسع تدابير الكنيسة وحدها أن تهبّ لإسعافه . ولذلك كان لنا اليوم علم نفس يقوم على الخبرة ، لا على بنود إيمان ، ولا على مسلمات تابعة لأى نظام فلسفى . ثم إن مجرد أن يكون لنا علم نفس كهذا العلم إنما يشكل فى نظرى دليلاً على ما تعانيه

حيـاتنا الروحيـة من اضطراب شـديد . إن التمـزق الذى يصيب الحـياة الروحية فى عـصر من العصور يبين لنا أنه يتبع نفس النمط الذى يتـبعه التغييـر الجذرى الذى يصيب حياة الفرد . ومادام كـل شىء يسير على ما يرام ، والطاقة النفـسية تجد تـطبيقاتهـا فى طرائق مكافئة ومنتظمـة ، فلا شىء يزعجنا من الداخل ، ولا شك يقلقنا ، ولا انقـسام ينزل بأنفسنا ، أما إذا انسـد مجـرى قناة أو أكثر مـن قنوات النشاط النفـسى ، فإن هذا يذكرنا بما يحدث للنهر الذى ينسـد مجراه ؛ ينكفىء تياره إلى الخلف إلى حيث منبـعه ؛ عندئذ يريد الإنسان الداخلى ما لا يريده الإنـسان الخارجى المنظور فتقـوم الحرب بيننا وبين أنفسنا ؛ وعندئذ فـقط ، وفى غمرة الألم الشديد ، نكتـشف النفس . أو بعبارة أدق وأحدّ ، يصادفـنا شىء يفسد علينا أفعـالنا الإرادية ، شىء غـريب عـنا لا بل مُعـادٍ لنا ، أو مناقض لوجهـة نظرنا الواعـية . وتُظهرنا عـلى هذا السيـاق إظهاراً جليًا أعـمال «فـرويد» فى التحليل النفـسى ؛ كـان أول شىء كشف النقـاب عنه تلك التخيلات الإجرامية المنحرفة جنسيًا التى تتناقض فى ظاهرها كلياً مع نظرة الإنسان المتمدن الواعية . ومن يخـضع لتأثير هذه التخيلات ، فليس أقل من متمرد أو مجرم أو مجنون .

لا يمكننا حسبـان هذا الجانب من النفس الخافيـة (= اللاشعور) ، أو الجانب الداخلى من العقل البشرى ، شـيئًا جديداً كل الجدّة ؛ ولعله كان موجوداً دائمًا فى كل ثقافة قد ولّدت نقيضها المدمّر ، لكن ما من ثقافة أو

مدنيــة قبل ثقافتنا أو مــدنيتنا اضطرت ، كمــا اضطررنا نحن ، إلى أخذ هذه «التيارات الباطنة» بمثل هذه الجديّة الزائدة . كانت الحيــاة النفسية فيما مضى تجـد تعبـيرها دائمًا فى نظام مـيتـافيـزيقى من نوع ما . أمــا اليوم فالإنسان الحديث لم يعد بوسعه إلا الاعتراف بقدرة القوى النفسية ، برغم ما يبذله من جهود شـاقة عنيدة لكيلا يعترف بها . وهذا ما يميـز عصرنا من جميع العصور الأخرى ؛ لم يعد بـوسعنا نكران وجود قوى نفسية لا يمكنهــا ، فى الوقت الحاضر علــى الأقل ، أن تلاقى لها محــلاً فى نظام عالمنا العقلى . بل نحن قد توســعنا فى درس هذه القوى التى جعلنا منها علمًا مستقلاً قائمًا بنفــسه - وهذا برهان آخر على ما نوليه إياها من أهميّة جادّة . وبينما كان بوسع أهل القرون الماضية أن يطرحوها جانبًا دون أن يكلفوا أنفسهم عناء ملاحظتها ، أضحت لنا قميص «نيسوس» لا نستطيع أن نخلعه عنا أبدًا .

الثورة التى حــدثت فى نظرتنا الواعية ، وكان من نتــائجها المفــجعة الحــرب العالميــة ، تتبــدّى فى حــياتنا الداخليــة فى تحطم إيماننا بأنفــسنا وقيمتنا. كنا ننظر إلى الأجانب - الطرف الآخر - على أنهم هو الملومون سيــاسيًا وأخلاقــيًا ؛ أما الإنسان الحــديث فمضطر إلى الاعــتراف بأنه ، سياسيًا وأخلاقيًا ، مثله كمثل أى إنسان آخر . وفى حين كنت أؤمن فى الماضى بأن من واجبى دعوة الأشخــاص الآخرين إلى التزام جانب النظام أيضًا ؛ أسلّم بهذا من تلقاء نفــسى لأننى أعلم حقَّ العلم أنى فاقد الإيمان

بإمكان تنظيم العالم على العقل ، وأن الحلم القديم بالألفية ، حين يسود العالمَ السلامُ والإنسجامُ ، قد أصبح حلمًا باهتًا . كان للريبيّة التى أصابت جميع هذه الأمور أثرٌ عظيم فى تبريد حماسة الإنسان الحديث للسياسة وإصلاح العالم ؛ أكثر من هذا ، إن من شأن هذه الريبيّة ألاّ تدعم أى تطبيق هادىء للطاقات النفسية على العالم الخارجى . والإنسان الحديث ، وهو فى هذه الريبيّة ، ما يلبث أن ينكص على عقبيه ، فتنكفىء طاقات راجعة إلى منبعها وتطفو على السطح تلك المحتويات النفسية التى كانت موجودة فى جميع الأزمنة ، خبيئةً فى طبقات رسوبات الوحل ما ظل النهر يجرى هادئًا فى سيره الطبيعى . كم يبدو عالمنا مختلفًا لإنسان العصر الوسيط ! الأرض عنده ثابتة أبدًا ومستريحة فى مركز العالم ، يحيط بها دوران الشمس حولها وتهبها الدفء فى توق شديد . كان الناس جميعهم أبناء الله ينعمون برعاية «العلى» ومحبته ، الذى أعدهم للسعادة الأبدية ؛ وكان الجميع يعلمون حق العلم ما ينبغى عليهم فعله وكيف ينبغى لهم أن يسلكوا لكى يرتفعوا من عالم فاسد إلى وجود يمنحهم البهجة والغبطة ولا يتطرق إليه فساد . أما نحن فلم تعد تبدو لنا مثل هذه الحياة واقعية ، حتى ولو فى الأحلام . فالعلم الطبيعى كان قد مزّق هذا القناع الجميل مِزَقًا منذ زمن بعد . لقد ولّى ذلك العصر بعيدًا بعد الطفولة عنا ، عندما كان والد أحدنا أحسن الخلق وأشدهم بأسًا.

لقد فقد الإنسان الحديث كل إيمان ميتافيزيقى كان يؤمن به أخوه فى العصر الوسيط ، وشيّد عوضًا عنه مثلاً أعلى من الضمان المادى والرفاه العام والإنسانية . ولكى تبدو هذه المثل العليا ثابتة لا تتزعزع ، لابد لها من جرعة كبيرة من التفاؤل . لكن ما حدث هو أنه حتى الضمان المادى قد ذهب أدراج الرياح ، لأن الإنسان الحديث صار يرى كل خطوة يخطوها فى التقدم المادى إنّما تضيف قوة بقدرتها تمامًا إلى الخطر الذى يتهدده بالكارثة العظمى . إن مجرد الصورة تثير فى مخيلته الرعب . تُرى كيف نتصور ما يحدث عندما تقوم اليوم مدن بأسرها بإحكام تدابير الوقاية من الغازات السامة ثم نجرى عليها التدريب بارتداء الأقنعة ؟ لا يسعنا إلا الإفتراض بأن هذه الغازات قد رسمت لها الخطط وأعدت لها العدة - ثانيةً على مبدأ «فى زمن السلم ينبغى الاستعداد للحرب» . فليجمع الإنسان ما لديه من أدوات دمار لكى يجد الشيطان الذى بداخله عاجزًا عن مقاومة وضعها فى موضع استعمالها المحتوم ولقد أضحى من الأمور المعروفة أن الأسلحة النارية تنطلق من تلقاء نفسها إذا تجمع منها كمية معيّنة بعضها إلى بعض .

القانون الذى يحكم الممكن الأعمى ، وهو القانون الذى دعاه **هيراقليط** بالانقلاب الضدى ، هو الآن آخذ فى الإعلان عن نفسه للإنسان الحديث متسللاً إليه من خلال الدروب الجانبية من عقله ، فيجعله يقشعر من الخوف ويقضى على إيمانه بديمومة آثار التدابير الاجتماعية

والسياسية فى وجه هذه القوى المهولة . وهو لو أشاح بطرفه عن الإمكانيات الرهيبة لعالم أعمى تتناوب عليه عمليتا بناء وتدمير ، وحدّق داخليًا فى فجوات عقله ، لرأى ثمة عماء وظلمة كان يؤثر لو أنه ما رآهما. لقد دمر العلم كل شيء حتى ملاذ الحياة الداخلية . وما كان فى يوم من الأيام شاطىء أمان أضحى اليوم مكانًا للرعب .

ومع ذلك قد يكون عونًا لنا اكتشاف ما فى أعماق نفوسنا من شر مستطير ، الأمر الذى يجعلنا نؤمن على الأقل بأننا قد وضعنا أيدينا على أصل الشر عند الإنسان . فى مبدأ الأمر قد تصدمنا الحقيقة وتنزاح الغشاوة عن أعيننا ، لكننا نشعر مع ذلك - بما أن هذه الأشياء مظاهر تكشف الستار عن عقولنا - بأننا نمسك بهذه المظاهر بأيدينا على درجات متفاوتة ، ونستطيع بالتالى تصحيحها ، أو على الأقل إخضاعها لرقابتنا بصورة مجدية . بودنا الافتراض أننا لو أفلحنا فى هذا ، لاستأصلنا جانبًا من الشر فى العالم ، بودنا الاعتقاد ، على أساس المعرفة الواسعة الانتشار بالخافية وطرائقها ، أنه ما من أحد يمكن أن يخدعه سياسى يجهل ما فى نفسه من نوازع شريرة ، لأنه عندئذٍ حتى الصحافة تنبهه قائلة له : «تفضل وحلل نفسك ،. فأنت تعانى من عقدة أبوية مكبوتة» .

لقد تعمدت اختيار هذا المثال الغريب لعلنى أبيّن مبلغ السخافات التى يقودنا إليها توهمنا لأن الشيء لمجرد كونه شأنًا من شؤون النفس إنما

يخضع لسيطرتنا . غير أنه إن صح أن كثيراً من الشر فى العالم ناشىء عن أن الإنسان عموماً كائن غير واع إلى حد لا رجاء فيه ، فإنه يصح القول أيضاً إنه كلما ازداد وعينا أصبح فى مقدورنا مكافحة هذا الشر فى مصدره الكامن فى نفوسنا . وكما أن العلم يتيح لنا معالجة الأمراض النازلة بنا من الخارج ، كذلك هو يعيننا على معالجة الأمراض التى تطلع لنا من الداخل .

ما شهده علم النفس فى العقدين الأخيرين من اهتمام يتسم بالنمو السريع والامتداد على نطاق العالم يظهرنا بما لا يدع مجالاً للخطأ على أن الإنسان الحديث قد بدأ يصرف اهتمامه قليلاً عن الأشياء المادية ويلتفت إلى سياقاته الذاتية . هل لنا أن نسمّى هذا مجرد فضول ؟ مهما يكن من أمر ، فإن للفن طريقته فى استباق التغيرات المستقبلية فى نظرة الإنسان الأساسية ، والفن التعبيرى قد أدرك هذا الالتفات نحو الذات قبل حدوث التغير بزمن بعيد .

إن هذا الاهتمام بعلم النفس فى الوقت الحاضر يظهرنا على أن الإنسان يأمل فى الحصول على شىء من الحياة النفسية لم يحصل عليه من العالم الخارجى : شىء لا شك أن دياناتنا يجب أن تشتمل عليه ، لكنها لم تعد تشتمل عليه - على الأقل بالنسبة للإنسان الحديث . فالصيغ والأشكال الدينية لم تعد تبدو للإنسان الحديث آتية من الداخل - تعبيراً عن حياته النفسية ، بالنسبة إليه يجب تصنيفها مع أشياء العالم

الخارجى. ولما كان غير متاح له أن يستلهم روحًا ليست من هذا العالم ، راح يجرب عـدداً من الديانات والعقـائد كما يرتدى مـلابس الأحد ، ثم يعود فينبذها جانبًا كما ينبذ ملابسه المهترئة .

لكنه مع ذلك يذهله ، على نحو من الأنحاء ، ما ينتجه عقله الخافى من مظاهر أشبـه بالمظاهر المرضية . ينـبغى لنا أن نسلم بالواقع ، مهـما كان صعبًا علينا رؤية شىء نبذته الأجيال المـاضية يستولى على اهتمامنا . أن يوجد اهتمام عام بهذه الأمور حقيقة لا يمكن نكرانها ، مهما كانت مرّة المذاق . لا أريد فقط الإشـارة إلى الاهتمام بالـسيكولوجيـا من حيث هى علم ، ولا الاهتمام الأضيق بمدرسة «فرويد» فى التحليـل النفسى ، وإنما الاهتمـام الذى أضحى واسـع الانتشار بجـميع أنواع الظـاهرات النفسـية المتمثلة فى نمو العلوم الروحية والتنجيم والحكمة الإلهـية (الثيوسوفية) وما أشبه ، وهو اهتمام لم يشهد العالم مـثيلاً له منذ القرن السابع عشر ، لا يشـبهه إلا ازدهار الـفكر الغنوصى فى القرنين الأول والثـانى للمـيلاد . والحق إن التيارات الروحية فى الوقت الحاضر ذات صلة وثيقة بالغنوصية، حتى إنه يوجد اليوم كنيسة غنوصية فى فرنسا ، ومدرستان ألمانيتان تعلنان صراحة عن انتمائهما للغنوصية . لكن ما يلفت النظر من الناحية العددية فى الحركة الحـديثة هو بلا شك الحكمة الإلهيـة (الثيوسوفـية) إلى جانب شقيقتها الحكمة البشـرية (الأنثروبوسوفية) ، وهاتان المدرستان ما هما إلا الغنوصية فى رداء هندوكى . فـبالمقارنة مع هذه الحركات لا يعـد الاهتمام بالسيكولوجـيا شيئًا مذكـوراً . ما يلفت النظر فى الأنظمة الغنوصـية انها

تقوم حصراً على مظاهر الخافية (اللا شعـور) ، وأن تعاليمها الأخلاقية لا تعوق الجانب المتمم من الحياة . فالكواندالينى - اليوغا الهندوكية - تظهر هذا بجـلاء حتى فى انبـعاثـها الأوروبى . ولما كـان كل شخص عـارف بالموضوعـات الغيبـية يشهد هذا ، كـانت الإبانة صحيـحة أيضًا فى هذا الميدان .

لا شك أن الاهتـمام الشـديد بهذه الحـركات ناشىء عن أن الطاقـة النفسـية لم يعـد بوسعهـا أن تلبس أشكالاً عفى عليـها الزمن . ولذلك اتخذت هذه الحركات صـبغة دينية حقيقة حـتى حين تزعم أنها ذات صفة علمية . ولا يغير من الأمر شيئًا أن يدعـو رودلف شتاينر حكمته البشرية «علماً روحـيًا» ، أو تكتشف السـيدة أدى «علمًا مسـيحيًا» إن مـحاولات التغطية هذه لتظهرنا على أن الدين قد غـدا شيئًا يبعث على الارتياب بمثل ما تبعث عليه السياسة والدعوات إلى إصلاح العالم .

لا أظننى مبالغًا إذا قلت أن الإنسان الحـديث خلافًا لأخيه ابن القرن التاسع عشر ، إنما يوجه اهتمامه إلى النفس ، وهو محمّل بعظيم الآمال، وهو يفعل ذلك من غير أن يرجع إلى عقيـدة من العقائد التقليدية ، وإنما بالمعنى الغنوصى للخـبرة الـدينية . ولابد لنا من ارتكابُ خطـأ فادح إذا نحن لن نَرَ فى هذه الحركات التى ذكرتها توآً ، وهى تحاول أن تسبغ على نفسها صفة العلم ، إلا رسـومًا كاريكاتورية أو حفلات تنكرية ، إنها إذ تفعل هذا فإنما تدل على أنها تتبع «العلم» فـعلاً أو تتخذ المعرفة بدلاً من

«الإيمان» الذى تقوم عليه الأديان الغربية . إن الإنسان الحديث يمقت المسلمات الدغماطيقية إيمانًا له كما يمقت الأديان التى تأسست عليها ، فهو لا يأخذ بها إلا بمقدار ما تتفق مضامينها مع خبرته لأعماق حياته النفسية، يريد أن يعرف ، أى أن يختبر بنفسه . وقد لفت العميد انج ، كاتدرائية القديس بولس ، لفت الانتباه إلى حركة فى قلب الكنيسة الأنجليجانية ذات أهداف مماثلة .

فى يومنا هذا ، وصل عصر الاكتشاف إلى نهايته ولم يبق فى الأرض جزء إلا وقد كشفناه ، وقد كانت بداية النهاية حين لم يعد الناس «يؤمنون» بأن أهل القطب الشمالى يسكنون بلادًا لا تغيب عنها الشمس، وباتوا يريدون أن يعرفوا بأنفسهم ويروا بأم أعينهم ما وراء تخوم العالم المعروف . ومن الواضح أن عصرنا يميل إلى الكشف عما وراء تخوم الواعية ، والسؤال المطروح الآن فى الدوائر الروحانية هو : ماذا يحدث لو فقد الوسيط واعيته ؟ وكل من يتبع مذهب «الحكمة الإلهية» (الثيوسوفية) يسأل ؛ ما هى الخبرة التى اختبرها فى المستويات العليا من الواعية ؟ والسؤال الذى يطرحه كل عالم بالنجوم هو : ما هى القوى الفاعلة والعوامل التى تقرر مصيرى خارج مجال نيّاتى الواعية ؟ وكل محلل نفسى يريد أن يعرف : ما هى السوائق الخافية (اللا شعورية) وراء العُصاب ؟

إن عصرنا يرغب فى أن يعرف الخبرات الفعلة فى الحياة النفسية ، يريد أن يختبر بنفسه ، لا أن يقيم افتراضات على أساس خبرة العصور

الغابرة . ومع ذلك إن هذا لا يمنعه من أن يجرب شيئًا بطريقة افتراضية - مثلاً الأديان المعترف بها اليوم والعلوم الأصيلة . إن أوروبى الأمس يحس قشعريرة تسرى فى عموده الفقرى عندما يحدّق مليًا فى هذه الحفر ، فهو لا يعتبر موضوع البحث بالغ الظلمة والغرابة وحسب ، وإنما يعتبر المناهج المستعمة تعسفًا شديدًا إذ تسخّر أدق المكاسب العقلية التى أحرزها الإنسان فى خدمة هذه المواضيع . ماذا ننتظر من عالم بالفلك أن يقول عندما تعلمه أن ألف جدول أبراج على الأقل بات اليوم يوضع فى مقابل واحد كان يوضع لثلاثمائة سنة خلت ؟ ماذا يقول المعلم المدافع عن التنوير الفلسفى عندما يعلم أن العالم لم يتحرر ولا من خرافة واحدة منذ عصر الإغريق القدامى ؟ فرويد نفسه ، مؤسس مدرسة التحليل النفسى ، ألقى ضوءًا ساطعًا على ما يغمر النفس الداخلية من قذر وظلام وشر ، وقدّم لنا هذه الأشياء على أنها نفاية وسقط متاع ، وكلّف نفسه عناء شديدًا فى ثنى الناس عن البحث عن شىء فيها وراءها . لكنه لم يفلح ، وكانت النتيجة أن أحدثت تحذيراته نفس ما كان يريد منع حدوثه ، لقد أيقظت فى كثير من الناس افتنانًا بجميع هذه الأقذار ، لنا أن نسمى هذا انحرافًا محضًا ، ولنا أن نفسره على أساس أنه ليس حب القذارة هو ما يجتذب الناس ، وإنما هو الإفتتان بعالم النفس . ولا شك أن الإنسان منذ بداية القرن التاسع عشر - منذ سنى الثورة الفرنسية وما تلاها - قد بدأ يحل النفس مكانة بارزة أخذت أهميتها تزداد على مرّ الأيام ، وكان اهتمامه المتزايد بها معيارًا لا تجذابه المتزايد إليها . ويبدو أنه كان اعتلاء

«إلهة العقل» على عرش كاتدرائية نوتردام بادرة رمزية كان لها مغزى كبير بالنسبة إلى العالم الغربى ، كان أشبه بقيام المبشرين النصارى بتحطيم بلّوطة «ووطان» لأنه لم تنزل فى ذلك الحين ، كما لم تنزل عند قيام الثورة ، صاعقة من السماء فتنتقم من المجدفين وتقضى عليهم قضاء مبرمًا.

وليس من قبيل المصادفة أن يقوم فى ذلك الوقت بالذات فرنسى اسمه «انكتيل دى بيرون» ، كان يعيش فى الهند فى مطلع المئات الثمانى عشرة ، بجلب ترجمة «أوبنك هات» - وهى مجموعة مؤلفة من خمسين أو بانيشادة - أعطت العالم الغربى أولى نظرته العميقة فى العقل الشرقى المحيّر . المؤرخ يعتبر هذا الأمر ليس أكثر من مصادفة لا صلة لها بعوامل السببيّة والمسببيّة . أما من زاوية خبرتى الطبية فلا أستطيع اعتبار الأمر مصادفة لا أكثر ، بل حرىّ به أن يكون فعلاً من أفعال قانون نفسى يحدث آثاره فى الحياة الشخصية لا أقل بصورة لا استثناء فيها : كل جزء من الحياة الواعية يفقد أهميته وقيمته - هكذا يمضى القانون - ينشأ عنه تعويض فى الحياة الخافية (اللا شعورية) . ولعلنا نرى فى هذا القانون مشابهة بقانون حفظ الطاقة فى العالم الفيزيائى ، ذلك أن سياقاتنا النفسية لها جانبها الكمى أيضًا . ما من قيمة نفسية تختفى إلا وتحل محلها أخرى تساويها فى الشدة . هذه قاعدة لها تأييدها البرجماتى فى الممارسة اليومية عند أساة النفس ، قاعدة ثابتة تكرارًا ولا تخطئ أبدًا .

هنا يأتى الطبيب ، الذى فى داخلى ، لكى يرفض رفضًا قاطعًا أن تكون حياة الناس المجتمعين شيئًا لا يتماشى مع القوانين النفسية . فالناس مجتمعين ، فى نظر الطبيب ، يقدمون عن الحياة النفسية صورة أعقد من الصورة التى يقدمها الفرد ، بعض الشىء . يضاف إلى ذلك أننا إذا نظرنا إلى الموضوع من الجانب الآخر . أفلم نسمع أحد الشعراء يتكلم عن «الأمم» فى روحه ؟ وهذا صحيح تمامًا ، كما يبدو لى ، ذلك أن أحد جوانب النفس ليس فرديًا أو ليس فردًا . بل هو مستمد من الأمة ، أو من الجماعة ، أو حتى من البشرية جمعاء . فعلى نحو أو آخر نحن جزء من حياة نفسية محيطة ، جزء من «الإنسان الأعظم» الواحد ، على حد تعبير سويدنبرغ .

وعلى هذا يمكننا أن نعقد هذه المقارنة : كما أن الظلمة التى فى داخلى ، وأنا الكائن البشرى الواحد ، تستدعى النور المسعف ، كذلك هى تستدعيه فى حياة الجماعة النفسية ، لقد كان فى الجموع التى تدفقت إلى نوتردام ، الجموع التى تنزع إلى التخريب ، لقد كان فيها قوى مظلمة مجهولة الاسم تتفاعل تفاعلاً جذريًا يقتلع الفرد من جذوره ، لقد كانت هذه القوى تتفاعل أيضًا فى نفس «انكتيل دى بيرون» وتستثير جوابًا ينحدر من أعماق الطبيعة . لقد جاء بالعقل الشرقى إلى الغرب أما تأثيره علينا فليس بوسعنا أن نعرفه الآن . لكن لنكن على حذر من التقليل من شأنه ! والحق إنه ليس يوجد حتى الآن إلا قليل من هذا التأثير نستطيع

أن نتبيّنه على السطح الفكرى من أوروبا : بضعـة مستشرقين ، واحد أو اثنان من متهـمين بالبوذية ، بضعة من ذوى الشـهرة المعتمة مـثل السيدة بلاواتسكى وآنى بيـزانت . هذه المظاهر تجـعلنا نفكر فى الجـزر الصغـرة المبعثرة هنا وهـناك ، أشبه ما تكون بذرى سلاسل الجبال الـهائلة غائصة تحت الماء . كان الجهلة حتى وقـت قريب يظنون أننا قد تخلصنا من علم التنجيم مـنذ زمن بعيد ، وأنه أصـبح شيئًا يمكننا أن نـهزأ به ونحن فى مأمن من الشطط . أما اليوم ، بعد أن خرجنا من الأعـماق الاجتماعية ، فقـد راح علم التنجـيم يقرع أبواب الجـامعات من حـيث طرد منهـا قبل ثلاثمائة عام . نفس الـشىء ينطبق على الفكر الآتى من الشرق ، إن هذا الفكر تمتد جذوره فى المستـويات الاجتماعية السفـلى ثم ها هو ذا يتصاعد هونًا إلى السطح . من أين جـاءت خمـسـة الملايين أو ستـة الملايين من الفرنكات السويسرية التـى أنفقت على تشييد معبـد «الحكمة البشرية» فى درناخ ؟ قطعًا لم يدفعهـا فرد واحد . لسوء الحظ ، لا يتوفر احـصائيات تنبئنا بالرقم الصحيح لأتباع «الحكمة الإلهية» الملتزمين اليوم ، ناهيك عن غير الملتزمين . لكننا واثقون بأنهم يبلغون بضعة ملايين ينبغى أن نضيف إليهم بضعة ملايين آخرين من الروحـانيين من ذوى النزعات المسيحية أو الثيوسوفية .

الابتكارات الـعظمى لا تأتى أبـدًا من فـوق ، بـل من تحت ، تمامًا كـالأشجـار لا تنبت أبدًا من السـمـاء إلى الأرض ، بل من الأرض إلى

السماء ، مهما كان صحيحًا القول بأن بزورها قد هبطت إلينا من فوق .
إن الفوران الذى يشهده العالم والفوران فى الواعية هما فوران واحد . كل شىء يصبح نسبيًا وبالتالى موضع ارتياب . والإنسان بينما هو يتردد ويتساءل ، ويفكر فى عالم تتجاذبه معاهدات السلام ومواثيق الصداقة ، وتتوزعه الديمقراطية والدكتاتورية ، والرأسمالية والبلشفية ، تتوق روحه إلى جواب يبدد عنه الشك والقلق ، والناس الذين هم فى أدنى مستويات المجتمع هم الذين يخضعون لقوى النفس الخافية ، وهم أولاد البلد الصامتون الذين كثيرًا ما نسخر منهم - الذين هم أقل تعرضًا لوباء الأهواء الأكاديمية من المشاهير الأعلام الذين أدمنوها . جميع هؤلاء الناس، إذا نظرنا إليهم من عل ، إنما يمثلون فى معظمهم كوميديا حزينة أو مضحكة ، وهم إلى ذلك بسطاء للغاية كبساطة أهل الجليل الذين باركهم المسيح مرة . أليس من المؤثر أن نرى نفاية نفس الإنسان وقد تجمعت فى مختصرات سمكها بطول قدم ؟ وإننا لنعثر فى «الأنثروبوفيتيا» على أكثر الكلام لغوًا ، وأكثر الأفعال سخفًا ، وأكثر التخيلات وحشية، كتبت بعناية فائقة ، بينما انصرف أناس من مثل هافلوك إيليس وفرويد يعالجون أمثال هذه الشؤون ويفردون لها أبحاثًا جادة نالت كل التقدير العلمى ، ولهم جمهور من القراء موزعون فى جميع أنحاء العالم المتمدن الأبيض . كيف لنا أن نفسر هذه الحماسة ، هذه العَبادة المتعصبة للأشياء المقتبسة ؟ إن تفسيرنا لها يأتى على هذا النحو : الأشياء المقيتة هى من

عالم النفس ومن قوامها ، وبالتالى هى ثمينة بمقدار ما هى ثمينة نتافات من مخطوطة استنفذناها من طلل قديم . حتى الأشياء السرية والكريهة الموجودة فى الحياة الداخلية هى أشياء ذات قيمة للإنسان الحديث لأنها تخدم غرضه . لكن أى غرض ؟

استهل فرويد كتابه «تفسير الأحلام» بالقول المأثور التالى : «إن لم أستطع إخضاع الآلهة، فلا أقل من أن أجعلها تزمجر» .

إن الآلهة التى «نحن» مدعوون إلى إنزالها عن العرش هى القيم الوثنية المنصوبة فى عالمنا الواعى . ولقد بات من الأمور المعروفة جدًا أن فضائح الحب التى تعرضت لها الآلهة القديمة هى التى أسهمت أكثر من أى شىء آخر فى سلب الثقة عن هذه الآلهة ، وها هو ذا التاريخ يعيد نفسه الآن . فقد أخذ الناس يعرّون الأسس المريبة التى قامت عليها فضائلنا التى نقدسها ، ومثلنا العليا التى لا نظير لها ، ويصيحون بنا صيحة الظفر : «تلكم هى آلهتكم التى صنعتموها بأيديكم ، إن هى إلا شرك وأضاليل ملوثة بحقارة البشر - أضرحة مكلّسة ملأى بعظام الموتى وكل أنواع القذر ، فنميز فى هذا الكلام نبرة مألوفة ، كلمات من الإنجيل لم نستطع أبدًا أن نجعلها كلماتنا ، تعود الآن ثانية إلى الحياة .

وإنى لعميق الاقتناع بأن هذه ما هى بالمشابهات الغامضة : ففى الناس أكثر مما نظن ممن يُحلّون سيكولوجية فرويد من نفوسهم منزلة أعلى من الإنجيل ، ويعنى لهم «الإرهاب الروسى» أكثر مما تعنى لهم فضائل

الحيـاة المدنية . ومع ذلك هـؤلاء جميـعًا إخوتنا ، وفى كل مـنا صوت «واحد» علـى الأقل يؤيدهم ، لأنه فى نهاية المطاف توجـد حيـاة نفسـية واحدة تحيط بنا جميعًا .

والنتيجة التى ما توقعناها من هذا التغير الروحى هى أننا خلعنا على العالم وجهًا أقـبح من ذى قبل ، ولقد بلغ من قبحـه حدًا لم يعد بوسع أحد أن يحبـه بعد الآن - حتى إنه لم يعد بوسعنـا أن نحسب أنفسنا ، وفى نهـاية المطاف ليس فى العالـم الخارجى مـا يحملنا على أن نضـرب صفـحًا عن حقـيقـة الحيـاة الداخلية . ولا شك أننا نكتـشف هنا المعنى الحقيقى لهذا التغير الروحى . ثم ماذا تريد «الحكمة الإلهية» وما اشتملت عليه من تعـاليم «الكرما» و «التقمص» مـاذا تريد أن تعلمنا سوى أن هذا العالم المرئى ما هو إلا مصح مؤقت للذين لم يكتملوا أخلاقيًا ؟ إنها تحطّ من قيـمة عالمنا الراهن بما لا يقل جذريـة عما تفعله النظرة الحـديثة ، إنما تستعير تقانيّة مختلفة . فهى لا تحط من قدر هذا العالم ، بل تمنحه معنى نسبـيًا من حيث إنهـا تعدنا بعـوالم أخرى أرفع شأنا من هـذا العالم . النتيجة واحدة فى كلتا الحالتين .

أعترف بأن جميع هذه الأفكار بعيدة جدًا عن الروح الأكاديمية ، وأن ما فيها من حق إنما يمس الإنسان من الجانب الذى يكون فيه وعيه فى حده الأدنى . ثم هل من قـبيل المصـادفة أيضًا أن يصطلح الفكر الحـديث مع نسبية اينشتاين والأفكار المتعلقة ببنيـة الجوهر الفرد التى تبعدنا عن الحتمية

والتمثيل الرؤيوى ؟ حتى العلوم الفزيائية طيّرت عالمنا المادى . فلا عجب إذن أن ينكفىء الإنسان الحديث على واقع الحياة النفسية يلتمس منها اليقين الذى ينكره العالم عليه .

لكن العالم الغربى هو الآن فى وضع محفوف بالمخاطر من الناحية الروحية - ويتعاظم الخطر كلما عمينا عن الحقيقة القاسية موهمين أنفسنا بما فى روحنا من جمال ؛ الإنسان الغربى يحرق البخور أمام نفسه فتختفى ملامحه وراء الدخان . لكن كيف يبدو للناس الذين هم من لون غير لوننا؟ ما ظن الصين والهند بنا ؟ ما الشعور الذى نستثيره فى الرجل الأسود ؟ ما رأى جميع الذين حرمناهم من أراضيهم وقضينا عليهم بـ «الرّم» والأمراض التناسيلة ؟

لى صديق من الهنود الحمر يحكم إحدى قبائل البوابلو . عندما كنا مرة نتجاذب أطراف الحديث حول الرجل الأبيض ، إذا به يقول لى : «نحن لا نفهم البيض . . إنهم دائمًا يريدون شيئًا . . دائمًا قلقون . . دائمًا يبحثون عن شىء . . ما هو ؟ لا ندرى . . لا نستطيع أن نفهمهم . . أنوفهم الدقيقة . . شافهم الرقيقة القاسية . . وهذه الخطوط على وجوههم . . إننا نعتقد أنهم جميعًا مجانين» . كان صديقى قد اكتشف - دون أن يسمى ذلك بالاسم - سبع الطير الآرى وشهوته التى لا ترتوى إلى بسط سيادته على كل أرض - حتى تلك الأراضى التى تعنيه أبدًا . كذلك لاحظ مبلغ ما فينا من جنون عظمة يفضى بنا إلى الاعتقاد ، من بين أشياء

أخرى ، بأن المسيحية هي الحقيقة الوحيدة ، وأن المسيح الأبيض هو المخلص الوحيد . بعد أن أوقعنا الشرق كله في حالة من الفوضى والاضطراب بواسطة العلم والتقانية (= التكنولوجيا) وجبَينا منه الجزية ، عمدنا إلى إيفاد مبشرين عنا حتى إلى الصين . كان القضاء على تعدد الزوجات من جانب «البعثات الأفريقية» سببًا في انتشار الدعارة على نطاق واسع حتى لقد تطلب الأمر في أوغندا وحدها إنفاق عشرين ألف جنيه استرليني سنويًا على الوقاية من الأمراض التناسلية ، ناهيك عن الآثار الأخلاقية الى كانت أمرّ وأدهى . والأوروبي الطيب يدفع إلى مبعوثيه نفقاتهم من أجل القيام بهذه المهام التنويرية ! لا حاجة بنا إلى إيراد حكاية الآلام في «بولينيزيا» ولا إلى «بركات» تجارة الأفيون .

هكذا يبدو الأوروبي عندما يسقط عنه حجاب بخوره الأخلاقي . ولا عجب بعد هذا أن نبدأ بفتح المجاري لتصريف مستنقع آسن من أجل نبش التراب عن شظايا الحياة النفسية الدفينة . إن مثل هذا العمل غير النظيف ما كان لأحد أن يخصص له كل حياته إلا مثالي عظيم مثل فرويد . أما نحن فلا يمكننا أن نبدأ بمعرفة وقائع الحياة النفسية إلا عند هذه النهاية، بكل ما تثيره فينا من اشمئزاز وما لا نرغب في رؤيته .

لكن إن كانت النفس لا تشكل بالنسبة إلينا إلا الأشياء الشريرة التى لا قيمة لها ، فليس على وجه الأرض قدرة تستطيع أن تحمل إنسانًا

سليم الحجى على الإدعاء بأنها ذات جاذبية . وهذا ما يفسر لنا لماذا لا يجد الناس فى «الحكمة الإلهية» إلا سطحية عقلية مؤسفة ، وفى سيكولوجية فرويد إلا حسية تنبىء بنهاية قريبة مخزية لهذه الحركات ؛ لأنها تغض النظر عن أن قوتها مستمدة من جاذبية الحياة النفسية أو سحرها . ولا شك أن الاهتمام الشديد الذى تستثيره فينا قد يعبر عنه بأشكال أخرى ، لكن لابد له من أن يظل يظهر فى الأشكال إلى أن يحل محلها أشكال خير منها . الخرافة والشذوذ شىء واحد ؛ إنهما مراحل انتقالية فى حالة جنينية ينشأ عنها أشكال أجدّ وأنضج .

تقدم لنا التيارات الباطنة من الحياة النفسية فى «الغرب» صورة مقرفة، سواء من الناحية العقلية أم من الناحية الأخلاقية أو الجمالية . لقد شيّدنا من عالمنا نصبًا تذكاريًا قوامه الأشياء التى تحيط بنا ، وتعبدنا له بطاقة لا مثيل لها . لكنه نصب بالغ الجلال والمهابة ، وما ذلك إلا لأننا أنفقنا على الخارج كل ما هو جليل ومهيب فى طبائعنا أما ما نجده حين ننظر فى الداخل فلابد وأن يكون مهترئًا وناقصًا .

إنى لأعلم أننى بقوله هذا إنما أستبق قليلاً نمو الواعية الفعلى ؛ إذ حتى الآن لا توجد رؤية عامة لهذه الوقائع من الحياة النفسية . فالغربيون لم يزالوا فى بداية الطريق نحو الاعتراف بهذه الوقائع ، ولأسباب مفهومة جدًا يناصبونها أشد العداء . لقد كان لتشاؤمية شبنغلر بعض التأثير لكنه ظل محصورًا فى الدوائر الأكاديمية . أما فيما يتعلق بالرؤية السيكولوجية،

فى تشكل دائمًا عـدوانًا على الحيـاة الشخـصية ، ولذلـك تلقى مقـاومة ونكرانًا على المسـتوى الشخـصى . وأنا أبعد ما أكـون عن حسـبان هذه المقاومة أمرًا لا مـعنى له ، وإنما أجد فيها رجعًا (= رد فـعل) صحيًا ينذر بالخراب . ذلك أننا كلما اعتبرنا النسبية مبدأ أساسيًا ونهائيًا كان لها أثر تخريبى . ولذلك عندما ألفت الانتباه إلى التيـارات الباطنة المخيفة العاملة فى النفس ، فليس ذلك لأنى أريد أن أعزف نغمـة تشاؤمية ، وإنما لكى أؤكد على أن الخـافية (= اللا شـعور) تتمتع بجـاذبية شديدة لا بالنسـبة للمرضى وحسب ، وإنما لأصحاب العـقول السليمة البناءة أيضًا - إن هذا بالرغم من مظهرها المرعب . فالأعـماق النفسية هى الطبيعـة ، والطبيعة هى حياة خلاّقة . صـحيح أن الطبيعة تدمّر ما تشيده بنفـسها ، لكنها ما تلبث أن تعود فـتشيّده ثانيـة . مهمـا كانت القيـم التى تدمرها النسبـية الحـديثة فى العـالم المرئى ، تنتج النفس قـيمًا مـعادلة لهـا . وفى بداية الأمر، لا نسـتطيع أن نرى ما وراء الطريـق الذى ينحدر بنا إلى الأشـياء المظلمة المقـيتة - لكن مـا من نور أو جمال قـمين بأن يأتى من إنسان لا يســتطيع أن يحـــمل هذه الـرؤية . لأن النور يولد دائـمًا من الظلام ، والشمس لم تتوقف قط فى السماء بعد لكى تلبى ما يصبو إليه الإنسان أو لكى تديم مخاوفه. ألا يبين لنا مثـال «انكتيل دى بيرون» كيف أن الحياة النفـسية تظل حـيّة حتى بعـد كسـوفها ؟ إن الـصين لا تعتقـد أن العلم والتقانيـة الأوروبية يعدّان العدة من أجل تدميـرها. فلماذا يتعين علينا أن نعـتقد بأن الـتأثير الـروحـى الخفى الآتى إلينا من الشـرق لابد له وأن يدمرنا ؟

لكننى نسيت أننا لـم ندرك بعد أننا فى الوقت الذى نقلب فيـه العالم المادى للشرق رأسًا على عقب بمهارتنا التقانية ، يقوم الشرق فى هذا الوقت بالذات بما يملك من مهارة روحيـة برجّ عالمنا الروحى فى الفوضى . إننا لم نتوصل بعد إلى إدراك أننا فى الوقت الذى نتفوق فيه على الشرق فى القوة من الخـارج ، ربما يكون هو فى هذا الوقت بالذات آخـذًا بإحكام قبـضتـه علينا من الداخل . قد تبدو هـذه الفكرة غير صحيحـة ، لأن لنا عيونًا لا تنظر إلا إلى العـلاقات المادية الكثـيفـة ، ولا ترى أنه ينبـغى لنا أن ننحى باللائمة على الفوضى الفكرية التى تعانى منها طبقتنا المتوسطة على أبواب ماكس مولر واولدنيـرغ ونيومان ودويسن ويلهلم وسواهم . مـاذا يعلمنا درس الإمبراطورية الرومانية ؟ بعد غزو آسيا الصغرى أصبحت روما آسيوية ؛ حتى أوروبا أصابتـها العدوى الاسيوية ، ومـا برحت كذلك حتى يومنا هذا . فمـن كيليكيـا ظهرت عبادة مـيثـرا - ديانة الجيش الرومـانى - ثم انتشرت مـن مصر حتى بلغت بريطانيـا المغلّفة بالضباب . هل أحـتاج إلى التذكير بالأصل الآسيوى للمسيحية ؟

إلى الآن لم نفهم بجلاء أن «الحكمة الإلهية» الغربية ما هى إلا محاكاة للشرق يتولاها هواة من عندنا. ها نحن أولاء نعود إلى تبنى علم التنجيم ثانية، وهو عنـد الشرقى خبـزه اليومى. دراستنا عن الحـياة الجنسـية، التى نشأت فى «فـيانّا» وانجلتـرا ، تباريهـا أو تسبقـها تعـاليم الهندوكيـة حول الموضوع . النصوص الشرقـية التى عمرها عشرة قرون تقـدونا إلى النسبية

الفلسفية ، بينما فكرة اللاحتمية التى دخلت حديثًا إلى الغرب ، هى القاعدة الأساسية التى ينهض عليها العلم الصينى . حتى إن ريتشارد ويلهلم أطلعنى أن بعض السياقات المعقدة التى كشف عنها «علم النفس التحليلى» قد جاء وصفها فى النصوص الصينية القديمة بصورة لا تخطىء. و «التحليل النفسى» نفسه وما يرسمه من خطوط فكرية - ولا شك أنه تطوير غربى بصورة بارزة - ما هو إلا محاولة مبتدىء بالمقارنة مع ما هو موغل فى القدم فى الشرق . وفى هذا الصدد لابد لنا من ذكر الموازنة التى قام بها أوسكار ا. هـ. شميتز بين «التحليل النفسى» واليوجا .

أصحاب «الحكمة الإلهية» (= الثيوسوفيون) يؤمنون بفكرة طريفة هى أن بعضًا من «المهاتما» الذين يقيمون فى مكان ما من جبال هيملايا أو التيبت ، يوحون إلى كل عقل فى العالم ويوجهونه . وقد بلغ تأثير الإيمان الشرقى بالسحر على الأوروبيين من ذوى العقول السليمة مبلغًا من القوة جعل بعض هؤلاء يؤكد لى أن «المهاتما» هم الذين يوحون إلى ، على غير علم منى ، بكل خير أنطق به ، وإن الوحى الخاص بى لا قيمة له . انتشرت هذه الأسطورة ، اسطورة «المهاتما» انتشارًا واسعًا فى الغرب وآمن بها الناس إيمانًا راسخًا ، وهى ككل أسطورة ، أبعد ما تكون عن لغو فارغ ، لأنها حقيقة سيكولوجية كبيرة . إذ يبدو لنا أن الشرق هو فى أساس التغير الروحى الذى نمر به اليوم ؛ إلا أن هذا الشرق ليس ديرًا فى التيبت حافلاً بـ «المهاتما» ، وإنما هو كامن فينا بمعنى ما . إن أشكالاً

روحيـة جديدة سوف تنبعث من أعـماق حيـاتنا النفسيـة التى تعيننا على إخضاع شهوتنا غيـر المحدودة إلى السيطرة والافتراس . لعلنا عندئذ نصل إلى معرفة شىء عن الاستقرار الذى يكتسبه الوجود البشرى عندما تصبح مطالب الروح إلزامية كإلزامية ضرورات الحياة الاجتماعية . ومع ذلك فى عصر «التأمرك» الذى نعيش فيه ، . لم نزل بعيدين عن كل شىء من هذا القبيل ، ويبدو لى أننا لم نزل عند عتبة العصر الروحى الجديد ، إلا إذا أريد ادعـاء النبوءة ، ولا أستطيع تحديد مـعـالم المشكلة الروحيـة لدى الإنسان الحديث إلا إذا شددت على أهميـة التوق إلى الراحة الذى ينبعث فى التعب ، والأمـان الذى يتربى فى الخطر فالأشكال الجديدة مـن الحياة إنما تنبعث من الحاجـة والعوز ، لا من الرغبات الصرفـة أو من متطلبات مثلنا العليا .

وعندى أن صلب المشكـلة الروحيـة التى نعـانى منهـا اليـوم يجب البحـث عنه فيمـا تحدثه الحـياة من افـتـتـان لدى الإنسان الحـديث . فإن تشاءمنا قلنا إنها علامة إنحطاط ، وإن تفاءلنا قلنا إنها تبشر بتغير روحى بعيد المدى سوف يشهده العالم الغربى . على أى حال ، إنها مظهر بالغ الأهمية . وإنهـا الأجدر بالملاحظة لأنها تكشف عن نفسـها لدى قطاعات واسعة من كل شعب ، وهى الأهم لأنها مسألـة من مسائل القوى النفسية التى لا يسبر غورها ، فـهى تحول الحياة الإنسانية تحـويلاً غير ملحوظ ولا تمكن ملاحظتـه ، كما يبين لنا التـاريخ . هذه القوى - ومازال كثـير من الناس اليـوم لا يرونها - التى هى فـى أساس الاهتـمام «السـيكولوجى»

الراهن . عندما تكون قوة جاذبية الحياة النفسية من الشدة بحيث لا يشمئز الإنسان ولا يخاف مما هو مستيقن من وجوده ، عندئذٍ لا يكون ثمة مرض أو انحراف بشأنها .

على امتداد الطرق الكبيرة من العالم يظهر كل شيء كثيبًا ومهترئًا ، فيترك الإنسان الطريق المطروق بصورة غريزية ليكشف عن الطرقات الفرعية والحارات ، تمامًا مثلما نبذ إنسان عالم الإغريق والرومان آلهة الأولمب الميتة ويمم وجهه شطر ديانات الأسرار الآسيوية . بالقوة فى داخلنا التى تحفزنا على البحث ، وهى متجهة إلى الخارج ، تدمج ما بين «الحكمة الإلهية» الشرقية والسحر ؛ لكنها تلتفت أيضًا إلى الداخل وتقودنا إلى إيلاء انتباهنا الشديد إلى النفس الخافية (= اللا شعورية) ، فتنفث فى روعنا ريبية وعزيمة لا تلين ، وهما نفس الريبية والعزيمة اللتين بهما قضى بوذا على مليونين من الآلهة لعله يصل إلى الخبرة الأصلية التى هى وحدها المقنعة .

ثم لابد من سؤال أخير : هل ما قلته عن الإنسان صحيح حقًا ، أم لعله ناشيء عن خداع بصرى ؟ لا شك فى أن الوقائع التى توليت سردها هى فى نظر ملايين كثيرة فى الغرب ممكنات لا صلة لها بالموضوع ، وهى فى نظر عدد كبير من المثقفين أخطاء مؤسفة لكن لعلنى أتساءل : ترى ماذا كان الرومانى المثقف يفكر عندما كان يرى المسيحية تنتشر فى صفوف الطبقات السفلى من الشعب ؟ إن إله «الكتاب المقدس» لم يزل حيًا فى

العـالم الغربى - بمقـدار ما إن «الله» حىّ فـيما وراء الـبحر المتـوسط . والمؤمن ينبز المؤمن الآخر بالزندقة السافلة . وإنه جدير بالشفقة والتسامح إذا تعذرت هدايته . ما هو أكثر ، الأوروبى الذكى مقتنع بأن الدين ومثل هذه الأشيـاء إنما تصلح لسواد الناس وللنسـاء ، لكنها ذات وزن خـفيف بالقياس إلى شؤون الاقتصاد والسياسة .

وهكذا أجـدنى مكذّبًا على طول الخط ، أشـبه مـا أكون بمن يتنبـأ بهبوب الـعاصفة حين لا يوجد فـى السماء سحابـة واحدة . إذ ربما كان الذى أستشفه عاصفة كامنة وراء الأفق - ولعلها لا تصل إلينا لكن ما هو ذو أهمية فى الحياة النفسية هو دائمًا وراء أفق الواعية ، وعندما نتكلم على المشكلة الروحية عند الإنسان الحديث فإنما نتعامل مع أشياء لا نكاد نراها، مع أخفى الأشيـاء وأكثرها هشاشة ، وأزهار لا تتفـتح إلا ليلاً . أما فى النهار فكل شىء جلىّ ومـحسوس ؛ لكن الليل يدوم كمـا يدوم النهار . ونحن نعيش فى الليل أيضًا . فثـمة أشخاص يرون أحلامًا مزعـجة حتى إنها تفسد عليهم نهاراتهم . والحياة فى النهار هى ، بالنسبة إلى كثير من الناس ، نوع من الحلم المزعج يجـعلهم يصبـون إلى الليل حين تستـيقظ الروح . بل إننى أعتـقد أنه يوجد فى أيامنا هذه عدد كـبير من هؤلاء ، وهذا ما يفـسر لماذا أذهب إلى أن المشكلة الروحـية عند الإنسـان الحديث لهى بنفس الحـجم الذى قـدمتـه . والحق إننى مضـطر إلى اتهام نفـسى بالأحادية ، إذا لم أذكـر روح الإلتزام الحـديث بعالم عملى لـكل منا ما

يقوله فيه لأنه يمتد أمامنا ملءَ العين والبصر . إننا نجده فى المثل الأعلى العالمى أو فوق الأممى الذى يتمثل فى «عصبة الأمم» وما أشبه ؛ كما أننا نجده فى الرياضة ، وبصورة صارخة جدًا ، فى السينما وموسيقى الجاز .

هذه علامات بارزة على زماننا تظهر بما لا يدع مجالاً للخطأ كيف صيغ المثل الأعلى الإنسانى بحيث يشمل الجسد أيضًا . فالرياضة تمثل تقويمًا استثنائيًا للجسد البشرى ، كما يفعل ذلك الرقص الحديث أيضًا . والسينما من ناحية ثانية ، شأنها كشأن القصة البوليسية ، تتيح لنا اختبار جميع الانفعالات والعواطف والرغبات التي كان ينبغى لها أن تظل مكبوتة فى ظل تنظيم إنسانى من الحياة ليس فيه تعرض للأخطار . ليس من الصعب أن نرى كيف تتصل هذه الأعراض بالحالة النفسية فقوة جاذبية النفس تحدث تقديرًا ذاتيًا جديدًا ، وإعادة تقدير للحقائق الأساسية فى الطبيعة البشرية . ولعنا لا ندهش إذا أفضى بنا هذا إلى إعادة اكتشاف الجسد بعد أن قللنا من شأنه طويلاً باسم الروح ؛ بل لعل هذا يغرينا بالقول بأن الجسد يثأر لنفسه من الروح . عندما بين كسيرلنغ ساخرًا أن سائق السيارة هو بطل الثقافة فى عصرنا ، كان قريبًا من إصابة الهدف كما هو شأنه دائمًا . فالجسد يطالبنا باعتراف يساوى اعترافنا بالروح . فهو ، كالنفس ، له فتنته وجاذبيته . فإن كنا لم نزل واقعين تحت سيطرة الفكرة القديمة عن التناقض بين العقل والمادة ، كان معنى ذلك أن الوضع الراهن قد أصبح فى تناقض لا يطاق ؛ بل إنه قد يجعلنا ننقسم على

أنفسنا . أما إن كنا قادرين على الاصطلاح مع الحقيقة الخفية ، وهي أن الروح هي الجسد الحي منظورا إليه من الداخل وأن المادة هي المظهر الخارجي من الروح الحية - باعتبار الاثنين واحدا - فعندئذ نستطيع أن نفهم لماذا ينبغي على محاولة تجاوز المستوى الراهن من الواعية أن تعطي الجسد حقه . كذلك نستطيع أن نرى الإيمان بالجسد لا يمكنه أن يغفر لنظرة تتنكر للجسد باسم الروح . لقد أضحت هذه المطالبات بالحياة الفيزيائية والنفسية ملحة جداً بالقياس إلى مطالبات مماثلة لها في الماضي ، حتى إنها لتغرينا بأن نرى فيها علامة على الإنحطاط . ومع ذلك قد تعني أيضاً تجديداً للشباب ، لأنه كما يقول هولدرلن « الخطر نفسه . يحمل في طياته طوق النجاة » .

إن ما نشاهده فعلاً هو أن العالم الغربي بات يعزف على إيقاع بالغ السرعة ، هو الإيقاع الأمريكي ، وهو النقيض الصارخ للسكونية والإنعزالية المتكفنة ؛ مما ينشأ عنه توتر شديد بين القطبين المتناظرين من الحياة الخارجية والداخلية ، بين الواقع الموضوعي والذاتي . ولربما كان جهدا يائساً أو جهداً مفيداً من جانب الإنسان الواعي يبتغي منه خداع قوانين الطبيعة عن قدرتها الخفية لكي ينتزع من يوم الأمم نصراً مؤزراً . هذه مسألة يتولى التاريخ الإجابة عنها .

حتى نختتم الموضوع بعد هذه التوكيدات الكثيرة الحزينة ، يطيب لي أن أعود إلى الوعد الذي قطعته في البدء ، وهو أن أكون مدركا للحاجة إلى الحذر والاعتدال . والحق أنني لا أنسى أن صوتي ما هو إلا صوت واحد ، وخبرتي ما هي إلا نقطة في بحر ، ومعرفتي ليست أوسع من مجال الرؤية في مجهر ، وعيني ما هي إلا مرآة تعكس زاوية صغيرة من العالم ، وأفكاري ما هي إلا إعتراف ذاتي .

محتويات الكتاب

الموضوع — الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

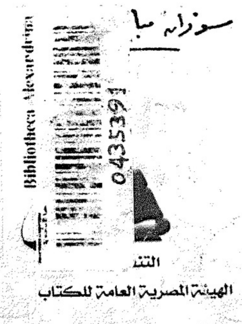
رقم الايداع : ١١٢٥١ /٢٠٠٣

I.S.BN. 977 - 01 - 8582 - 5



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة فارقة فى مسيرتها الحضارية.

سوزان مبارك



الهيئة المصرية العامة للكتاب

السعر
٣ جنيه